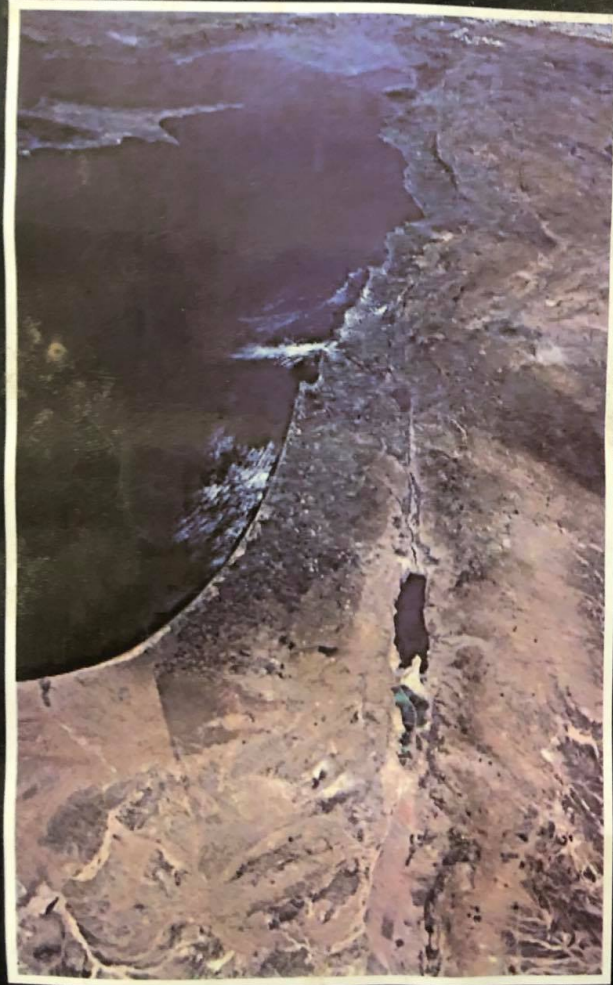


باسم سكجها



رواية

الكتاب

Milky Way

By: Basem Sakijha



باسم سكجها

مواليد القدس / ١٩٥٧ ، عمل

في عدة صحف عربية، ورأس

تحرير بعضها، وأصدر عدة

كتب منها: أسود وأبيض.

الطلقة الأخيرة. أيام رمادية.

وشارك في كتابة: نحو شفافية

أردنية وكتاب المرجعية

للشفافية الدولية والسرّ المعلن.

درب الحليب: رواية / باسم سنجها
الطبعة الأولى ٢٠٠٣
مؤسسة الأرشيف العربي



عمّان / الأردن

هاتف: ٤٦٥٦٦٨٢

فاكس: ٤٦٥٦٦٩٤

عنوان الكتروني: basem@nol.com.jo

الطباعة: مطابع الدستور التجارية / عمان

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٤٨ / ١ / ٩٢٠٠٣)

٨١٣٩

سكج سنجها، باسم

درب الحليب / باسم سنجها. عمان: المؤلف، ٢٠٠٣

٢٨٨ صفحة

د. ٤٨: ١ / ٢٠٠٣

الوصفات: القصص العربية

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية.

درب الحليب

باسم سنجها

كلمة لا بد منها

لم يكن لهذا الكتاب أن يخرج بمقدمة، لكن الصدفة لعبت دورها، فقد سلّمت المخطوط إلى الصديق الدكتور جمال الخطيب، الطبيب النفسي، لأخذ رأيه كخبير، لكنه أعاد لي هذا النص الذي رأيت نشره كما هو، بل وفكرت بأن اعتبره جزءاً من الرواية، لكن الجرأة خذلتنني، لأن الكثيرين كانوا سيعتبرونه إقراراً بما جاء في المقدمة، من توحد الكاتب مع المكتوب.

المؤلف

مقدمة

بقلم الدكتور جمال الخطيب عامر يذرع درب الحليب بحثاً عن باسم

مَنْ مَنّا لم يحلم بها يوماً؟ مَنْ مَنّا لم يبحث عنها يوماً؟ عصاً تشقّ البحر، تلتهم الأفاعي، تفتح الأبواب المغلقة، تنقل من الحيرة إلى اليقين، من الفقر إلى الغنى، من الظلمات إلى النور، من القيد للحرية، من الـ "بذاته" إلى الـ "لذاته"، حملنا إلى البدايات، نعود بنا إلى مبتدأ خاب خبره، لعله يبدأ من جديد. أن نبحث عنها في المحدود، فهذا ما قد نفعله أو فعلناه جميعاً... أما أن نحلق في الوعي، أو نغوص في اللاوعي، وجوب "درب الحليب" كله، بحثاً عنها، فهذا ما لم يفعله إلا باسم الذيب، أو عامر سكرها.

يبدأ باسم بداية صعبة، وربما صادمة، فبدون إنذار أنت أمام مرتفع شاهق وشديد الإنحدار، يحتاج صعوده المفاجيء إلى حذر

وتشبتت و... صبر. تماماً كأنك تصعد من الغور مباشرة، سواء في الموجب جنوباً، أو العارضة شمالاً، لا مجال لالتقاط النفس أو الإسترخاء.

بداية تُشكّل تضاريس قياسية، في منطقة أبعد ما تكون عن السماء إنخفاضاً، أقرب ما تكون إليها تواصلاً، نذرناً وادعاءً. لا بد لصراع الطبيعة، الصخر والماء، أن ينعكس على المكان وحُشّة، ولا بد للصراع على إمتلاك السماء أن ينعكس على البشر حيرة، على شكل يقين كاذب، ولا بد لفك كل هذه الطلاسم من عصاً سحرية.

تبسط راحة يدك من البداية... لتقرأ كفك، أو يقرأه لك باسم أو عامر أو دهب، فتؤخذ في رحلة التعاريج والدروب "رحم الله الشيخ إمام" لا خلّيت في الدروب مشوار، ولا فوق الورق مكتوب... وأتوب ازاي وأنا أيوب، رمانى الوعد للمكتوب؟! قصة جيلنا، الذي بدأ بشقّ عصا الطاعة، وانتهى بالعودة إلى بيت الطاعة، فلا سرح بمعروف ولا أمسك بإحسان.

تماماً، كما في الأسطورة، أو في الدين، أو في الدين الأسطورة.. تبدّلت العصا وتلوّنت، كانت بندقية، وكانت قلماً، وكانت حمراء وبيضاء وخضراء، كانت نضالاً وصارت جهاداً، قومية، دولة، عشيرة، مثلثاً، دائرة، دائرة في مثلث! عقلاً وتعقلاً واعتقالاً.. أليس التعقّل المفروض سوى قبول للإعتقال المرفوض؟!.

في أجواء سحرية حيناً، وتسجيلية أحياناً، عبث بنا باسم، "فكفكنا"، وأعاد تركيبنا، فتداخلت أجزاء كل منا مع الآخر، بل أكاد أشكّ أنه أعاد تركيب نفسه على هواه... ثم أعطى كلاً منا

عصاه. فاستعملها على قدر ما تيسر له. أو هبئ إليه. فحارب
منا من حارب. وكتب منا من كتب. وكلما فتحت عصاً باباً.
استعصت عليها أبواب. وكلما فكّت طلسماً استعصت عليها
طلاسم. حتى إذا أعيانا وأعياه الأمر. وجدنا أنفسنا أمام الشيخ
طاهر. نبدأ خطلاً من حيث انتهى خطأ. خلطاً بين جهادين:
أصغر وأكبر. وربما أصعب وأسهل. ونختار الأسهل لهاثاً وراء "غير
ذات الشوكة".

بعد رحلة طويلة بالألوان. نخط بالأسود والأبيض. فيما لا
يبدو واضحاً: هل هو عود قصدي للتعميم والمباشرة. أم انكسار
أمام الطيف. تماماً كما يستسلم قوس قزح في يوم داكن.
على مدى أيام. اعتقلني باسم. وانكفأت داخل نفسي لأصل
إليه. بعد أن جرجرتني إلى داخله لأرى نفسي. عبثاً حاولت أن أقرأ
الصفحات كمحترف علم نفس وطب نفسي. لم أقدر. ربما لأنها
أوراق باسم. هي بعض من نفسي. لا يفصلني عنها سوى "أرض
حرام" بسماكة خيط لا أميزه: أبيض أم أسود.

الجزء الأول الصخر والماء

ابسط راحة يدك أمامك...
تأملها!

هكذا كان المشهد. بعد أن انتصر الصخر على الماء. في أول صراع يشهده قلب العالم. وقف البحر الكبير مُنكسراً أمام كتلة ضخمة صماء من الصخر. يحمل خيبته. لكنه ظل يُعبر عن مرارته. عبر السنوات اللاحقة. بالبخل المقصود بالماء. مرّات. وبالإفراط به. مرّة. على شكل غيوم سوداء تتجمّع فتُرعّد وتُبرق. وتنهمر على أنحاء الكتلة الصخرية. بعد أن تتحوّل إلى سائل نقي خالص.

كان ذلك قبل أربعين مليون سنة. إلّا قليلاً! مرّت عشرة ملايين سنة. تفتّت الصخر. خلالهما. عند حدود الماء. في شريط ضيق. فصار رملاً ناعماً يمتدّ على طول أرض الصراع. وارتفعت. أثناءها. تلال وجبال. وتشكّلت وديان. على مساحة الصخر. جرّاء إنهيار الماء من الغيوم. لكنّ المشهد ظلّ كراحة يدك الممدودة. مع قليل من البثور والجروح.

تطلّع الصخر إلى نفسه. في مرآة البحر. فلم تُعجبه

هيئته. وأخذ يفكر. خرج بفكرة رآها كافية لتجميل وجهه. وإذلال الماء. في آن.

نحن. الآن. إذن. قبل ثلاثين مليون سنة! تملّمل الصخر. فشدّ عضلاته وأرخاها. وشدّها وأرخاها. وضغط على مساحة طولية من جسده. على شكل هزّات رهيبة. لتخفض شيئاً فشيئاً إلى ما تحت مستوى البحر... وتطلّع الصخر إلى نفسه. في مرآة السماء. فرأى ما أعجبه. إلّا قليلاً!

كان البحر ساكناً. واجماً. عند طرف جسده الرملي. وكانت سلسلة جبال عالية تقف حارسةً للرمال. من أيّ غدر مائي. يليها إنخفاض سحيق. ثم سلسلة جبال عالية أخرى. لتبدأ هضاب تنتهي عند رمال ناعمة تمتد إلى ماء آخر. وفكر: كان ينقصه شيء...

كان الماء الآتي من اشتباك الغيوم يمرّ في بطنه المنخفض. ليعود إلى ماء آخر.

تملّمل قليلاً عند بدايات المنخفض. فارتفع جبل. وانخفضت مساحة صغيرة في منتصفه. وأخرى كبيرة قبيل نهاياته. صارت الغيوم فوق الجبل مضطّرة لتحويل نتائجها إلى ثلوج. تستقر على أعلى الجبل. طوال السنة. وصارت المياه الآتية من الغيوم الأخرى. وتلك الآتية من ذوبان ثلوج الجبل. مضطّرة للانسياب في مسار متعرج. لتتجمّع في المنخفض الصغير. وتعود للانسياب في مسار آخر. متعرج أكثر. ولتتجمّع في منخفض المنخفض الكبير. مُشكّلة بحيرة كبيرة تمدّ لسانها نحو البحر الآخر.

وفرّج الصخر على شكله الجديد، لكنّه ظلّ على مدار الملايين
الثلّاثين من السنوات، يُجرى التغيّيرات على جسده، واحدة بعد
الأخرى، حتّى رأى أنّه اقترب من الكمال.

صار يحمل اللون الأخضر على الجبال، والأزرق على البحيرتين،
والأصفر على الرمال، والبني المتدرّج على التراب، وفي أيام الربيع
القليلة كانت كلّ ألوان الدُّنيا، بتدرّجاتها المختلفة، تنور فجأة
فقطعي المشهد شكلاً ساحراً.

وتصالح الصخر مع البحر، على شكل تعايش، لكنّ الصراع
بينهما ظلّ يُعبّر عن نفسه بخجل.

البحر يبخل بالماء، فيردّ الصخر بأن يتململ، فيتزلزل.
وجاء الناس، إلى قلب العالم، بعد أن أخذ شكله الجديد،
وتعايشوا، فسَمّوا البحر الكبير بالأبيض المتوسط، والأصغر
بالأحمر، والجبل الكبير بالشيخ، ومجرى انسياب مياهه بالأردن،
والبحيرة الصغيرة بطبريا، والكبيرة بالبحر الميت...

وجمّع الناس في مدن، على الجبال، والهضاب، وقرب الماء عند
الأردن والميت والأبيض والأحمر، فأعطوها أسماء، ثم غيَّروها،
وكان التغيّر يحمل، دوماً، قصّة الصراع الذي بدّاه الصخر والماء،
وورثاه لهؤلاء السكّان الذين سيحملونه معهم، في حيواتهم،
ليعبدوه إلى صاحبيه يوم الحرب الكبرى، بين الخير والشرّ، يوم
القيامة...

ولو تطلّعت إلى مشهد السماء، في الليل، من تحت، عند
أخفض نقطة على الأرض، عند شواطئ البحر الميت، الذي أراده
الصخر رمزاً لانتصاره، وتذكيراً دائماً للبحر الكبير بانكساره،

فسترى مجموعة النجوم المسمّاة درب التبانة، وكأنّها انعكاس
ذلك النهر، نهر الأردن، تسير بمساره، لكنّ نهر السماء كان
يحمل الحليب، لا الماء، لهذا سمّاه الكثيرون: درب الحليب.

لكنّك لو تطلّعت إلى مشهد الأرض، من هناك، من فوق، من
السماء، من درب الحليب، فستستطيع، الآن، بعد آلاف السنين
من تواجد الناس، أن ترى مدناً مثل القدس وعمّان وبيروت وبافا
والشّام والخليل وبغداد والكرك والقاهرة والسلط ونابلس وحيفا
وإربد وجرش وجنين وغزة ومادبا وذيّبان وأريحا وبيت لحم
والناصرّة....

ورسمت على صورته في مظاهرات أخرى إشارة النازية، ووضع له شنب قصير للتذكير بهتلر، أو كثيف للتذكير بستانلين. وفي مسيرة صامتة جابت شوارع سانتياغو وضع جسد رمزي يمثله على صليب. وظهرت إشاعات جابت العالم تزعم بأنه لم يميت. وقال عجوز داغستاني إنه شاهد صورته في البدر الذي اكتمل عند منتصف شعبان، فنشرت مجلة في كراتشي الخبر لتصل إليها رسائل من مختلف أرجاء باكستان، يدعي أصحابها أنهم رأوا الشئ نفسه. وتردد في معبد بوذي أن عامر هو "الأوم" نفسها، وأنه لفظ "السر المقدس" قبل عملياته فلم يميت حين اجتاحت نيران ملايين الكتب في الكونغرس. وأعلن الكاتب البرازيلي باولو كويلو أنه كان يقصد عامر في رواية "الخميسي". وأنه سيصدر الجزء الثاني منها قريباً. وعادت دور السينما الأميركية لعرض فيلم: "هجوم المريح"، لأن عامر ذكره في خطبة وداعه، وقال ستيفن سبيلبيرغ إنه يتعرض إلى ضغوط لإخراج فيلم عن عامر، لكنه ما زال عند رأيه بأن الخيال السينمائي لا يمكن أن يرقى إلى الحقيقة، التي صنعها ذلك الرجل الآتي من جبل نبو...

وأشياء أخرى أكثر غرابة...

فقد أعلن أناري فرنسي أن حجر ميشع، الذي يقبع في زاوية من متحف اللوفر، ليس سوى كتابة تحمل نبوءة للملك الذيوني لما فعله عامر، ففيها يذكر جبل نبو باعتباره مكان إنتقام دموي، وسرق الفكرة كاتب ألماني مغمور، وطورها، فقال إن نوستراداموس قصّد عامر في نبوءته الأخيرة، وانتشر ذلك

١

نعم...

أنا طبيب نفسي...

لكنني لا أكتب هنا، بهذه الصفة، فلست سوى صديق لرجل من عجينة طين غير عادية، عاش حياة من نوع خاص، تناقض فيها التكامل، وتكامل فيها التناقض، وتقدمت فيها النتيجة على الأسباب، ولبيان صدق كلامي، فإنني أعلن منذ الآن، من بداية البداية، أنني أحسد عامر على الكثير من اللحظات التي عاشها في حياته، الطويلة القصيرة. أحسده الآن، وقد حسدته على الدوام، منذ عرفته، وحتى تلك اللحظة التي سمعت فيها اسمه يتردد في خبر بثته "السي ان ان"، في ذلك الصباح الذي غير وجه العالم...

ومنذها، صار عامر شخصية عالمية...

لا تخلو صورته من صحيفة، أو موقع الكتروني، فحيكت حوله آلاف الروايات، وادّعى صحفيون إجراء آخر المقابلات معه قبل رحيله، وحملت صورته خلال مظاهرات باعتباره بطلاً.

التحليل، حتى شجّع الكاتب على تأليف كتاب على عجل. ساق فيه عشرات الأمثلة السطحية، وترجم الى عشرات اللغات. وصار على قائمة الكتب الأكثر مبيعاً. التي ينشرها ملحق "نيويورك تايمز" الأسبوعي. ولدة شهرين....
وهناك الأغرب، أيضاً....

فقد ادّعى درويش مراكشي بأنه قابل عامر في جامع الفنا. قبل فترة من تنفيذ عملياته، وائتمنه على سرّه. وقال له إنه سيعود إلى العالم بعد شهر قمريّ من رحيله. وسيحلّ في جسده. وها هو يعلن على الملأ إنه صار عامر بعد انقضاء الفترة. وقد أصبح هذا المدّعي شخصية عالمية تتسلّى بها وكالات الأنباء ما بين وقت وآخر....

وفي أورشليم القدس، دعا حاخامٌ يهود العالم إلى كتابة ورقة تدعو الله إلى وقف الشرّ المقبل إلى إسرائيل. ووَضَعَهَا بين شقوق حائط المبكى. على أن تُذيل بصورة ساهم يبدأ بنجمة داود. وينتهي بكلمة عامر الدجال. وفي المقابل دعا شيخ متصوّف المصلّين في المسجد الأقصى، فوق وعلى بعد عشرات الأمتار من الحائط، إلى الدعاء إلى الله لاحتسابه شهيداً....

وفي عدن، قام رجل بدقّ عنق امرأة شقراء على أساس أنها أجنبية. بعد أن صرخ في وجهها: لبيك يا عامر. فاتضح أنها مسلمة من لبنان. وحين بكى في المحكمة ندماً على فعلته، كانت مظاهرة في الخارج تحمل يافطات تدعو إلى الجهاد ضدّ الصليبيين الجدد، وعلى شاطئ سانتا مونيكا في لوس أنجيليس عُثِر على جثة لامرأة سمراء، أغرقت عمداً. على الطريقة

الماسونية، ووُجِدَتْ في فمها رسالة وُضعت في كبس بلاستيكي تصفها بعاهرة عامر. واتضح بعد التحقيق أنها كاثوليكية من غواتيمالا....

صار عامر، في لحظة، إلهاً...
للشرّ. وللخير معاً....

وإلى ذلك، فقد صار إلهاً للحبّ، وللكره في آن. تُرجمت أبيات من أغنية غجرية أحبّ كلماتها. ووُزعت موسيقاها بشكل جديد. وانتشرت في كلّ مكان مُريد لعامر. تقول كلمات لازمتها:

لَهْجَرُ قَصْرِكَ،
وَأَرْجَعُ بَيْتَ النُّورِ...
وَأَعُوذُ لَهْلِي،
بَعْدَمَا دُقَّتِ الْقَهْرُ...

وصار إسم عائشة يتردّد باعتباره نموذج الحبيبة الخالصة. لأنّه كان إسم إحدى حبيباته. وعادت أغنية عائشة المنسية للشباب خالد لتصبح الأكثر مبيعاً في العالم. واعتبرت صخرة قصبة وحيدة في البادية الأردنية، من حجر رملي بلون الزهر، وتأخذ شكل القلب، محجّاً للعشّاق. وصار هؤلاء يكتبون عليها الأسماء مقرونة برسمة للقلب. ومعها تواريخ، وأشعار. وكلّ ذلك لمجرّد أنّ عامر مرّ من هناك. فكتب بعدها عن الصخرة مقالة متوقّعةً بأنّها "أنت من زمن آخر. ومن كوكب آخر. أو من نجمة زاهية كالزهرة التي يسمّيها الغرب فينوس" واختتم المقالة بالقول: "إذا كانت تلك نجمة الحبّ في السماء، فهذه هي

صخرة الحب على الأرض".

صارت الصخرة، أيضاً، مزاراً للسباح الأجانب... وفي المقابل، تُرجمت قصيدة له، كانت نُشرت في روايته "أسود وأبيض"، ووزعت باعتبارها النموذج الخالص للشر، كتب عنها المحرر الأدبي في "لوموند": يختزل عامر في قصيدته العالم كله في كلمة بلدي، ويرمز إلى الطائرة بالغراب الأبيض، وإلى ناطحات السحاب بالحمائم السوداء، وقد يكون قصد بالنسر الجراح سلاحاً جديداً للدمار، لا نعرف نوعه يقتل الآلاف، بل قد يكون الملايين، أما تناثر العنقود فواضحة تماماً، حيث يريد عامر أن تكون عمليته الحب في سبحة الشرق المعروفة، التي يجمعها خيط واحد، وحين ينقطع الخيط، وتسقط حبة، تتبعها كل الحبات، إنه نبوءة الشر الآتي من الشرق.

تقول القصيدة:

سَيَقُومُ فِي بَلَدِي،

غَرَابٌ أبيض...

سَتَقُومُ فِي بَلَدِي،

حَمَائِمُ سود...

سَيَقُومُ نَسْرٌ جَارٌّ بِدَمٍ،

بوجوده، يتناثر العنقود...

٢

ولست أنكر، الآن، مسألة، سوف تستعجلون في استنتاجها، هي أنني قد أستخدم، بعفوية، في لحظة، إلى التفكير بالنمط ذاته، ذلك الذي كان عامر يعتمد، ولهذا فأنا أطلب بقلب مفتوح، وب عقل واع تماماً، من كل من يقرأ كلماتي أن يخصص منها ما يعتبره خبزاً له، فليس هذا قصدي في حال من الأحوال، وأعترف بأنني تأثرت به، وأعترف أكثر بأنه كان رجلاً مميّزاً عاش حياة غير عادية، ولن أقول أكثر من أنه كان أحياناً يسرق الكلمات من لساني، فيقولها قبلي...

وحتى لا تتسرعون في الحكم عليّ، فأنا لا أعلن هنا موافقتي على ما فعله، ولا في حال من الأحوال، ولكنني أخذت عن عامر، الرجل الذي عرفته في أواخر سنوات حياته، فتصرفت معي كصديق، وتصرفت معه بمشاعر اختلطت فيها مهنتي كطبيب نفسي بالصدّاقة، وحين أروي قصته، فإنني أفعل لسبب واحد وحيد، هو توضيح ذلك اللغظ الذي أثّر من حوله...

ولهذا الكتاب قصة...

فقد جاءني اتصاله ذلك الفجر كالصاعقة، قال فور سماعه صوتي، بشهقة أحسستها أنت من قلبه: الحمد لله، وأضاف بسرعة: سأمر عليك الآن، فقط مسافة الطريق، كان وصل للتوّ من واحدة من سفرائه الغامضة، علمت منه بعدها

أنها كانت للمغرب. دخل وبيده زجاجة ويسكي، صبّ منها كأساً وشرب. ثم أخذ يتحسّسني بعينه، وكأنّه غير مصدّق أنني موجود أمامه. قال إنه خاف عليّ أن أكون قد مت، لأنّ الحاجة تنبأت له بأنّه سيفقد أعزّ أصدقائه قريباً.

قلت له: أنت مجنون يا عامر؟ تأتيني في الفجر لتحدّثني كالمشعوذين. كلّ ذلك العقل والعلم، وتؤمن بهذه الخرافات. أنا لا أصدّق. كيف يمكن للإنسان أن يعرف مسبقاً موعد موت إنسان آخر. أنت مجنون؟ وأصبحت تشرب في الفجر أيضاً؟

ردّ بسرعة ولكنه ساخرة: إذن عاجني، فأنت الطبيب والصديق. وأضاف بلهجة دفاعية: أنا لم أتم حتّى الآن. وقد شربت في الطائرة. وشعرت بأنني بحاجة إلى كأس آخر. إذا كنتُ مجنوناً فلماذا لا تعالجي. كما تفعل مع الزوجات العمانيات المحبطات من أزواجهن؟

وكان جاداً... ولم أكن كذلك... فقد ظللت على الدوام أفصل مهنتي عن حياتي الشخصية. وفي كلّ الأحوال، فلم أكن أرى في عامر مريضاً بحاجة إلى علاج. وحين قلت له ذلك، وأضاف: أنا بحاجة إلى العلاج أكثر منك، ردّ بسرعة: إذن سأعالجك أنا. إتفقنا على جلسة أسبوعية، هي أقرب إلى حديث الأصدقاء منها إلى جلسات الإستماع، وفي مكان أبعد ما يكون عن العبادة، فقد اخترنا مطعماً تقليدياً قديماً في وسط عمّان. بعد خروجه بساعة، إتصل بي، وجاء صوته عميقاً، بطيئاً.

مليئاً بالحزن. قال: عرفت للتوّ أنّ رفيقاً قديماً استشهد في رام الله خلال سفري. كان صديقاً عزيزاً. فهل ما زلت تعتبرني مجنوناً؟ نلتقي إذن الثلاثاء، الساعة الثامنة، في مطعم الأوبرج...

قالها، وأغلق الخط.

٣

جاء الثلاثاء، دون أن يؤكّد عامر موعدنا. فافترضت بأنّها كانت مجرد فكرة راحت مع السكر، أو أنّه لاحظ عبثيتها فرجع عنها. أو أنّه نسي الموعد. المهم أنني لم أذهب.

في الثامنة والربع، جاءني اتصاله الغاضب، فذهبت إليه. كان واضحاً أنّه شرب عدّة كوؤوس في انتظاري، وبشغل وقته بمحادثة النادل. لم يكلف خاطره بالترحيب بي بحرارة، بل واصل حديثه، قال: نعم، أنا أعرف بغداد جيداً، فقد سافرت إليها عدّة مرّات، ولكنها المرّة الأولى التي أسمع فيها عن زاوية لأصحاب طريقة تسمّى الكاسانزانية. قل لي: هل لأصحابها تواجد في الأردن؟

أجاب النادل بأنّه لا يعرف، ووعد بأن يسأل أصدقاءه، ولو لم

أتجنح لما لاحظ عامر وجودي، فاعتذر، وسألني: ماذا تشرب؟
قلت: ماء، فقط ماء.
لم يوافق، وقال: إشرب معي، فلن نحصل متي على كلمة لو
تركنتي أشرب وحدي!
وطلب لي كأساً فارغة، وصبّ فيها من زجاجته.

المطعم قديم، يستغرق مساحة صغيرة من طابق كامل
يحمله مقهى، وعلى طرف المطعم إلى جانب المرحاض المنبتعة
منه روائح كريهة، ملحمة صغيرة يختار منها الزبائن قطع لحم
تذهب إلى الكانون الكبير، لتنبعث روائح الشواء فتختلط مع
غيرها، تلك الآتية من الزقاق الموصل إلى المبنى والمليئ بدكاكين
لبيع السمك والتوابل وأشرطة الكاسيت والعطور الزيتية
والفلافل، في البناية المجاورة، فندق متآكل يؤجر الغرفة بدينار،
ويرتاده الريفيون المقبلون إلى عمان، والسياح الشباب الأجانب
الذين يتنقلون بين عواصم الشرق بأقل القليل من الدولارات،
حاملين معهم حلم البحث عن سحر من نوع خاص..

وكان ذلك مدخل الكلام، سألته: ما قصّة المطعم، إنه لا
يليق بالصورة التي عرفتها عنك؟!

رد باسمًا: وما هي تلك الصورة؟

قلت: الكاتب الثري، الذي يتنقل من مطعم فخم إلى آخر
أفخم؟

ضحك بملء صوته، ولم يردّ على التساؤل. قال: اسألني كما
تفعل مع مريض تقابله أول مرة، ماذا تريد أن تعرف عني؟
رددت. لقد سألتك للتوّ: ما قصّة المطعم؟

قال: ببساطة، هنا أتعرّف على فتيات أجنبيات جميلات، من
أنحاء العالم، غير متطلّبات، يردن مكاناً للنوم، ومستعدات
للحديث، ويستمعن إليّ.

إبتسمت، وقلت: هذا أنت إذن، الباحث عن متعة عابرة؟
ردّ: لا، لا تفهمني خطأ، كنت ذلك الشخص، ولكنني تعودت
على المطعم، وهو يمثل لي الآن جزءاً من الماضي، الذي أحبّ أن
أستعيده. في يوم ما قبل ثلاثين سنة لم أحمل في جيبني ما
يكفي للدخول إليه، واليوم أستطيع شراء المطعم كلّهُ، لا أدري،
فهو الحلم الذي تحقّق ناقصاً، والحقيقة التي جاءت في غير
موعتها.

أمسك بعصا كانت تستند إلى المقعد المجاور له، لم أكن
لاحظتها من قبل، وصار يداعبها.

سألته: ما قصّة العصا، إذن؟ هل تعاني من مرض ما؟
ضحك، وضحك، وضحك، وضرب بالعصا على الأرض، وقال:
هنا بداية جيّدة، العصا هي البداية، وهي النهاية أيضاً.
إبتسمت، وقلت: فلنبداً بالعصا، إذن، من أين أنت؟
وهنا، سأسجّل ما قال، محافظاً على أسلوبه قدر الإمكان...

الجزء الثالث

عصا عامر

١

حين كانت تختلط الأمور على عامر، فيشعر بأن الدنيا ضاقت، وضاقت، حتى أصبحت جحراً ...

حين يرى القدر، يقابله بأقصى ما يملك من مفاجآت، فيبدو صعباً، معانداً ...

حين يتأمل نفسه، فلا يرى سوى بقايا شبح رجل عاش في زمن ماضٍ، نسي الموت أن يلفّه معه في رحلة النهاية ...

حينها... كان يصعد إلى جبل نبو . ليس بدري ما حكايته مع هذا الجبل، ولا بدري ما قصة الجبل معه. كان يعرف، فقط، أنه مسحور به، وغير قادر على فكّ طلاس هذا السحر العتيق .

في قرية بائية، عند سفحه، عاش طفولة صعبة. هناك حيث السكون، عايش الرقم ٧ وكأنه الحقيقة الوحيدة في هذا الكون العجيب. في بداية سبع عجاف وُلد، تلتها سبع عجاف أخرى، قضاها بين مدرسة بعيدة، وبيدر لم ير من القمح إلا سواده، وجبل قريب يدعوه دوماً لزيارة كان يلبّيها، فيعود، وقد جدد مفعول سحره.

ومع انفتاح الذهن على الدنيا، في منتصف السبع الثانية، من عمره، بدأ يستمع إلى أهله: نعيش بركات سيدنا موسى،

وما هذا المحل الذي تُقابل سوى اختبار لا يُذكر. أمام ما مرّ به النبي العظيم، إختارنا موسى أن نكون إلى جواره. إختار أن يترك جسده البهيّ في ترابنا، بعد أن سافرت روحه إلى السماء.

وفي المسجد الصغير، كان يستمع إلى الشيخ يقول أكثر: أربعون سنة قاد سيدنا موسى قومه، في الصحراء، متحملاً غيبتهم، وأذاهم، لكنّه فارقهم هنا. فارق الدنيا على هذه الأرض، لأنّه كان يعرف ماذا سيفعل قومه هناك، في تلك البلاد الطاهرة".

وأكثر:

" كان سيدنا موسى قادراً على دخول فلسطين بلا قتال. فقط لو استعمل عصاه، لو ضرب بها على الأرض، لانفتحت له البلاد، ورحب به سكانها. لكنّه أراد لقومه أن يواصلوا رحلة اختبارهم، وكان يعرف النتيجة سلفاً، لهذا فضّل أن يرتاح، واختار هذه الأرض الطيبة".

وتفتح الذهن الصغير عن سؤال: أي عصا يا سيدي الشيخ؟ فاستطرد الشيخ بشرح الآية، التي وهبها سبحانه وتعالى لنبيه موسى. المعجزة التي كانت على شكل عصا، تتحوّل إلى أفعى طيبة تأكل غيرها من الأفاعي الشريرة، وتضرب على البحر فينشق نصفين....

وتفتح الذهن الصغير، أكثر: وأين صارت هذه العصا. لقد مات سيدنا موسى، فأين ذهبت العصا؟

ولم يردّ الشيخ، فقد كان أصغر من سؤال ظلّ حائراً في ذهن عامر، يبحث عن إجابة. وفي تلك الظهيرة، بدأ السؤال الكبير

يستحوذ على العقل الصغير. وصار يكبر، ويكبر مع العمر. وظلّ بلا إجابة.

والبحث عن إجابة، لسؤال كهذا، يكون بالقراءة. هذا ما لم يقله له أحد، لكنه بدأ يمارسه. غزا مكتبة المدرسة. كتاباً إثر آخر. ليصبح السؤال أسئلة. كانت الكتب تُثير لديه أسئلة، أكثر من أن تُعطي إجابات. وكان راضياً. يستعير الكتاب، فيبدأ قراءته في الطريق. عند البيت الصغير، المبني من حجارة عتيقة، مسروقة من أثر قديم، يكون أنهى القليل. قليل من الأكل. والمناخ قليل أصلاً. ليتوجّه إلى الجبل. يعرف دربه جيداً. تعرفه غريزته. تعرف كلّ التفرعات والتدرجات، هذه التي مرّ عليها موسى وناسه. يقلّب الصفحات، واحدة واحدة، يفهم شيئاً. ولا يفهم أشياء، لكنه يواصل القراءة. عند قمة نَبُو، إلى جانب الكنيسة، يقنع صخرته. يُراقب الحركات البطيئة، الرتيبة، التي يعيها الرهبان. يُنهي نظرته البانورامية للبحر الميت، والجبال المحيطة به، ويعود للقراءة. ينبج كلب بعيد، قليلاً، فيعرف أنّ عليه العودة. الشمس تكون في نهايات نزولها تحت الجبال المُقابلة، جبال فلسطين. بعد ربع ساعة، تماماً، يرفع مؤذن المسجد الصغير أذان المغرب، يسمعه وقد اقترب من قريته. ومع بداية النعامة أوّل جمعة، يكون أغلق الكتاب، ودخل إلى البيت.

كان هذا طغسه اليومي.

وفي يوم ألت عليه العصا، عصا موسى، فوردت إلى ذهنه فكرة أنّها قد تكون مرميّة على جانب طريقه. صار مع كلّ تعريجة، مع كلّ طوية لصفحة، يتوقف، ويتطلّع حواليه، فقد

يجدها. وبانت هذه عادة لازمته عمره. يقرأ، ويقرأ. يُنهي الصفحة فيتلقت. ومع نهاية صفحة، ذات عصر، تطلّع جُمَد. وارجفت عروقه: كانت ثمة أفعى يلتهم سوادها القائم، بأشعة شمس حارقة، تتطلّع عليه. قرأ في الكتب أن الأفعى لا ترى، لكنها أمامه. الآن، تعلي صخرة مُشرفة، وتبادلته النظرات الحادة. رأسها بحجم فأر، وتمتد بتناسق متراً، أو أكثر، وتتلوّ عند الذنب. جُمَد أكثر، ولكن بتحسب. سيغيّر موقعه، بسرعة، فور تحركها. عقله كان يعمل بجِد، لكن جسده يخذه. كان يرتعش. ازدادت النظرات الحادة، المُتحدية، شراسة، وطالت دقائق قليلة، حتى ظنّها دهرًا. بهدوء بالغ، وبثقة فَرَس، أدارت الأفعى رأسها، فجسدها، وتحركت. إنسابت إلى ما وراء الصخرة، تابعها في زهول، ظلّ يرافقه مطوّلاً.

وكان طبيعياً أن يعود، وخوفه، من حيث أتى. لكنه واصل طغسه اليومي. جلس على صخرته، تاركاً كتابه عليها، متأملاً تكامل الطبيعة، أمامه. كان يفكر بهذه التجربة الغريبة، ويتساءل عن هذا التسامح الذي قدّمته أفعى. وتبنت تفسيراً، رافقه حياته: إمّا أن تكون الأفعى هي عصا موسى، أو تكون حية طيبة، تحرس العصا، وقبر سيّدنا موسى.

وبلغ الرابعة عشرة، مع شتاء غزير، وخير كثير، وأصوات طلاقات، مُتقطّعة، تأتي من معسكر قريب أقيم على عجل، كلّ صباح، وكلّ مساء.

وتناقلت القرية النبأ: جاء الفدائيون، الذين سيبحرّرون فلسطين، من نفس المنطقة التي شهدت معسكر اليهود، قبل

دخولهم أرض السمن والعسل.
قال الشيخ: جاءت السبع السمان.. الخير عميم، وسينصر
الله عباده من المجاهدين.

وسرعان ما وجد عامر نفسه، مع شباب القرية، جزءاً من
المعسكر. يتدربون على الأسلحة، ويستمعون إلى نقاشات
سياسية حول وضع عربي مهزوم، ومستقبل جميل. بقوة
السلاح سيصنعون هذا المستقبل. ووردت أسماء ماركس ولينين
وجورج حبش، ثم صارت تتردد دائماً.

"هؤلاء شيوعيون" ... كلمتان فالفهما شيخ المسجد، وكانتا
كفيلتين بهرب كثير من شباب القرية، من المعسكر. لكن عامر
بقي هناك، مع قليلين، تستهويه النقاشات، ويأسره منطق أمر
المعسكر، وحبّه. كانا يتناقشان حول كل كتاب يقرأه عامر. وصار
يتقيد بنصائحه بقراءات معينة، فهو يمتلك كل الأجوبة، لكل
الأسئلة.

وسأله، ذات مغرب، عن عصا موسى. كان السؤال مُحيراً. ردّ
عليه: قد جُذ الإجابة في التوراة. أنا لا أذكرها حدثت عن مصير
العصا.

وجاءه بالتوراة. قرأها، فسحرته هذه الأجواء الأسطورية.
واستغرقه وصف منطقته، وانتصارات أهلها على اليهود،
وهزيمتهم. أيضاً. لكنه لم يحبّ سيدنا موسى، كما أحبّه من
القرآن.

قال لنفسه: لا بدّ أنّهما شخصان مختلفان.
ولم يعثر على أثر للعصا. مات موسى هنا، ودُفن هنا. فلا بدّ

أنّه ترك عصاه هنا، في مكان ما من هذا الجبل.
سأل نفسه، وأجاب، ولم يكرّر السؤال، على غيره، بعد ذلك.
واصطحب الأمر إلى الجبل. لاحظ اندهاشه من روعة
المشهد، ولح دمه كادت أن تفرّ من عين ترافق فلسطين عن
بعد. كان هذا من بيت لحم، التي كانت على بُعد دمه لم تُدرف
بعد. وأحبّ أمره، هذا القديس المسيحي الملتحي، الذي لو عاد
المسيح لتجسّد بهيئته. أحبّه لتواضعه، وثقافته، ونقائه. وأحبّه
أكثر لأنّه جرّاً ودخل إلى الدير، الذي يعتلي قمة نَبوّ، معه. تقدّم
بهيئة الفدائي الكاملة، مُسدّسه عند خصره، ورشاشه يرتاح
على ظهره. فتّح الباب الكبير، وراءه عامر، وجوّلاً في القاعة
الكبيرة. لم يأبه باعتراضات الرهبان. جأههم، فأخذ يتأمل
الجدران العتيقة، المُطعمّة بالفسيفساء المتآكلة... قال على
مسمعهم: هذا بيت المسيح، والمسيح للناس جميعاً.
لَمْ يخطر على بال عامر أن يدخل الدير، في حياته، وها هو
يتجول في أرجائه فاجئاً.

في طريق العودة، تحدّث أمره عن المسيح رجلاً عادياً، من لحم
ودم، ولكنه نائر.

صار ينام في المعسكر. وتكرّر غيابه عن المدرسة، فهي من آثار
سبع عجاف ولّت، والمعسكر بُشّرَى هذه السبع السمان، التي
ستغير حياته، وحياة أهله، وشكل الدنيا كلّها.

وتدرب على الأسلحة المتوفرة، فالسلاح وسيلة هذا التغيير،
وصار يُصوّب مسدّسه على حجر، من على بُعد عشرين متراً،
فيحطّمه.

وجاء موسم الحصاد. فشارك الفدائيون أهل القرية بتفاصيله. كان أمر المُعسكر يرى أن على الفدائي مشاركة المجتمع المحلي حياته. ويريد أن يلغي صورة الإلحاد عن مُعسكره. وخسنت العلاقات كثيراً. إلى حين.

إلى حين جاءت فيكي وصوفي ومارك وخوانيتو ورومي. فقد كان لوجودهم وقع الصاعقة على القرية. والدهشة على الفدائيين ...

وأول الحب على عامر.

فلم يكن اختيار قيادة الجبهة لوقع المُعسكر صدفة. من هناك. وعلى مسيرة كيلومترات خمسة. يبدأ الماء البالغ الملوحة. يبدأ البحر الميت. لينتهي بأول رملة فلسطينية. كانت الجبهة تبتكر أساليب جديدة لعملياتها ضد إسرائيل. وتعرف أن العمليات التي يخترق الفدائيون خلالها نهر الأردن باتت صعبة. فالعدو أقام على طول الضفة الغربية. خطاً دفاعياً صلباً. يمنع التسلل. ويجعل الداخلين هناك كالفئران. وقد وصلوا إلى المصيدة.

لهذا. فقد قررت الجبهة تنفيذ عملية كبيرة. دخولاً إلى فلسطين عبر البحر الميت. وتدمير مستوطنة عسكرية. تُشرف على طريق بيت لحم / الخليل. فأقامت المُعسكر هناك. قريباً من الماء. واختارت التلحيمي الثائر أمراً له. كل هذا عرفه عامر. من الأمر. لكن ماذا يفعل هؤلاء الأجانب في مُعسكرنا؟

أجابه: لكل دوره. ستعرف كل شيء في وقته.

وأضاف: ولك دورك .. أيضاً.

وكان دوره. في البداية. أن يُعرّف الفريق الأجنبي على المنطقة. صباحاً. كان يصطحبهم إلى الجبال. ونبو أولها. فيحرقونها صعوداً ونزولاً.

ينامون عند العصر. ويتوجهون غرباً. في الليل. إلى البحر الميت. كان التخوف الأمني يدفعهم إلى عدم إثارة أي انتباه. بالتوجه إلى البحر نهراً.

٢

وفي ليل. تعرّف إلى ماريّا.

كانت تتحدث العربية بلكنة أحبها. لا تُخطيء. إلا قليلاً. تحوّل. فقط. الجيم خاء. تخلط الفصحى. بالعامية المصرية والإسبانية. فيخرج كلامها مُثيراً. أكثر منه مُضحكاً. نصف كويّبة. من بلد غيفارا. هذا الثائر الذي جعل للموت طعماً جميلاً. واستأهل لقب الشهيد. وهو غير مُسلم. ونصفها الآخر المقبل من والدتها يأتي من بيرو.

كالعادة. تقدّم المجموعة. لكنهم كانوا. الآن. يتوجهون إلى البحر. القمر يحمل شكل دائرة كاملة. ويفرض على المكان ضوء الشمع. الطريق واضحة. ولا يُعكر صوت السكون سوى وقع أقدام هؤلاء الستة الذين سيحررون الإنسانية بدءاً من

فلسطين. كانوا خلاصة شباب العالم الثائر. فيكي ومارك
بريطانيان يساريان يستغرقهما حلم شطب صورة الإمبراطورية،
وحريرها من خارجها. صوفي شيوعية فرنسية وصلت لتوها من
مظاهرات اجتاحت باريس، وأسقطت أسطورة ديغول، جُم
فرنسا، وها هي في طريقها لإسقاط مسخ الحضارة الغربية
الزائفة: إسرائيل... كانت جربة ريجيه دوبريه رفيقة عقلها، وأسرة
عمرها. رومي ألمانية غربية، وعينها على الشرق، فبرلين
مستعمرة أميركية، ولا بد لألمانيا أن تعود لعمالها، لأهلها، لا
لهذه الدولارات التي تمصّ من دمهم. خوانيتو بوليفي، هارب من
ثورة فشلت، لثورة ستعيد بريق سيرا مايسترا...

أما ماريّا، فقمر كوبيّ بيروفي على شواطئ البحر الميت.
وتقدّمت ماريّا، بخطوات سريعة، لتلحق به، وقدمت نفسها:
يا رفيق .. لماذا تُسرّع بهذه الطريقة، ما زال لدينا وقت؟
خفف عامر سرعته: ظننت أنّكم تريدون الوصول بسرعة.
قالت: الساعة لم تتعدّ التاسعة، أمامنا ثلاث ساعات حتى
منتصف الليل.

وأثارت فيه الجملة فضولاً، لكنّه لم يستوضح، قال: سنصل
هناك بعد نصف ساعة.
ردّت ماريّا: إذن، فلنبطيء من سرعتنا، ونحافظ على نشاطنا.
نفذ أمرها، وسارا خطوة بخطوة ... ومع كلّ خطوة، كان
الدفع يقترب، ويعلن عن نفسه بخجل.
كانوا يقتربون من البحر.
سألته: هل صحيح أنّ درجة الحرارة عند البحر الميت تصل في

الصيف إلى خمسين؟
أجابها: لا أدري. فبعد الأربعين يصبح القياس عبثاً، وهي
تتعدى الأربعين حتماً.
كانت تعرف كلّ شيء عن المنطقة، فقد قرأته في الكتب.
لكنّها أرادت البدء بحديث. وأعجبها ردّ عامر.
قالت: وهل يمكن السباحة في البحر الميت ليلاً، في الشتاء؟
ردّ: لم أجرب، ولكنك ستلاحظين بنفسك الفرق بين برد
المعسكر، ودفع الغور. قالت، وكأنّها تحدّث نفسها: لا بدّ أنّها
ستكون جربة مثيرة!

كانوا ما زالوا في خريف ١٩٦٩، العام الذي خلف صيفه وراءه
بعض قيظ في الغور، تحوّل، في تلك الليلة، مع نسيمات البحر،
إلى دفع حنون. ومع نسمة منها وصلوا إلى الشاطئ، جتمعوا.
نظرت رومي إلى ساعتها، وقالت: ما زالت الساعة العاشرة.. لا
بأس من أن نقيس حجم المدّ الآن، ثمّ نعيد قياسه في منتصف
الليل... لن نخسر شيئاً.

أنزلت حقيبة اعتلت ظهرها، فتحتها، وأخرجت آلة بحجم
راديو متوسط الحجم، وتوجّهت إلى الشاطئ، يتبعها مارك.
خلعا أحذيتهم، وشمرا عن بنطاليهما حتى الركبة، مشيا في
الماء بضع خطوات وتوقفا. مرّت دقائق قليلة، ثمّ عادا.
قالت رومي، وهي تمسح الماء عن قدمها، باستغراب: لم أتوقع
أن تكون كثافة الماء بهذه الدرجة.
ووجّهت حديثها لمارك: هل رأيت، يبدو أنّ عليك أن تفعل شيئاً
بالنسبة للقارب المطاطي؟

أجاب مارك: لا... سيسير كل شيء على ما يرام.
وجلسوا بصمت، ينتظرون انتصاف الليل. مرّت عشر دقائق.
تأفّأت ماريّا. قالت: أريد أن أدخّن سيجارة؟
نهرها مارك: لا يمكن. ممنوع. قد تُثير الإنباه، وينكشف كل شيء.

سكنت.

مرّت ربع ساعة. تأفّأت مرّة ثانية، وقالت لعامر: ألا يوجد مكان مُغلق أدخّن فيه سيجارة... سأموت على سيجارة؟
كان عامر يعرف كُهوفاً كثيرة في الجبال، وراءهما مباشرة، لكنّه استبعدّها فوراً. فقد ينتهي بها الأمر أمام ضبع شرّس، ينتظر لحماً كوبيّاً بيروفيّاً طريّاً. لكنّه، وبدافع مجهول، وجّد نفسه يقول لها: قد نجد إذا بحثنا.

وقف، فوقفت، تضرب بيدها على قفاهها، نائرة رملاً مختلطاً بالمُلاح، ومشى لتمشي وراءه. لم يتوقفا عند صوت رومي: لا تتأخرا كثيراً. سيكون لقاءنا هنا عند منتصف الليل.

ولم يستطع القمر، بكلّ الضوء الذي قدّمه، تلك الليلة، أن يُظهر الإثنين الماشيين نحو الجنوب، سوى دقيقة أو أكثر قليلاً. فتلاشت صورتهم مع الظلام، وكأنّهما لم يكونا أصلاً.

خسّ عامر مسدّسه، مع صرخة ضبع، يبدو قريباً. إقتربت ماريّا منه، وأعربت عن خوفها بصمت، بحركة من يدها. أمسكت بيده. طمأنها: لا تخافي فالضباع لا تقترب من مياه البحر الميت، تسير فقط إلى بُعد أمتار منه، وتبتعد.

وخاف هو منها.

قالت: فلنمش، إذن، عند أول الماء.
وانحرفت يمينا، متراً أو اثنين، فانحرف معها، تقتاده يدها، وعبثات شعرها الأسود الطويل، بوجهه، مع نسيمات غربيّة دافئة، تحمل رائحة الملح المُعتق. كانت حركة الماء المُتقدّم تضرب قدميهما برذاذ خجل، وحركته العائدة تُطلق صوتاً أكثر خجلاً.
لم يكن موجاً، كان همسات سحر.

وتقدّما أكثر، كانا مشيان عكس العالم الذهاب شَمالاً. كانا مشيان عكس مجموعة النجوم المتلألئة، التي تُحيط بالقمر الكامل، وترسم شكلاً عجيباً. كان عامر ينظر إلى السماء، إلى هذه النجوم. حين قالت ماريّا له: لأوّل مرّة أرى درب الحليب بهذا الوضوح. إستغرب، فأَيّ حليب هذا الذي يسبح في السماء، وسألها: ماذا تعنين؟

قالت: درب الحليب، هذه المجموعة التي لا تُحصى من النجوم، التي تبدو كالطريق.

كانت تُترجم Milky Way بدرب الحليب، وأشارت إلى السماء.

قال عامر: هذه المجموعة تسمّى درب التبانة.

كانت إنجليزية عامر ما زالت متواضعة.

قالت: آه... درب التبانة. إذن درب التبانة هو Milky Way
وضحكت، وتحرك جسمها، كلّها، نحوه، فلفّ شعرها وجهه لحظة، وراح.

إستفاق من شعر شعرها، على صوتها، وضحكة تقول: كنت أتساءل ما هو درب التبانة الذي أسمع عنه.

وأخذت في شرح تفسير الفراعنة لدرب التبانة. فهو نهر النيل، وتلك النجمات الثلاث. تطلعت إلى السماء. فلفح وجهه شعراً أيضاً. ورفعت يدها إلى فوق. وأشارت بأصبعها إلى منطقة تبعد قليلاً عن درب التبانة. تطلع فوق. فلم يستطع التمييز، كان يعيش في سحر شعرها. إقتربت منه، وحددت أكثر: هذه النجمات الثلاث التي تبدو وكأنها تأخذ خطأً مستقيماً. رآها: نعم أراها. لكنها لا تأخذ خطأً مستقيماً. أجابت: نعم هي. وهذا هو السر. فالأهرامات المصرية الثلاثة التي أقيمت على خطأ ليس مستقيماً. كانت تمثل هذه النجمات الثلاث.

واستغرقت في شرح طويل، مسحت، خلاله، رذاذاً من بحر مَيّت. وصل إلى وجه عامر مع نسمة قوية. فرأى أمامه تلك الأفعى السوداء، المتسامحة، الوائقة من نفسها.

بدت أمامه عصا موسى على شكل مارياً.

ليس بدري أي مَلَك دَفَعَهُ لَأَن يَتَوَقَّف. فَيَمْسِك بيدها الثانية. كانت تمسك بيده اليمنى، وهو يمسك بيدها اليمنى، حين اقتربت شفاههما، وتلاقت في قُبلة عَفْوِيَّة.

وكان يَمَكِّن لِعَامِر أَن يَتَوَقَّف. هُنَا. لِيَعُودَ ومعه ذكرى أول إقتراب، لكن مارياً كانت ما تزال تريد سيجارة.

قالت له: سأموت إن لم أدخن سيجارة.

وكانها كانت تُنادي الجبل، تطلب منه، لا من عامر، فلبى نداءها. إمتدَّ الجبل، فجأة، فدخل إلى البحر، وشكّل لساناً يمتد نحو الغرب، فحمل داخله مغارة دائرية، شكّل تراكم الملح لها مدخلاً سرياً، انقاد له عامر بسحر عصا لم يحملها. كانت تسير

إلى جانبه.

ودخلا إلى الكهف، من بابه السحري. كان ضوء القمر يلقي ذاته على البحر، بشكل جبل عريض، يلتصق كبلورة مسحورة، تبدأ من بعيد، وتُضيق شيئاً فشيئاً، لتدخل إلى الكهف، على شكل خيط رفيع. دَخَلَ عامر أولاً، مُنقاداً بهذا الخيط، تتبعه مارياً. كان الظلام يلفّ الكهف. أشعلت مارياً عود كبريت لتبدو صخرة، في منتصف الكهف، كأنها جزيرة تنتصف الماء.

إفتعد عامر الصخرة، وحاول مُساعدة مارياً، فسحبها بقوة. تعثرت بحجر تحت الماء، وفقدت توازنها. غطى الماء جسدها، ووصل منه القليل إلى وجهها، لكنها تماكنت نفسها، وبِشْدَة من عامر، إفتعدت الصخرة.

لم يكسر حدة الظلام الدامس، داخل الكهف سوى ذلك الخيط القمري الرفيع، لهذا لم يكن عامر ليعرف أن مارياً تخلع ثيابها، حتّى لو نَظَرَ إليها. كان يستمع فقط إلى صوت حركتها، حتّى توقفت، وليبدأ بالاستماع إلى صوت احتكاك عود ثقاب بطرف كبريته. كانت المياه وصلت إلى الكبريته. عود، إثنان، ثلاثة، أربعة. نجح الخامس بالإشتعال لحظة، ثمّ إنطفأ. لحها عارية إلّا قليلاً. عود، إثنان. إشتعل الثالث. كانت عارية تماماً. وبعود الثقباب المشتعل بدأت تُجفّف سيجارة مبلّلة، ثمّ أشعلتها. إنطفأ العود ليشتعل عامر. ومع كلّ سحبة من السيجارة، كانت جمرتها تُقدّم وهجاً نارياً، يُتيح لعينه أن تلتقطاً جزءاً من جسدها.

كانت تقتعد الطرف الآخر من الصخرة، وتدلي ساقها في

الماء.

أعطته السيجارة، وألّحت عليه بأن يُبقّيها مُشتعلة، بعد أن وقفت، وسحبت منها، إلّتقط مشهد جسدها كاملاً. كانت الأقعى تقف أمامه بتسامح. ونزلت إلى الماء.

قالت، بصوت أقرب إلى صُراخ مكتوم: غير معقول، الماء هنا يحملك، لا داعي للسباحة فعلاً. سَحَبَ من السيجارة، فبدت تَفترش الماء، نائمة على ظهرها. سَحَبَ مرّة ثانية، كانت يداها وسادة مفتوحة لرأسها، سَحَبَ، أيضاً، كان خط ضوء القمر يدخل الكهف ليمرّ ما بين ساقيها، يصل إلى بطنها، فصدرها، وينتهي برقبته، كان مسحوراً بهذه المفاجآت التي بدأت السبع السمان بتقديدها، وكانت مسحورة بجو لم يكن لها أن تتوقعه. سحبة أخرى، كانت تنطّلع إلى السماء، من باب الكهف.

قالت: هل تعرف أن مُعتقداتنا الأميركية الجنوبية القديمة، لم تبتعد كثيراً عن مُعتقدات الفراعنة؟

لم تنتظر رداً، وواصلت: كانوا يعتقدون أن أرواح الناس الطيّبين تصعد إلى السماء لتُصبح جُوماً، فكم هناك في السماء من أرواح ناس طيّبين، إنهم ينظرون إلينا الآن. لم أر في حياتي مثل هذا العدد من النجوم، يا إلهي، شيء ساحر. هذا المكان ساحر، أين سيكون، يا ترى، جُملك يا غيفارا؟

سكنت لحظة، ثم أضافت: وهل تعلم أنّ النجمة غير النجم، النجمة أنثى، لهذا فهي مُضيئة أكثر من النجم، إستهوته

الفكرة، فقال، وهو يُشعل سيجارة من سيجارة: طبعاً، فالأساطير، دوماً، تنحاز للأنثى.

ضحكت، وقالت: أبدأ، فقد كانت عادلة، أنظر إلى الرسوم التي ترمز إلى الجنسين، في الكشوف الأثرية الأمبركية، فقد تساوت أعداد المثلثات والدوائر.

لم يفهم قصدها، فتساءل: أيّ مثلثات وأيّ دوائر، وما علاقتها بموضوعنا؟

ردت: ألا تعلم أنّ رمز الأنثى هو المثلث، ورمز الذكر هو الدائرة؟ وضحكت.

وأضافت: تصوّر كم كان خيالهم خصباً.

ولم يفهم أيضاً، سَحَبَ على السيجارة، لتري عيناه بدها تؤشّر إلى مثلثها الأسود، وتسمع أذناه قولها: هنا، أليس هذا هو رمز الأنثى؟

وأخيراً فهم درسه الجديد، وكانت صخرة الكهف موقع لقاء الشكّلين الهندسيين.

وأخيراً صار بإمكانه أن يُضيف إلى ألقابه كلمة رجل.

وعلى مدار أسبوعين، تالين، أصبح الكهف العنيق مكان لقائهما الليلي، والشاطيء موقع بحث الفريق الأجنبي عن حسابات سليمة للمدّ والجزر، ونسب الملوحة والكثافة في الماء الثقيل.

وعبثاً كانوا يبحثون، فالمدّ والماء جاء على غير ما يشتهي قاريهما الصغير.

كانت حسابات رومي خاطئة، وأخطأ مارك، أيضاً، بنوعيته

القارب المطاطي، فضلت العملية. خرجوا في منتصف الليل، وعادوا قبيل الفجر. تعطل محرك القارب، لسبب الملوحة الزائدة، وأخذهم المد جنوباً. كافحوا ليصلوا إلى الشاطئ الشرقي، واضطروا للسير كثيراً. أمضوا يومين في جدل عقيم. اتهامات متبادلة. صوفي تلوم مارك على تعطل المحرك، ومارك يسخر من حساباتها.

ألغيت العملية من أساسها، وسافر الفريق الأجنبي. وداع ماريًا لعامر لم يكن بمستوى شهر كامل من حب مستحيل. حبّ معلق على هواء المجهول.

سلمت عليه ببرود، وطبعت على خديّه ثلاث قبلات، تماماً كما فعلت مع الجميع، لكننا غمزته بعينها بإشارة ذات معنى، وقالت له: سنلتقي.

وركبت سيارة الجيب. وسافرت.

يومان آخران. ساد فيهما وجومٌ على المعسكر. ليأتي صباح اليوم الثالث حاملاً لعامر قرار عمره. إصطحبه الأمر في جولة جبلية. وعند قمة نَبُو فاجأه: سيرحل المعسكر من هنا. تلقيت أمراً بهذا، بالانتقال إلى السخنة.

ودون تفكير، قال عامر: وأنا؟

ردّ الأمر: لهذا نحن هنا. ما رأيك... ما زلت صغيراً على السفر؟ كان التلحامي يحمل حناناً خاصاً لهذا الشاب، الذي يُعطي انطباعاً بعمر أكبر منه.

لم يجب عامر، كان يعرف أن المعسكر لن يبقى هنا إلى الأبد، لكنه ظلّ، في السنة الأخيرة، يعيش اللحظة، فلم يفكر

في الأمر كثيراً. تأمل البحر الميت، والشهد البانورامي المألوف. ولم يكن يعرف أنه لن يعود هنا، إلا في زمن آخر. لن يعود قبل ربع قرن، إلا قليلاً. وتمنى لو يودّع العصا.

٣

ها هو في السخنة.

معسكرٌ جديدٌ، وحياةٌ مختلفة.

ناسٌ أكثر، وانضباطٌ حقيقيٌّ. يستيقظون عند الفجر، يهرولون بخطوات عسكرية ساعة، ويعودون لإفطار معروف سلفاً: بيض مقليّ بألف طريقة وطريقة. ثم تدريبات متواصلة تستغرق مساحة الصباح. أعجب الجميع، خلالها، بطريقة تصويبه بالمسدس. ظُهرًا يبدأون حلقة نقاش سياسية. أحد المقاتلين يُلخّص كتاباً قرأه، ويستغرقون في توجيه الأسئلة له، فيجيب. برز عامر شاباً مثقفاً. الغداء في تمام الثانية، ولم يكن يخرج عن البازيلاء المطبوخة بالبندورة واللحم، أو اللوبياء المطبوخة بالطريقة نفسها. كانوا يتناوبون على الطبخ. بدا عامر طبّاحاً رديئاً. فاستثنى من القائمة. تلي الغداء ساعتان للراحة، يأتي بعدهما تدريب آخر، فينتهي النهار.

نظام صارم، بدأ بتفكك شيئاً فشيئاً، مع رفاق جدد يأتون، وقدامى يغادرون، في سلسلة من العلاقات الجديدة، العابرة، لكن الأمر القديم، أمر معسكره السابق، صار صديقاً عزيزاً، لم يعد أمراً، هنا، في السخنة، صار مقاتلاً مثله، ومعه، دخل عمان أول مرة.

أنهوا تدريب الصباح، كان عامر يُعيد تركيب كلاشينكوف، حين استعجله التلحمي، بسرعة، سنذهب إلى عمان، بدلاً لباسهينما بأخرين مدنيين، واستبقيا معهما سلاحيهما الشخصيين. أخفى كل منهما مسدسه بأن وضعه بين ظهره والحزام، وارتدى عامر كنزة صوفية سميكة، والتحف صديقه بمعطف طويل.

كان شباط ١٩٧٠ بارداً وماطرًا.

أوصلتهما سيارة المُعسكر، القديمة، التي تحمل ألواناً كثيرة غلب عليها الأخضر، للتمويه، إلى أول طريق الزرقاء، قبيل مصفاة البترول، وعادت، تأمل عامر أبراج المصفاة، وذلك الدخان المتصاعد، والشعلة الدائمة، جال بنظره حولها، فلفتت نظره عدة كمائن لمدافع صغيرة، كل كمين يحمل أربعة مدافع متلاصقة، كانت تتوزع على التلال المحيطة بالمصفاة.

لم يتركه التلحمي لتساؤلاته، قال: هذه المدافع المضادة للطائرات للجيش العراقي، ليست للجيش.

وشرعا في مسيرة قصيرة، بعد انتظار قصير لباص لم يأت، اقترح صديقه الإستمرار حتى تفرع طريق خو، فسيجدان هناك، حتماً، وسيلة للوصول إلى الزرقاء، ومنها التوجه إلى عمان.

دقائق مرت ليسمعا صوت سيارة مقبلة، من ورائهما، جهة المصفاة، توقفوا وتطلعا، كانت سيارة لاندروفر عسكرية، خمس عامر مسدسه، مرت السيارة ببطء، وتأملهما ضابطٌ يجلس إلى جانب السائق، رفع التلحمي يده محيياً، وردّ الضابط السلام، سمع عامر صديقه ينهره بحزم: اضبط نفسك، تصور لو لاحظوا حركتك، تصرف بطبيعية.

كانا يسيران في منطقة الجيش المحرمة، فمعسكرات خو قريبة، وفيها أكبر تجمع للجيش، ومصفاة البترول، موقع إستراتيجي، لم يسمح لأي تنظيم مسلح بإقامة معسكر قريب منه، كان التلحمي يعرف أنه يسير في غير منطقته.

مرت دقائق أخرى، صوت آخر من خلفهما، باص المصفاة، أشارا له، توقف فركبا متوجهين إلى وسط الزرقاء، عند مدخل المدينة، بدأت أنفاس التلحمي تأخذ طابع الإرتياح، وصارت تبرز على الجدران شعارات بألوان مختلفة: فلسطين من النهر إلى البحر... المجد للشهداء... كل السلطة للمقاومة.

شعارات تملأ كل جزء مهما صغر من الأشياء المطلة على الشارع، الجدران، واجهات المحلات، وحتى بعض السيارات، على أعمدة الكهرباء كانت تبدو البيانات المطبوعة على ورق أبيض، وتشرح تفاصيل العمليات ضد العدو، تنتصفها صور الشهداء مُحاطة بإطار أسود.

كان عامر سعيداً، كأنه يعيش حلمًا لذيذاً.

الله، يا أيتها السبع السمان ما أجملك.

وفي محطة باصات الزرقاء، حيث كرنفال الشعارات كان

أكبر. ركبا باص عمان، ولم يتحسّس عامر مسدّسه. أبداً. فقد كان سلاحه أبيض أمام هذه الترسانة المتجولة.

خرّك الباص. فتحرّك الكرنفال معه. إلى أطراف المدينة. إلى طريق الرصيفة. في الرصيفة. على واجهة منتزه لبنان شاهد بياناً كبيراً يحمل صورة شهيد. وتواصلت مسيرة الكرنفال فمرت على مدخل مَخيّم شنّار. لتتوقّف عند مدخل ماركا. قبيل المستشفى العسكري. فيظهر وجود الجيش الواضح.

عند مطار عمان. بعد الدوار. يتوقّف الباص. يفتح الباب ليدخل عسكري. يتأمّل الركّاب قليلاً. ثم يخرج. خستس التلحمي مسدّسه. وعاد الباص إلى مسيرته نحو وسط عمان. عاد الكرنفال عند محطة القطارات. شعارات وصور وبيانات. وتواصل حتى قبيل القُصور. هناك توقّف قليلاً. ليعود مع توقّف الباص في محطة رغدان. ويصبح في ذروته... كلّ السلطة للمقاومة. الموت للخونة. لبيك يا فلسطين.

نزلاً من الباص. التلحمي يعيش رهبة اللقاء المقبل في الشميساني. وعامر يعيش رعشة عمان الأولى...

الله يا عمان. يا صاحبة الجبال السبعة. يا أول السبع السمان. يا مدخل الدنيا. ما أجملك.

الله يا عمّون القديمة. يا داحرة اليهود. يا من لعنك ربهم لأنك عصيت عليهم. يا من تردّدت عند حدودك صراخات فشلهم. يا أخت مؤاب وذيّبان. الله يا عمّون ما أجملك...

وأخذت العصا شكل عمان.

٤

كانت عمان تمتدّ بخجل نحو الغرب. تتوسّع وتتوسّع. لكن بحذر. لم يعد ثمة جبل لم تُلق فيه عمان حجارته وإسمنتها وإسفلتها. بشكل أبنية. وشوارع. وأرصفة. لكنّ العمّانيين القدامى كانوا يتكاثرون. والعمّانيّين الجدد يريدون السكن. والعابرين إستقروا...

كانت عمان تُغلب على أمرها. وتُلبّي نداء أهلها. وتتوسّع. والشميساني. ذلك الإمتداد الطبيعي لجبال اللويبة والحسين وعمّان. كان أول التوسّع. فالبنى الأبيض المُقلّم بالأزرق الفاخ. مبنى الخابرات. والذي ظنّه كلّ زائر فندقاً. كان يستقر في آخر نقطة من عمان. ليشكل مع شارع الدفاع المدني ووزارة الداخلية. حدوداً غربيّة. لم يتوقع العمّانيّون القدامى أن يتم تجاوزها في وقت من الأوقات.

لكنّ عمان كانت تُخيب الظنون.

كانت تتوسّع.

وهذا الشميساني. حيث مبانٍ مُتناثرة. بين أراضٍ مزروعة بالفقّوس والبامية والبندورة. كان يضمّ مكتب الجبهة. وهذا الشميساني. الذي يحمل إسم إله قديم. كان يشهد. تلك الظهيرة. خطوات عامر وصديقه. متوجّهين إلى المكتب. تُداعب

وجهيهما أشعة شمس دافئة خجولة، أطلت من إنكسار غيمة شُباطية إلى إثنين .

قال الأمر السابق: عجيب شباط، ففي يوم واحد، تشهد الشتاء صباحاً، والدفء ظهراً ... لم يكذبوا حين قالوا ليس على شباط رباط.

كان يبدأ حديثاً.

ردّ عامر، ببسمة. كان يفكر بتجربة التعرف إلى عمّان.

أضاف صديقه، مُثيراً اهتمامه: بعد دقائق سنصل إلى المكتب.

ولم يردّ عامر.

قال الصديق: لا أعرف إذا كان الرفيق وديع سيلتقينا في

المكتب أم خارجه؟

كان الإسم، وديع، كافياً ليثير إنتباهه بشكل كبير، لكن أصوات طلاقات رشّاش قريبة لفتت إنتباههما معاً. سارع الإثنين خطاهما، وقال صديقه: أنها طلاقات ٥٠٠. إختلط الصوت بأخر، فأضاف، وقد سارعا خطاهما أكثر: هذا دوشكا ... هناك إشتباك مع الجيش. صارا، الآن، يركضان تجاه المكتب، وقد إنفلت الوحش بأقبح صوره عند أطراف جبل الحسين القريب.

مرّت دقائق من إشتباك محموم، ليعود السكون، مع وصولهما إلى المكتب. بدا الأمر لعامر وكأنّ ما عاشه لتوه مجرد نوبة صرع أصابت رجلاً عاقلاً، وعاد إلى رشده.

عند المدخل، إستوقفهما مُقاتل. تعرّف إلى صديقه، واستقلّا معه سياراً عادوا فيها من نفس الطريق. إنحرفوا يمينا، عند

مبنى الإطفائية، ودخلوا شارع الدفاع المدني. أسرع السائق مُستغلاً النزول الذي ينتهي بطلوع مُفاجيء. تحوّل يساراً إلى شارع وادي السير، أنهاه لينحرف يساراً، أيضاً، صاعداً مع طريق جبل اللويبة، إنحرف في منتصفه تقريباً، مع شارع ضيق كافحت السيارة من أجل طلوع زاويته الحادة، وتوقّف بعد مسافة قليلة. قال السائق: إضطرت لقطع كلّ هذه المسافة، فشارع كلية الشرطة غير مأمون.

ودعاهما إلى الدخول. إستبعد عامر أن يلتقيا، هنا، الرفيق وديع، فالبيت بدون حراسة، لكنّه تطلّع إلى السطح، فشاهد ثلاثة شباب مسلّحين.

ولم يصدّق عامر، بينه ونفسه، أنّ هذا الرجل البسيط، الذي يرندي ببجامة قطنية مقلّمة، ويغطّي رقبته بلفحة صوفية، وفتح لهما الباب بنفسه، هو الرفيق وديع. كان يتصوّره رجلاً ضخماً مُلتحياً يحمل هيئة كاسترو.

لكنّ الرجل أسره، ببساطته، وتواضعه، وحزمه أيضاً. صبّ لهما كأسين من زجاجة ليمونادة كان يشرب منها، بعد أن إعتذر عن تقبيلهما بسبب الإنفلونزا، وقال لصديقه بلهجة عتاب ودية: هيك يا جماعة... فضحتونا؟

وأضاف: يا جماعة. الحاج أمين الحسيني يقطع البحر الميت في الثلاثينيات، من الغرب إلى الشرق، على قارب خشبي، ويصل إلى الكرك، ويغادرها، فلا يعرف الإنجليز عنه شيئاً، ونحن بكلّ التكنولوجيا، وخبرات العالم، نكاد نغرق في البحر الميت. وقال بعتب أكبر: يا عيب الشوم.

حاول صديقه الردّ، فقاطعه: يا رفيق، لا تكفي أعذار الدنيا لتبرّر هذا الفشل. أضعنا الوقت والجهد والمال. قال صديقه: ولكن يا رفيق أنا لست مسؤولاً... أنا... ولم يتركه يكمل.

ضرب بيده على الطاولة أمامه، فكادت الكؤوس أن تقع وتبعثرت أوراق: كيف؟ أنت أمر المُعسكر. هل تريدني أن أحاسب الأجانب. أنت المسؤول. كان يفترض بك أن تتدخل. كلّ المُعسكر كان بسبب العملية... ألم أقل لك هذا الكلام منذ البداية؟

ووجّه نظره شرسة إلى التلحّمي، كانت كافية لوضعه في موقف السكوت، والإمتناع عن تقديم أيّ عُذر.

أدار عينيه، فجأة، إلى عامر، مع قليل من شراسة إستبقاها لبضعه في إختبار: وأنت يا رفيق... أسبوعان مع الفريق الأجنبي ولا تتوقع الفشل؟

ولم يحاول عامر الرد. كان خائفاً.

أضاف: وقد حوّلت بقايا النظرة الشرسة إلى بعض تفهّم: المناضل هو الذي يبادر، كان عليك المبادرة، فأنت ابن المنطقة.

قال عامر، بعد أن شجّعه هدوء مكّلمه: رفيق وديع، من لا يعرف الصقر يشوبه، وهؤلاء الأجانب لا يعرفون البحر الميت، فتعاملوا معه بحذر شديد. أمّا الحاج أمين فإن المنطقة، وتعامل معه ببساطة. قارب خشبي، مجرد قارب خشبي، لو تعاملنا بنفس الطريقة لنجحنا... إسمح لنا بتكرار العملية وستر.

وأعجب الرجل بمنطق عامر، وبجرأته، وبشبابه، وبلاكنته

البدويّة الواثقة. أعجب ببساطته وثقافته، وكاد أن يوافق على تكرار العملية، لكنّه كان يفكر بشيء آخر، بعملية سيتحدّث عنها العالم مطوّلاً. عملية ستدخل سجلّ الأرقام القياسيّة، وتُصبح عنوان سنوات كثيرة مُقبلّة.

ودخل عامر، دون أن يدري، في الدائرة الضيّقة، التي ستنفذ عملية خطف أربع طائرات، في لحظة واحدة، من مطارات مختلفة، لتأتي إلى الأردن، فتلفت نظر العالم إلى فلسطين، وتؤكد لكلّ الناس، في الداخل والخارج، أنّ يد فلسطين طويلة، تصل إلى كلّ الدنيا.

٥

وأخذه الربيع إلى مُعسكر في ألمانيا الشرقيّة، فتدرب على المتفجّرات، وبدأ دورة لتعلّم اللغة الإنجليزيّة. وأمضى الصيف في مُعسكر بولندي، يتدرب على التصوير من بعيد، وكيفية العمل على صاروخ غراد، وواصل دراسة الإنجليزيّة. كان يُسافر بجوازات سفر مزوّرة، وتعلّم كيف يصنعها، فحمل غير إسم، وتميّز وجهه، مرّة، بشنب رفيع، وأخرى بلحية، وصارت الجبهة عائلته. إحتفل بعيد ميلاده الثامن عشر في وارسو، مع رفاق من المُعسكر، من جنسيات مُختلفة. تعلّم شرب الخمر، وصار خبيراً

في مُعادلات الأشكال الهندسية، ليتذكّر مع كلّ مُعادلة شكل ماريّا عائمة على ماء ثقيل، في كهف عتيق، في زمن قديم. وكان يستمع إلى أخبار عمّان، من رفاق آتين منها. الكلّ يؤكّد: سننتصر في عمّان. ينتشي، ويعيش ذروة سعادته: سيعود إلى عاصمته فاتحاً، ومنها ستقود الجبهة الجماهير العائدة في طريقها إلى فلسطين.

وكان يتذكّر جبل نبوّ كثيراً، لكنّ أهله صاروا جزءاً من ماض بعيد. من سبع عجاف. ولم يردّ على رسالة واحدة من كثيرات كانت تصله. عبر مكتب الجبهة في عمّان، وخمل لهفة سؤال الأهل عن مصير شباب ذهب، ولم يعد.

وجاء أب، ومعه أخبار صدام محتوم في عمّان، ولتعرّف على سبب تدريباته الصارمة. إلتنقى التلحامي في وارسو، في طريق عودته من كوبا. صارحه: سنعود إلى السخنة. تنتظرنا هناك عملية كبيرة.

وفي معسكر بولندي بعيد، تدرباً على تفجير جسم كبير يمثّل طائرة. وافترقا، ليلتقيا في السخنة. ظنّ عامر أنّ العملية ستكون في مطار اللد، لتفجير طائرة هناك، وبدأ يهيئ نفسه على الأمر.

فجر الجمعة، ٤ أيلول، كان يحمل برودة لاسعة. توجه عامر والتلحامي، بسيارة صغيرة، إلى جرش، بدأ عامر يعدّ سيارات مدنية، خمل أفراد عائلات بأكملها، وتوجه شمالاً، إلى دمشق وببيروت هرباً من حرب أهلية مقبلة: ١٠.٢.٥.٤.٣. ١٠. ١٥. وتوقّف عن العد. كان واضحاً أنّ القادرين على السفر يهربون

من عمّان.

ومن جرش، توجهت السيارة نحو المفرق، ثمّ إلى الأزرق. كان السائق يمّوه مساره الحقيقي. ثمّ جنوباً، في الطريق العام. وفجأة حوّل السائق مساره في طريق وعرة. بعد ربع ساعة توقّف عند سهل واسع.

كانت الشمس بدأت تُلقّي أشعة خجولة، عندما أدار التلحامي مؤشر الراديو، باحثاً عن إذاعة دمشق، ومع إشارة الأخبار المميّزة بدأوا بالإستماع إلى إشادات بقرارات المجلس الوطني الفلسطيني. كان المجلس أنهى إجتماعات في عمّان قبل أيام، فرفض "مبادرة روجرز، وحذّر من المؤامرات التصفوية، ومن تقسيم الأردن إلى دويلة فلسطينية ودويلة أردنية".

أدار المؤشر إلى إذاعة عمّان. كان الملك يلقي كلمة يطالب الحكومة بـ "خمل مسؤوليتها في تأمين النظام والأمن في جميع أنحاء الأردن". الخبر التالي كان يذكر تفاصيل "نداء الحكومة الأردنية للدول الأربع الكبرى للمساعدة لمواجهة التهديد العراقي بالتدخل في الأردن"...

أقفل التلحامي الراديو مع صوت سيّارة مقبلة. كانت خمل مقاتلين، ورجلاً أجنبياً. أنزل المقاتلان أجهزة مسح هندسي، وبدأ الألمانيّ الشرقيّ بمسح المنطقة، وساعده المقاتلان بوضع علامات فوسفورية، في زوايا متباعدة.

همس التلحامي في أذن عامر: هذا هو مطار النورة. ولم يفهم عامر شيئاً. في طريق العودة، فهم كلّ شيء. كان التلحامي يشرح له مهمّته بشكل محدّد: ستزرع

المتفجرات في الطائرات الأربع التي ستحط هنا قريباً.

فجر اليوم التالي. كَرَّروا مسيرة أمس. في مطار الثورة. كان عامر بفحص المتفجرات. والأجنبي يضع علامات مميزة. جديدة. تساعد على هبوط الطائرات. ولم يعودوا إلى السخنة. ناموا في السيارات الأربع. التي كانت تستقر في مسافات متباعدة. في المنطقة ذاتها.

وجاء الأحد. يحمل علامة فارقة في حياة عامر. مرّ الصباح ثقبلاً. بارداً. يحمل بطء الإنتظار. ولم يأت الظهر بجديد. سوى دفع شمس تحوّل إلى حرارة تدريجية. كان عامر يحسّ بمرور الساعة مع إشارة أخبار من إذاعة ما. فأجهزة الراديو الأربعة كانت تنتقل من إذاعة. إلى أخرى. بحثاً عن خير... مجرد خبر. موجز أنباء الثالثة. من لندن. جاء بحمل أول السلسلة: أرغم مجهولون طائرة لشركة الخطوط الجوية العالمية الأميركية. المتوجهة من فرانكفورت إلى نيويورك. على تغيير خط مسارها. وقالت مصادر مطار فرانكفورت إن الطائرة تتوجه الآن إلى الشرق الأوسط. وسنقوم فور تلقينا آية أخبار جديدة حول مصير الطائرة بعرضها عليكم.

وواصلت النشرة أخبارها العادية. صقّ المقاتلون. فنهرهم التلحمي... وواصلوا الإستماع. قبيل إنتهاء النشرة خرج المذيع بالمفاجأة الثانية: يبدو أن اليوم يوم الشرق الأوسط. فقد قام مجهولون أيضاً بإرغام طائرة تابعة للخطوط السويسرية متوجهة من زيورخ إلى نيويورك على تغيير مسارها والتوجه إلى الشرق الأوسط... نكرر هنا أن هذه الطائرة هي الثانية. وليس

معروفاً حتى الآن مصير الطائرة الأولى.

صقّ المقاتلون. فنهرهم التلحمي. أيضاً. ركب الأجنبي سيارة وتوجّه بها إلى آخر السهل. وبدأ يختبر ضوءها الأمامي. فردّ عليه التلحمي بإشارة ضوء سيارة مقابلة. وبقي الأجنبي في مكانه.

مرت ساعة بطيئة. ليتردّد الخبر في كلّ الإذاعات. ثمّ لتأتي إضافة جديدة عليه: يبدو أن الطائرتين تتوجهان إلى مطار عمّان. لهذا فيمكن التكهّن بأنّ العمليتين أتتا على خلفية الأحداث في الأردن المتوجّه. على ما يبدو. نحو حرب أهلية.

إقترب المغرب. دون أثر في السماء لأيّ شيء. كانوا يعرفون أن الطائرتين ستصلان آتيتين من الجنوب الغربي. ستموهان بمحاولة الهبوط في مطار عمّان. ثم تواصلان الطيران نحو منطقتهم. نحو مطار الثورة. العيون. كلّها. توجّهت نحو الجنوب الغربي. لكنّ صوت الراديو عاد ليقدم مفاجأة جديدة: أفضّل حرس طائرة "العال" الإسرائيلية المتوجهة من تل أبيب إلى نيويورك. عبر أمستردام. عملية إختطاف ثالثة. بعد عراق بالأيدي مع شابين. فلسطينية وأميركي. وتطوّر العراك إلى إطلاق نار فقتل الخاطف الأميركي فوراً... وعلمت مراسلتنا في أمستردام أن الخاطفين كانا يحملان جوازي سفر هندوراسيين مزورين و.....

ولم يواصل المقاتلون الإستماع. فقد طغا صوت طائرة على إرتفاع منخفض. على كل شيء. فأثار الأجنبي ضوء سيارته. وخلال دقائق هبطت الطائرة على المدرج الترابي. دون عناء كبير.

كان عامر يدور حول الطائرة، التي أطفأت محركاتها، حين بدأ بالإستماع إلى صوت مشابه. حطت الطائرة الثانية، بعد مناورة واحدة، بسلام.

ولم يكذب ينهي وضع المتفجرات، في أماكن مُعَيَّنة، في جسمي الطائرةين. حتّى صار المكان مركز جَمْع للمئات، من المقاتلين، والصحفيين. كأنّ أرض الصحراء إنشقت وأخرجت من جوفها ناساً من كافة الألوان والأجناس. كأنّ الشمس عادت، في منتصف ليل الصحراء، لتشرق من جديد.

صار الليل نهاراً..

وأخذت العصا شكل طائرة.

علم، أيضاً، أن رفاقاً له خطفوا طائرة "بان أميركان" من مطار بروكسل، وتوجّهوا إلى بيروت، فتزوّدوا بالوقود وبالمفجرات، ثمّ هبطوا في مطار القاهرة، فأنزلوا الركّاب، وفجّروا الطائرة هناك.

وعلم أنّهم إصطادوا، بذلك، عصفورين بحجر واحد، ففجّروا رمز الإمبريالية العالميّة، طائرة "جمبو" الجديدة، الأضخم في العالم، في القاهرة، بلد عبد الناصر، الذي قبل مبادرة روجرز، على عبد الناصر أن يتعلّم الدرس... أضاف مُحدّثه.

ومرّ يومان آخران، على النحو ذاته. الطائرتان جاثمتان، يحيط بهما كرنفال مُتواصل من الأسلحة، والناس، والسيّارات، واللغات المختلفة. غاب شيء واحد، فقط، عن ذلك اليومين: النوم الذي صار عزيزاً، ومنوعاً. وجاء الأربعاء، ليحمل معه طائرة جديدة هبطت، فجأة، على أرض مطار الثورة، من البحرين صعد

فدائيّان إلى طائرة الخطوط البريطانية، فإختطفافها إلى بيروت، ومنها إلى الصحراء.

وضع عامر المتفجرات في جسمها، برشاقة خبير، ونام، ليلتها، لأوّل مرّة منذ ثلاث ليال.

الخميس جاء، يليه الجمعة، دون تغيير. سوى زيارة من الرفيق وديع، إنتحى به جانباً: رفيق عامر... كلّ شيء يسير كما نريد. سيأتي عملك قريباً.

ولم يكن مطلوباً منه أن يردّ. حرّك فقط يده إلى أعلى، فكاد كفه أن يضرب رأسه، وضرب بقدمه اليمنى بقوة على الأرض، في خيّة عسكريّة.

نام، ليلتها، على صورة الطائرات الثلاث تتفجّر في وقت واحد. وإستيقظ ليرى حلمه أمامه. فجّرها، بعد أن أفرجت الجبهة عن الرهائن، وإستبقت أربعة وخمسين راكباً، من جنسيات أميركية وبريطانية وسويسرية وألمانية وإسرائيلية. كان ذلك في فجر الثاني عشر من أيلول / سبتمبر من العام ١٩٧٠، بتوقيت الأردن، مساء الحادي عشر من أيلول / سبتمبر بتوقيت شرق أميركا...

٦

منذ ذلك الفجر، فجر الخميس، السابع عشر من أيلول، صار الشهر الذي عُرف بأنه بشارة الشتاء، فيأتي طرفه مبلولاً بالماء اللذيذ، وتبدأ عمان فيه رحلة التحول إلى وجه جديد، فيغيّر سكانها ملابسهم، وينتهي كسل الصيف الممل، ليدبّ نشاط العمل، مع طلاب ذاهبين إلى مدارسهم، ورجال متوجهين إلى أعمالهم، ونساء يصنعن مونة فصل البيات، من زيتون ومخلل وبامية مجففة.

منذ ذلك الفجر، صار الشهر يحمل شكل الدم البارد، المتجمّد على جثة مرمية في حفرة طويلة، بدء العمل فيها لتكون شبكة المجاري الجديدة، في جبل اللويبة.

منذ ذلك الفجر، صار الشهر يحمل رائحة نتنة، تُعيد إلى الأذهان رائحة جيفة ملقاة على طرف طريق.

منذ ذلك الفجر، صار أيلول يحمل رائحة وشكل الموت المجاني القبيح.

دقّ عامر بحجر قاس، طرف مسمار فولاذي دقيق، على جانب رصاصة طويلة، رصاصة كلاشينكوف، بنعومة، فأحدث ثقباً صغيراً. حملها وأفرغها من البارود برقة من بداعب قطعة، ثم عاد وكرّر حركته، في الطرف الآخر من الرصاصة. أحدث ثقباً مائلاً.

أمسكها بأصبعين، وقربها عند فمه. نفخ فيها ليتأكد من خلوها من البارود، مرّر خيطاً جليداً رفيعاً، لكنه متين، من الثقبين. ربط نهايتي الخيط، وشده ليتأكد من متانته.

كان يعلّق فلادته الجديدة على رقبته، لتستقر الرصاصة النحاسية الكبيرة، عند منتصف صدره، حين جاءه التحميّ يحمل أمراً مهماً: الرفاق محاصرون في جبل اللويبة. كلّ الذين كانوا في جبال الحسين وعمّان والشميساني صاروا في اللويبة، بعد سقوط مناطقهم. القتال متوقّف اليوم، عليك الذهاب إلى هناك للتعرف على حالهم. ستأخذ سيارة مع سائق عليها علم الصليب الأحمر، وتحدّث مع الجنود بلهجتك وتريهم هويتك ليتأكدوا. تظاهر أن أخاك يعيش في جبل اللويبة.

سكت، ثمّ أضاف بحدة واضحة، بعد أن مدّ يده إلى رقبته، وسحب فلادة عامر الجديدة: وما هذا، هل تريد أن تفضح نفسك؟!

كان عامر قضى الأسبوعين الأخيرين مُتنقلاً في غير مكان. في البداية، كانت حصّته حراسة ثلاث رهائن في بيت في الزرقاء. قضوا هناك الأيام الأربعة التي فصلت بين تفجير الطائرات، في مطار الثورة، وإندلاع المعارك في عمّان. ظهر الخميس، بعد ساعات قليلة من بدء إطلاق النار، إنتقل مع الرهائن إلى بيت آخر، في الزرقاء، أكثر أمناً.

بعد ثلاثة أيام، جاء مُقاتلان ليصطحبا الرهائن إلى عمّان، وعاد إلى السخنة، مشياً على الأقدام.

وكانت السخنة هادئة. يأتيها صوت رصاص من بعيد، لكنّ

صوت الماء المنساب من النبع الجبلي، نحو السيل الآتي من الشرق، ويختلط بنقيق ضفادع صغيرة تقفز من حجر مبلول إلى آخر. كان يهيم على أجواء السفح الذي أقيم عليه المعسكر. هذا المعسكر شبه المهجور، الذي ضمّ عامر، وثلاثة مقاتلين فقط. كانوا، الأربعة، يقتلون فراغهم بالإستماع إلى نشرات الأنباء التي ترفع المعنويات، مرة، وتلقي بها إلى الهاوية، مرّات. فتُحبط أملاً صار بعيداً...

وكان الإنتظار الخفوف بالمفاجآت المتوقعة قاتلاً. فبأي لحظة، ليلية كانت أم نهارية، صار متوقعاً أن يأتي جديد مُرعب: أن تقتحمهم قوة، مثلاً، في غفلة منهم، فتُصبح الحياة على كفّ عفريت. التعليمات أكدت، في حالة كهذه، أن يرفعوا العلم الأبيض. كان مُقاتل، من الأربعة، مع الأخبار الآتية من عمّان، يحتفظ بقميص أبيض، مدّلى على عصا، جاهز للرفع.

يا للعصا الملعونة، وأين أنت آيتها السبع السمان ... هل تهربين في منتصف المسافة.

وجاءت زيارة التلحيمي جُدة له من لهفة الإنتظار. إنتظار لجهول صار يقترب من العلوم: هزيمة قاسية. فعلى الأقل، هناك في عمّان، سيكون موجوداً على الأرض. سيشارك رفاقه أي شيء، حتى الهزيمة.

... وتوجّهت سبارة الصليب الأحمر المزيّفة، في رحلة الموت، التي إستقرت في ذاكرة عامر، وسوف تظلّ ماثلة، حتّى القبر. الزرقاء كانت هادئة، دبابات تتخذ مواقع لها في زوايا متفرّقة، قبيل الخروج منها إستوقفهم حاجز. تحدّث عامر إلى الجندي

بإبتسامة مُفتعلة، ومزّوا. تكرر مشهد الدبابات المتفرّقة في الرصيفة، لكنّ البنات القريبة من الشارع بدت، كلّها تقريباً، مُصابة بطلقات لا تُحصى. دقائق مرّت ليبدو مُحيم شتّى مُحاصراً بالدبابات. شاهد عامر عشرات الرجال والشباب والأطفال يحملون التنكات والأباريق، وكلّ ما يُمكن أن يحمل ماء، ويلاحقون شاحنة تحمل صهريج ماء كبيراً. كانوا يتقاتلون على الحصول على الماء. كان الماء السائل على الأرض أكثر من الذي إحتوته أشياؤهم. كان الصراخ المُتناقل بين الألسنة الكثيرة مُحيفاً. بدأت عينا عامر، مع هذا المشهد، تلتقطا منظر الأيادي الممتدة، على طرف الطريق، والتي تؤشر لهم لإيقافهم، لتأمين وسيلة ركوب. كان الناس يريدون الوصول إلى عمّان، في سبارة مأمونة، تحمل العلم الأبيض، والذي يستغرق اللون الأحمر المرسوم على شكل صليب، مساحة منتصفه. لم يتوقفا لأحد. مرّاً على ماركا، السيارات المصفوفة على جانبي الطريق كانت فقدت أي زجاج فيها. صار الزجاج يستغرق مساحة الشارع. قبل الدوّار، شاهدوا دبابة مُدمّرة. وتواصل المشهد الحزين على طول الطريق، الواصل إلى القصور. إنحرفوا يميناً إلى طلوع القلعة، ويميناً أيضاً عند طرفها الشمالي، بعد قليل كان مشهد محطة وقود مُحترقة يزيد في مساحة الحزن. عندها، عاد مشهد السيارات الفاقدة كلّ زجاج، والزجاج الذي يفتersh الشارع الممتد حتّى دوار فراس...

الله يا فراس.. يا فراس العجلوني، يا أيها الشهيد الذي راح في حرب، أَسْتَسْت لدمار آت.. يا أيها الشهيد الذي يتطلّع الآن

إلى دوار حمل إسمه، لكنه لم يحمل معنى صاحب الإسم النبيل. كانت ثلاث دبابات مدمرة على أطراف الدوار. وكانت البنايات المطلقة عليه تحمل آثار دمار غريب. تنتظر أي دفعة من طفل صغير، أو هبة من ريح ناعمة لتتحول إلى ركام. كانت واقفة، كرجل عجوز أضاع عصاه لو تقدم وقع، ولو تأخر هوى على الأرض.

بايتها العصا اللعينة، أين أنت؟ انحرفوا بساراً. مدرسة الفريز، مبنياً. مستشفى العشر، مبنياً. فيساراً. العبدلي. المشهد مستمر. طلوع اللوبدة. عند أول الطلوع استوقفهم حاجز جيش. حدث عامر معه قليلاً. بنفس الإبتسامة المفتعلة. وسُمح لهم بالمرور. بعد نهاية الطلعة. وعند فندق سبلكت. استوقفهم حاجز فدائيين. حدث عامر مع الشاب اللتحي. وبدا عليه عدم إفتناع. جادلاً. جادلاً بصراخ. أمسك الفدائي عامر من باقة قميصه قائلاً: تريد أن تتجسس علينا؟ وتشابكا بالأيدي. كان السائق يحجز بينهما حين تعرف عليه مقاتل أت من قطعة أرض فضاء. بين بنائيتين. فصرخ: إتركه. فهو الرفيق عامر. إنه معنا!

ولم يعتذر منه. هذا اللتحي. الذي اعتبره عدواً. لسبب لهجته.

نحن الآن. ظهر الأحد. السابع والعشرين من أيلول. في شارع الشريعة. حيث الفدائيون. من كل التنظيمات. يعززون موافعهم بانتظار هجوم متوقع. في آية لحظة. الجبل محاصر

من كل الجهات. ولم يتبق للفدائيين. في عمان كلها. سوى نصف هذا الجبل. الذي يحمل إسم نبنة قديمة. إندثرت. مع حياة جديدة إستقرت مكانها.

كان يمكن للجيش أن يواصل تقدمه. قبل يومين. لكن إتفاق وقف إطلاق النار. الذي أشرفت عليه لجنة عربية. أوقف التقدم. توقفت الدبابات المنتظرة عند الشارع الذي يفصل مدرستي تراسنطه وضرار بن الأزور. وتوقفت أخرى عند أول طلوع سبلكت وأول طلوع شارع وادي السير. في كل مدخل يؤدي إلى الجبل المنتظر كان ثمة رتل من الدبابات. من بين البيوت. ومن الشوارع الضيقة. والأدراج العالية التي تنحدر نحو وديان السير ووسط البلد وشارع السلط. مثل درج الكلحة ودرج السعودي ودرج الخبز. من هذه المداخل الخفية. كلها. كانت تصل تعزيزات الفدائيين. على شكل مقاتلين بأسلحتهم الشخصية. صارت هذه المنطقة الضيقة ثكنة عسكرية متحفزة لهجوم أت. حملت مقدمته. ليلاً. تلك الطلقات المتواصلة الآتية من جبل الحسين وجبل القلعة. وأطراف جبل عمان.

وكان على عامر. مع هذه الطلقات. أن يقضي الليل هناك. إنقطعت سبل الخرج. ومع نهايات ضوء النهار التالي. كان يحمل رشاشاً وبركض. هارباً ورفاقه من طلقات إستهدفت موقعهم. حين أمسكت بأنفه رائحة الموت. بعد أن إستقر في خندق طبيعي طويل. حفر قبل القتال. على طرف الشارع ليكون محل أنابيب المجاري. وتركه العمال مع رصاصات مجنونة. كانت الرائحة النتنة القاتلة. المسيطرة على الدماغ. تذكره

برائحة جيفة لُحمار ملقى على جانب مَرَّة، عند طرف جبل نَبُو.
تذكر الذباب الأزرق الطنان، الذي كان يُصدر صوتاً مُزعجاً يزيد
من وطأة الرائحة الفائلة. تطلع إلى يساره، بعد أن أنزل رأسه
قليلاً، تحت مستوى الشارع، ليقابل بطرف جُثَّة مُلقاة في
الخندق. كان التراب الذي هيل، على ما يبدو، على عجل، يُخفي
كل الجُثَّة، لكنه لم يصل إلى الساق. كانت الديدان بدأت
عملها، والذباب الأزرق يُغير عليها بثقة. أدار رأسه بسرعة،
وركض في الاتجاه العاكس، مُحبياً رأسه، داخل الخندق.

وصرخ. صرخ بصوت سمعه جبل اللوبيدة. وبصوت أعلى
سمعته عمّان. وأعلى سمعه كل الأردنيين. وأعلى سمعه كل
العرب. وأعلى سمعه العالم. وبكى، وهو يواصل الركض
كالمجنون، داخل الخندق. أنهى الخندق، فقفز منه إلى الشارع،
وعند الرصيف جلس. رفع رشاشه إلى السماء وفرغ ما في
أحشاء مخزنه من رصاصات في الفضاء. وضع الرشاخ على
الرصيف، صارت يده تُغطيان وجهه، وتمنى لو تظهر العصا،
فجأة، فتحمله إلى جبله، إلى جبل نَبُو.

وكانت رصاصات عامر آخر رصاصات سمعتها عمّان.

في اليوم التالي، ظلّ إنتظار الهجوم ثقيلًا على المُقاتلين، من
الجانبيين. مرّ الصباح هادئًا. كانت أذان العمّانيين تعيش في
القاهرة، في مؤتمر القمة. إنقضى الظُّهر بنفس الهدوء. جاء
الليل ليُلقي بسواد كامل. وتناقل الناس الخبر بصوت أشبه
بالهمس. كان الواحد يقترب من الآخر، فيضع فمه عند أذنه،
ويقول بحزن: مات عبد الناصر..

مات عبد الناصر ...

مات عبد الناصر ...

مات عبد الناصر ...

ونسيت عمّان أنّها شهدت مرور وحش، في الأيام العشرة
الماضية. نسيت أنّها إرتدت قناعاً ليس لها. نسيت أنّها عاشت
كابوس العمر.

نسيت، هذا كلّهُ، فوقفت أمام المرأة، تتطلع إلى نفسها، بعد
أن لبست الأسود حداداً على أبنائها، وعلى عبد الناصر.

لم يبق بيت، فيها، لم تظهر على شرفته إشارة سوداء، حزنًا
على الرجل الذي ظلمته، حين ظلمت نفسها.

وفي هدوء كامل ...

ترك المُقاتلون أسلحتهم. منهم من سلّمها، ومنهم من
دفنها، ومنهم من ألقى بها في حفرة إمتصاصية.

وفي هدوء كامل ...

عادت الدبابات إلى معسكراتها.

وخلال أيام ...

وجدّ عامر نفسه في بيروت.

V

وخرت في عامر، مع سحر بيروت، رغبة كامنة، جامحة،
محمومة، بالكتابة.

كتب قصيدة، ومزقها. كانت تتحدث عن تجربة اليوم الصعب
في اللويحة.

عاد وكتب قصيدة أخرى، ومزقها، أيضاً. كانت تتحدث عن
موسى، وقد عاد إلى جبل نَبُو، باحثاً عن عصاه، فلم يجدها.
واعتزل الشعر، قبل أن يبدأ.

كتب قصّة قصيرة.

كان موسى، هذه المرة، عاد إلى الجبل، فوجد عصاه، لكنّها
فقدت مفعولها. كانت عصا صماء بكماء، فانكسرت مع أوّل
ضربة على صخرة، أراد بها النبيّ اليهوديّ أن تنفتح عن نبع ماء.
قرأها، لم تعجبه الصياغة. أعاد كتابتها. قرأها، غير فيها،
وضمّن بها بعض مقاطع من القصيدة الممزّقة. قرأها... أعجبته
أخيراً.

أمسك بورقة أخرى، وكتب:

الرفيق العزيز الأستاذ غسان كنفاني المحترم
خبة الثورة، وبعد

فليس سرّاً أنّني من قرائك المواظبين. أنا واحد من الناس، والناس كلّهم

يقراون لك. جدّ طيّه قصّة قصيرة كتبها مؤخراً، أرجو أن تنال إعجابك. ولا
تنس أن اسمك يحمل شيئاً من سرّ أجدادي الغساسنة.. فأنا من
منطقتهم. ولعلّ هذا يشفع لي بنشرها في "الهدف" .. إن نالت إعجابك
طبعاً، مع خياني وإعجابي الكبير

عامر الذيب

وضع أوراقه في مُغلّف، وتوجّه إلى مقر "الهدف". عند
المدخل، حيث الإستعلامات، كانت تقف مجموعة من المقاتلين.
يعرفهم جميعاً. أعطى واحداً منهم الرسالة، ليجد ردّاً غير
متوقّع: الأستاذ غسان موجود، لماذا لا تسلمه الرسالة بنفسك؟

وبعد لحظات، كان أمام الكاتب الشاب، الذي سحره بإسلوبه
وصدق تناوله لموضوعاته. جلس قبالة، بعد أن فتح غسان
المغلّف، قرأ الرسالة. تطلّع إلى عامر، وإبتسم. بدأ قراءة القصّة.
أنهى ورقة، فضغط على زرّ بجانبه. عاد للقراءة، ليقطعه دخول
شاب. أمره: إثنان قهوة. عاد للقراءة. ومع دخول الشاب يحمل
القهوة كان غسان أنهى. وفاجأ عامر بسؤال: بتكتب من زمان؟
رد: أبداً، فهذه أوّل قصّة!

قال غسان: جميل... سأنشرها، ولكن بشرط أن تأتيني بقصّة
أخرى بعد أسبوع.

وبعد ثلاثة أيام، فقط، كان عامر يرتشف القهوة، في مكتب
غسان، ويسلمه قصّة أخرى، تتحدّث عن شاب وجد عصا
مكسورة، في جبل نَبُو، فأعادها إلى وضعها. ألصق الجزئين
بوسائل تُفرزه شجرة بالمنطقة. وفي لحظة كان يتمنّى القفز إلى
الوادي، فوجد نفسه هناك. كان يحمل العصا بيده.

أعجب غسان بها، وطلب المزيد، بعد أن غير عنوانها من

"العصا السحرية" إلى "عصا عامر".

وعرفت بيروت عامر كاتباً.

ألقي سلاحه، فكانت رصاصاته في عمّان آخر الطلقات، إلى حين طويل، وحمل القلم، فكانت قصّته في "الهدف" أول الكلمات. صار ينشر قصّة في "الهدف"، ومقالات في "الأنوار"، وتستعين الجبهة به، كثيراً، لكتابة بيانات سياسية، وخطب يلقيها الرفاق المسؤولون.

وأخذت العصا شكل قلم...

أسبوعياً، كانت "عصا عامر" تُطلّ على القراء، وفي كلّ مرّة كان الشباب يتمنّى من العصا شيئاً فتلبّيه. كان عامر يختار حدثاً بارزاً ليكون موضوع قصّته. فَمَعَ حرب ٧٣ تمّنّى الشباب أن يذهب إلى الجبهة المصرية، لبّت العصا فوجد نفسه يركب قارباً مطاطياً ويعبر قناة السويس، ويشاهد خطّ بارليف يسقط أمامه، ويتساقط الجنود الإسرائيليون قتلى أو أسرى.

وفي الأسبوع التالي، ذهب إلى الجبهة السورية، فوجد نفسه يرّاقب الحرب، ويعدّ الطائرات الإسرائيلية المتساقطة.

ولع اسمه، خليفة لغسان كنفاني، الذي راح ضحية إغتيال مشؤوم. رثاه عامر بأجمل ما يمكن أن تخرج الكتابة من صور. تمّنّى من العصا أن يدخل إلى عقل قاتله، وقدم وصفاً مُرعباً.

وذاق طعم الشهرة، ذلك الطعم اللذيذ، الذي يُسكر.

تمنّى من عصاه، يوماً، أن يرافق جاكليين كينيدي، في رحلة بحرية، على قارب أوناسيس. أدار حواراً معها حول حياتها، والفرق الذي تراه بين الرئيس المُغتال جون كينيدي، والمليونير اليوناني.

كانت تُعبّر جاكليين عن أسفها على نفسها، وترثي إنسانيتها، التي قبلت أن تكون سلعة في مزاد علني.

وسألها عامر: لو خيّرت بين الرجال من تخارين؟

قالت بسرعة: غيفارا!

ردّ صاحب العصا: لكنّ زوجك الأوّل كان ضده؟

أجابت: نعم، لكنّه كان يحترمه.

ومن جاكليين كينيدي/أوناسيس، القصّة، تعرّف على جاكليين صباغ.

كان عامر يجلس على مقعده المُفضّل، المُطلّ على شارع الحمرا، في "الهورس شو"، حين سمع اسمه بصوت ناعم جرىء: أبحث عن الأستاذ عامر الذيب، فأين أجده؟

كانت تسأل النادل.

تطلّع إلى صاحبة الصوت، المتوجّهة نحوه، صبية، ضئيلة الحجم، قصيرة الشعر، ترتدي الجينز بنطالاً وسترة، تحمل مجموعة كتب ومجلّات. سألتها: أستاذ عامر؟

وقف، وقال: نعم.

سلّمت عليه، وجلّست. عرّفت بنفسها: جاكليين صباغ.

جلس، وقال: أهلاً وسهلاً.

قالت: أحبّ أن أناقشك حول قصّتك الأخيرة... حول جاكليين أوناسيس؟

ردّ: طبعاً، طبعاً.

وطلب لها فنجان قهوة، إستنكرت، وقالت للنادل: فقط كوب ماء.

وَدَخَلَتْ فِي شَرْحِ طَوِيلٍ حَوْلَ إِعْتِرَاضِهَا عَلَى إِجَابَةِ جَاكَلِينَ
عَلَى سَوْأَلِ الرَّجُلِ الْمُفْضَلِ. قَالَتْ إِنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ تُفْضَلَ
وَاحِدَةٌ مِثْلُهَا، وَاحِدَةً مِثْلَ غَيْفَارَا. فَالْمَرَأَةُ الَّتِي تَبِيعَ جِسْدَهَا
وَشَهْرَتَهَا وَحَيَاتَهَا، لَا يُمْكِنُ أَنْ تُفَكِّرَ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ.
وَسَأَلَتْهُ: أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

وَلَمْ يَجِبْ عَامِرٌ. كَانَ يَتَأَمَّلُ مَنْطِقَهَا. لَا يَتَأَمَّلُ مَنْطِقَهَا.
عَادَتْ، وَقَالَتْ: كَثِيرًا مَا يَفْرُضُ الْكَاتِبُ مَنْطِقَهُ عَلَى
شَخْصِيَّاتِهِ، فِي قِصَصِهِ، وَأَنْتِ فَعَلْتَ الْأَمْرَ نَفْسَهُ. أَعْتَقِدُ بِأَنَّكَ
تَصَوَّرْتَ نَفْسَكَ غَيْفَارَا، حِينَ وَضَعْتَ الرَّدَّ عَلَى لِسَانِ جَاكَلِينَ!
كَانَتْ هَيْئَةُ عَامِرٍ قَدْ تَغَيَّرَتْ، فِي السَّنَةِ الْأَخِيرَةِ، كَثِيرًا. أَطْلُقُ
لَحِيَةً كَثِيفَةً، وَأَرْجِعُ شَعْرَهُ إِلَى الْوَرَاءِ، لِيُعْطِيَ نَفْسَهُ صُورَةَ النَّائِرِ.
غَلَبَ عَلَى ثِيَابِهِ، أَيْضًا، اللَّوْنُ الْبَنِّيُّ الْغَامِقُ.

إِفْتَعَلَ عَامِرٌ ضَحْكَةً قَصِيرَةً، وَقَالَ: أَبَدًا، لَمْ أَفْرُضْ نَفْسِي
عَلَى أَحَدٍ. أَرَدْتُ فَقَطْ أَنْ أَقُولَ إِنَّ الْجَانِبَ الْإِنْسَانِي لَدَى جَاكَلِينَ
خَرَّكَ فِي لَحْظَةٍ صَدَقَ، فَقَالَتْ مَا قَالَتْ، وَعَلَى آيَةٍ حَالٍ فَهِيَ
وَجْهَةٌ نَظَرُ.

عَادَتْ، لَتَصَرَ عَلَى رَأْيِهَا، وَلَتَسْتَفْزِهُ: وَهَلْ يُمْكِنُكَ، مِثْلًا، أَنْ
تُعْجِبَ بِوَاحِدَةٍ مِثْلَ جَاكَلِينَ أُونَاسِيْسٍ، فَأَنْتِ عَلَى مَا يَبْدُو مِثْلَ
غَيْفَارَا؟

بَدَا وَاضِحًا أَنَّهَا تَسْخَرُ مِنْهُ.

أَجَابَ: الْحَالُ هُنَا مُخْتَلِفٌ، وَمَعَ ذَلِكَ مِنَ الْمُمْكِنِ جَدًّا أَنْ أُعْجِبَ
بِهَا، فَلَا تَنْسِيَ أَنَّهَا صَاحِبَةٌ شَخْصِيَّةٌ قَوِيَّةٌ!

وَتَوَاصَلَ بَيْنَهُمَا حِوَارٌ عَقِيمٌ، لَا يَهْدَفُ لِشَيْءٍ سِوَى طَرَقِ

الْبَابِ، الْكُتُبُ الدَّلِيلُ، وَطَلَبَتْ، هِيَ، مِنَ النَّادِلِ فَنَجَانِ قَهْوَةٍ،
وَأَخْرَجَتْ مِنْ جَيْبِهَا عِلْبَةً سَجَائِرَ وَوَلَاعَةً، قَدَّمَتْ سِيْجَارَةً لِعَامِرٍ،
وَحَاوَلَتْ إِشْعَالَ سِيْجَارَتِهَا عَيْثًا، كَانَتْ الْوَلَاعَةُ تَقْدَحُ الشَّرَرَ دُونَ
أَنْ تَظْهَرَ الشَّعْلَةُ.

رَأَى عَامِرٌ، أَمَامَهُ، جِسْدَ مَارِيَا عَائِمًا عَلَى مَاءٍ ثَقِيلٍ، فِي
الْكَهْفِ الْعَتِيقِ، وَإِسْتَغْرَقَهُ شَكْلُ الْمُلْتِ الْأَسْوَدِ الْمُسْتَعْلِ عَلَى
ضَوْءِ سِيْجَارَةٍ.

أَخْرَجَ عَامِرٌ وَلَاعَتَهُ، فَأَشْعَلَ السِّيْجَارَتَيْنِ، وَغَيَّرَ مَوْضُوعَ
الْحَدِيثِ. قَالَ: أَنْتِ تَعْرِفِينَ مَنْ أَنَا، لَكِنِّي لَا أَعْرِفُ مَنْ أَنْتِ؟
رَدَّتْ: قُلْتُ لَكَ، إِسْمِي جَاكَلِينَ صَبَاغ!

قَالَ: جَاكَلِينَ، إِذَنْ هَذَا هُوَ سَبَبُ إِهْتِمَامِكَ بِالْقِصَّةِ؟
قَالَتْ: لَا، طَبَعًا.

وَعَادَتْ لَتُنَاقِشَ الْمَوْضُوعَ نَفْسَهُ.

أَوْقَفَهَا عَامِرٌ: أَنْتِ لِبْنَانِيَّةٌ؟

رَدَّتْ: نَعَمْ.

قَالَ: وَشِيْوَعِيَّةٌ؟

قَالَتْ: نَعَمْ، كَيْفَ عَرَفْتِ؟

أَجَابَ: سَأَلْتُ الْعَصَا!

ضَحِكْتَ، بِصَوْتِ إِسْتِغْرَاقٍ مَسَاحَةِ الْمَقْهَى، وَسَأَلْتَهُ: وَهَلْ
تَسْتَخْدِمُ الْعَصَا دَائِمًا؟

وَأَضَافَتْ، بَعْدَ سَحْبَةٍ مِنَ السِّيْجَارَةِ: لَكِنِّي لَا أَرَاهَا!

قَالَ: عَصَايَ لَا تُرَى ... أَنَا فَقَطْ مِنْ أَرَاهَا.

قَالَتْ: وَمَاذَا قَالَتْ عَنِّي، أَيْضًا؟

ردت: وكنت تظننني عجوزاً؟
ردت: بالفعل... لا ليس عجوزاً، ولكن ليس شاباً. بالتأكيد.
قال: وخبين الشعر، وتعشقين محمود درويش؟
ردت: طبعاً!
سكت.

قالت: وماذا قالت العصا. أيضاً؟
أجاب: تقول إنك ستقبلين دعوتي على الغداء؟
ردت: دون تفكير: طبعاً، طبعاً، فعصاك تعرف عني أكثر مني!
وصارا صديقين.

يناديه جاكى، وتناديه عامر. يلتقيان يومياً، في المقهى، ثم
في شقة صديق له، ثم في بيت صغير إستأجراه، خصيصاً
للقائمتين اليومي، في عاليه، بعيداً عن أعين فضولة.

وكاد أن يقول لها: أحبك. كان يؤجل الكلمة إلى الغد. كل ما
كادت أن تخرج من بين شفثيه، كان يؤجلها إلى الغد.
وفي غد غير محسوب له أن يأتي، بهذه السرعة، صارت
بيروت بيروتين. واحدة لعامر وأخرى لجاكي. جاءت الحرب الأهلية
ليصبح اللقاء مستحيلاً.

موعود أنت بالحروب يا عامر. كان يقول لنفسه. وكتب،
متمنياً من العصا أن تأخذه إلى الشرق، شرق بيروت، إلى حيث
جاكي، ليقول لها كلمة فقط، ويعود. وكتب، راجياً أن تخمله، ولو
فوق طلفة طائشة، ليستقر على جدار غرفة نومها، فيفاجئها
بقوله: أحبك. وكتب، متوسلاً أن يقف على قمة مطلة على
الأشرفية، فيصرخ بصوت تسمعه فيه بيروتها: تزوجيني.

ونشر القصة...
لتصبح حديث بيروته...
وليؤلف عنها شاعر قصيدة...
فبغيتها معلن نائر...
وليكون عامر، في لحظة عمره، وجهاً لوجه، أمام جاكى، التي
جاءت إلى بيروت من بيروت عبر نيقوسيا.
وتزوجا...
وصارت العصا بيتاً، وإمرأة، ومسؤوليات من نوع جديد.



وصارت العصا خاتماً ذهبياً يستقر في يده اليمنى، ويصعد
إلى يده، شيئاً فشيئاً، ليلف رقبتة، فيخنقه كما تفعل أفعى
مع ذئب.

كان كاتب قصة مبدعاً، لكنه كان كاتب بيانات، وخطابات،
أيضاً، وهذا ما لم تكن جاكى لتعرفه عنه في فترة حب، يتعامل
مع السطح، ولا يدخل إلى اللب.

صار الرفاق يأتون، دون موعد، فيطلبون صياغة بيان. يجلس
عامر في مكتبه، دقائق قليلة، ليعود ببيان ناري، أو بارد، حسب
الطلب.

وجاكى ترأقب بصمت.

تَمَسْك بطنها. وتَسْأَل عامر: ماذا تقول العصا... ولد أم بنت؟!

وإزداد الطلب على عامر. تكاثرت المجلات بأرنبية غريبة. بعد أن هاجرت من بيروت. إلى باريس أو لندن. وكان قلمه مطلوباً. ولم يكن ليخل. فمع إحتياجات بيت. ومصروفات شخصية كبيرة. صار يكتب هنا. وهناك. لتعود أوراقه دولارات. وجاكي تُراقب بصمت.

تقرأ لعامر. فتستغرب. وتنحسّس بطنها. وتتساءل. ومرة سألته: تقول هنا إن خطف الطائرات خطأ. هذا تغيير كبير؟

رد: هذه فناعتي الآن.

قالت: لكنها لم تكن فناعتك قبل أسبوع.

كان كُتِبَ. قبل أسبوع. خطاباً لمسؤول يُعيد فيه جُح الخ الثورة الفلسطينية إلى عمليات خطف الطائرات.

أجاب: لم أكتبه بلساني.

ردت بسخرية: أعرف أنك كتبت به بقلمك.

قال: كان ذلك رأي الجبهة. أمّا رأيي فما أكتبه ويحمل إسمي. وإنتهى النقاش عند ذلك الحد.

وكتب. في مجلة عربية. غير معارض لتسوية مرحلية. كان كُتِبَ. قبل شهر. معارضاً آية تسوية. ومذكراً بأساسيات العمل الفلسطيني.

نبهته جاكي: هذان مقالان متناقضان. ويحملان إسمك.

تأفف. وقال: يا جاكي. أنا أكتب هنا عن التفاصيل. وهناك

كنت أكتب عن الكليات.

ولم تفتنع. لكنّ حياتهما صارت تقترب من الأزمة. كانت عادة عامر أن يقرأ لجاكي كلّ ما يكتب. فتناقشه. ويتفقان أو يختلفان. لكنّه في كلّ الأحوال. كان يقرأ لها. وفي صباح. فتحت مجلة عربية. لتقرأ ما لم يقرأ لها. لتجد دعوة واضحة وصريحة لها. بالرحيل. تمنى عامر على عصاه أن تنقلب إلى امرأة تُصارحه بمشاعرها. لتبت العصا. ليدور بينهما حوار مفاده أنّه لن يفهم المرأة أبداً. وسيعيش عمره يتمنى فهمها. لكنّه لن يستطيع.

وبالغ عامر. أكثر. فتمنى لو لم يُعط الله حق الإحتكار للمرأة بالإيجاب. وقال: كيف تُصبح أمّاً هذه التي لن يفهمها أحد. ولن تفهمها. بالتالي. إبنها؟

حملت جاكي أمتعتها. وحسرتها. وبطنها. ورحلت. عائدة إلى بيروتها.

٩

قارن الشرطي بين وجه عامر. وصورته. داعبه بالقول: نعيماً على خلق اللحية. ختم جواز سفره. وسلّمه إياه. قائلاً: أهلاً بك في بلدك.

ولم يُصدق عامر أنه سيدخل الأردن، بمثل هذه السهولة. كاد أن يُعيد جواز سفره إلى الشرطي: يا جماعة، هناك خطأ. أنا عامر الذيب. أنا مَنْ فَجَّرَ الطائرات. وكتب للثورة. وحرك الناس. أنا عامر الذيب. يا ناس. هناك خطأ ما...
كاد عامر أن يصرخ بهذا كله. علناً. لكن كل ذلك كان صرخة داخلية. فقد فهم أن عمان تغيرت. نسيت جرحها الكبير. لتترك السنوات الطويلة تضمّده. وقد فعلت...

كانت الساعة تجاوزت منتصف الليل. وزجاجة الويسكي امتلأت بالهواء المعتق. ورأسنا عبقاً بشماله طيبة. ولم أشعر بالرغبة بالنوم. كان عامر أثار فيّ من الفضول ما يمنحني نشاطاً للإستماع أكثر...

وهذا ما لم يشعر به عامر. كان واضحاً أنه استنزف. فنادى النادل وأكد عليه أن يسأل عن الطريقة الطاهرية. وما إذا كان لها تواجد في عمان...

وسألني: ماذا تقول؟ ماذا ستسألني في الأسبوع المقبل؟ قلت: الكثير. ولكنني سأبدأ بكونك أباً. هذا الذي لم أعرفه عنك قبل الآن. وسأعيد سؤالك عن العصا. هذه التي حملها. فقد أشرت في كلامك عن عشرين عصا. دون أن تتطرق إلى هذه.

الجزء الرابع عامر، نساء، وبرازخ

١

سيدي عبد الرحمن...

ليست جزيرة تنتصف مياه شواطئ الاطلسي، ولا يابسة
تلتصق بأرض القارة الإفريقية، ولكنها هذا وذاك معاً. ففي
ساعات النهار، حين يكون الجزر على آخره، تكون جزءاً من أرض
القارة السوداء، ومع الدقائق التي تلي الشمس وهي تنحدر على
الجانب الآخر من المحيط، يبدأ المد المائي البطيء لتصبح هذه
الصخور، التي تستغرق مساحة ألف متر مربع، بعد ساعة، أو
أكثر قليلاً، جزيرة كاملة...

فوق هذه الصخور، غرف صغيرة، قليلة، يسكنها كثيرون
بسحرونك بمعرفتهم ماضيكم وحاضرك، ويعطونك إشارات
واضحة لمستقبلك، ثم يقولون: والله أعلم...

وبعد مرورك بزوايا، وأزقة، ستصل إلى مقام وليّ قديم، سيدي
عبد الرحمن، وفي إحدى تلك الغرف الصغيرة، تسكن الحاجة

أمنية، واحدة من العشرات المجاورين للوليّ، الذي يؤكدون أنهم
بأخذون من كرامته القليل، وتستخدم تقنية عجيبة في
التعرف على الغيب، كانت تحضر كتلاً من القصدير، وتضعه
على الجمر حتى درجة الذوبان، فتقرأ فيه الماضي، وتتوقع من
خلاله المستقبل. ثم ترميه على الماء الموضوع بين رجلي الباحث
عن علم المجهول، فتعرف من صوت الارتطام، والبخار المتصاعد،
أشياء أخرى...

ولم يأخذ عامر إلى هناك غير الفضول، والمغامرة، ومحاولة
اختراق عالم يؤمن به الكثيرون، لكنهم يدعون العكس. وأخذه
أيضاً حديث جميلة التي التقاها صدفة، فحدثته عن عالم
عجيب، لن يصدق عنه قبل أن يراه.

طلبت الحاجة أمينة منه خلع حذائه، وجرابيه، ففعل. أمرت
مساعدها بإحضار القصدير، والجمر، وقالت: هل تمنع بخلع
ملابسك وارتداء جلباب؟ تطلع إلى جميلة مستنكراً، فهذا خارج
على الاتفاق. أومأت له بالموافقة، غلب على أمره، فوافق على
مضض. إنزوى عند طرف الغرفة، فخلع ولبس. جاءت المساعدة
بالجمر، والقصدير، وبكرسي صغير وضعت به إلى جانب الحاجة،
جلس عليه، وضعت قطعة قصدير عند قلبه، ثم مسحها
على جسده، ورمتها إلى الجمر. أخذ القصدير بالذوبان. تأملت،
وقالت له: أتيت من منطقة ملأى بالمشاكل، وبالحرّوب، كان
كلامها على شكل سؤال. لم يجب. كان يختبرها. قالت: لماذا
أنت ملئ بالغضب إلى هذه الدرجة؟ كان السؤال واضحاً. لم
يجب. تساءلت: إبتك تسأل عنك، إنها وحيدة في جوّ غريب، لماذا

تركتها وحيدة؟ كان السؤال مباشراً، واستنثار اهتمامه. لكنه فضل الإستمرار في لعبة الصمت. قالت: أراك تستخدم القلم دائماً. هل أنت كاتب أم رسّام؟

وجد نفسه يرد: كاتب...
قالت: أنت إنسان مبروك، من منطقة مبروكة. قلبك خال من الحقد، لكنّ خارجك مليئ بالعصية. لا تخف، فستعود إلى رشذك في آخر الأمر.

طلبت منه الوقوف، ووضعت وعاء مملوءاً بالماء بين رجليه، وأخرجت القصدير المزوج بالجمر، ورمته إلى الماء، بعد أن سحبت طرف الجلباب، ووضعت فوق الوعاء لتغلق منافذ البخار. صدر صوت يشبه ما ينتج من انفجار صغير، ولسعه البخار الحار عند أطراف رجليه، وعضوه. حاول الإفلات فأمسكته الحاجة. لم تمض دقيقة حتى فتر البخار، ثم سكن. أجلسه مرة أخرى، ومسحت على جسده قطعة قصدير أخرى، ورمته إلى الجمر.

قالت له: أنت كاتب، ولكنّ نفسك ملأى بعمل آخر من الماضي، وما زال يسكنك. هل كنت تعمل في الجيش. في سلاح الجو. هناك طائرات ودبابات. هناك موت. هناك حرب؟

لم يرد. لكنه شعر بنفسه ينغمس في أجواء غريبة عليه. فلم يكن يتوقع. في لحظة، أن يجلس على مثل هذا الكرسي، ويستمع إلى مثل هذا الكلام. شعر بأنّه عار من الملابس أمام جمهور غفير. لا ليس صحيحاً ما يسمع. بل لا يمكن أن يكون صحيحاً.

قالت، بعد أن تأملت قطعة القصدير الآخذة في الذوبان:

أعرف أنّك مسلم، لكنني شككت للحظة أنّك يهودي. هناك شيء ما من سيدنا موسى في نفسك. وكأنّني أراك تحمل عصاه المباركة في يدك.

وسكنت، كأنّها تختبره، كأنّها تختبر نفسها. كانت تنتظر إجابة.

ردّ عليها: قد تكون العصا هي قلبي الذي أكتب به.
قالت على مضض: ربّما. وتابعت قراءتها للقصدير: ستكون في حياتك فتاة مغربية.

تطلّع إلى جميلة، إنتبهت الحاجة، ثم واصلت: شعّرها طويل، وتميل إلى النحافة، طويلة، ولسانها قصير. كان شعّرها جميلة قصيراً، وتميل إلى السمّنة. وأضافت: في حياتك نساء كثيرات، وستكون هذه واحدة منهن. لم خبّ أباً منهن، وأحببتهن كلّهن. وستحبّهن، ولن خبّهن. غير أنّها ستكون نقطة تحوّل في حياتك.

أومأت له بيدها أن قف. وقف، فرمت قطعة القصدير في ماء جديد، لبصر الصوت المنفجر نفسه، ولتحرّق رجليه وعضوه لساعات نارية.

أشارت لمساعدتها أن تأخذه إلى غرفة الغسل. حملت هذه بقايا الماء الذي حرّقه بخاره قبل قليل. إنقاد وراها كالسحور. وصلا الغرفة المظلة على البحر. سلّمته إلى شاب طلب منه خلع الجلباب، وباشر في سحب مياه من بئر. إغتسل بالماء القصديري، ثمّ حمّاه الشاب بماء البئر بعد أن وضع فيه أنواعاً مختلفة من الأعشاب. شعر بهدوء نفسي عجيب. نشّف نفسه، وعاد إلى غرفة الحاجة.

قالت له: ستنفك الماء المباركة، وحين تجلس على كرسيك دائماً إقرأ آية الكرسي، فسبحميك الله، وأعطته علبه شمع، وقليلاً من الحناء، وطلبت منه أن يوقدها بعد أن يغمسها بالحناء، ويتركها إلى جانب مقام سيدي عبد الرحمن. أكدت عليه: إقرأ هناك سورة الفاتحة. نقدتها خمسين دولاراً.

كان الظلام قد خيم على التلة، التي صارت مع المد جزيرة. استقل وجميلة مركباً صغيراً، عائدين إلى الشاطئ القريب، نستحوذ على عقله أفكار تتراوح بين الشك واليقين. هل ما سمعه للتو جرى فعلاً؟ هل كانت جميلة تتلاعب به، فأخبرت الحاجة كل شيء؟ لكنها لا تعرف شيئاً. فأَي جنون تخمله هذه الدنيا. وأي غموض هذا الذي يأتينا من الجهول؟ وكازابلانكا مدينة التناقض...

مزدحمة، تنبعث من حواليلها روائح عوادم السيارات، ويجعلها لون التلوث رمادية، وتخييط بها مدن الصفيح التي تساور مدن الترف، حيث الفقر يجاور الثراء، لكن نسيمات المحيط تمسح التلوث في لحظة، وبلغى البخور والغيب الفوارق الطبقة.

وفي السوق، في اليوم التالي، كانت تسكنه متعة التسكع بين تلك الأزقة الضيقة، يتأمل واجهات الدكاكين والبسطات على الأرصفة، المملوءة بأنواع النحاسيات والخشبنيات، حين باغتت أسماعه أغنية فيروز: زهرة المدائن، تنبعث من راديو، وترددها مع البث الأني من الفضاء مجموعة من الناس. تنبع

مصدر الأصوات المدهشة، المندفعة هادرة مرة، وناعمة مرات. وصل إلى ساحة صغيرة ملأى بالناس. كان هؤلاء يعتبرون عن تضامنهم العفوي مع الإنتفاضة في فلسطين. والتقطت عيناه مشهد عصا جميلة، مرصعة بالأحجار الكريمة، تماماً كما كان يصور عصاه في ذهنه، وكما وصفها كتاب عربي قديم. ظن أنه يحلم، لكنه ركز نظره: كانت العصا أمامه تنتصف بضاعة دكان على جانب الزقاق. تحوّل إليها وما زال يترنم بتلك الكلمات التي تنغنى بالقدس. تخاطفه صبي يعرض عليه أنواع البضائع، لم يلتفت له. وصل إلى العصا فسحبها، وأخذ يتفقدتها. سأل عن السعر. بالغ الصبي بالبلغ. وأخذ بالتفاوض. إفتعل المغادرة، لكن الصبي أدخله إلى الدكان. كانت هناك عائشة...

ومن النظرة الأولى عرف أنها تلك التي تحدثت عنها الحاجة أمينة. عرف أنها ستدخل في حياته على شكل لم يألفه، كانت تحمل نفس الوصف الذي قدمته الحاجة، صحيح أنها تجلس وراء طاولة مزخرفة، وتلبس الجلباب المغربي، وتضع على شعرها شالاً مقصّباً، فلا يظهر منها طول قامتها وشعرها وحجم امتلاء جسمها، إلا أنه خمن شكل ذلك كله.

عرض الصبي سعراً آخر، فأسكنته عائشة بإشارة من يدها، وبنفس اليد أشارت إلى عامر بالجلوس، وقالت: تفضل. جلس عامر. رحبت به ببلادها المغرب، وسألته: أنت من المشرق؟ من الشام؟ ردة قريب منها، من الأردن. أمرت الصبي بجلب الشاي المغربي الأخضر بالنعناع، والتفت عيونهما. كانت عينها

صافيتين، واسعتين، حملاّن لون العسل الفاتح. حاول الحديث عن سعر العصا، فأسكنته بحركة من يدها، وقالت: هي هدية، لم يقبل. فأسكنته بحركة من يدها أيضاً. وصل الشاي، فملأت أنفه ونفسه رائحة النعناع النافذة. أبدى إرتياحه من طريقة صنعه، وزاد بمدح الطريقة المغربية بالطبخ. ذكر الكسي كسي ضحكت، وقالت: أنا صاحبة مطعم متخصص به، ما رأيك أن تنغدي هناك. أنت ضيفنا في كازا. كانت تتصرّف وكأنها تمتلك الدار البيضاء. تمتع وهو الراغب، فأصرت بحركة من يدها حين وضعنها على فمها، مطالبة إياه بالصمت. كانت تتصرّف كأُميرة...

وذهب إلى المطعم، فعرف عنها أكثر. مطلقة من زوج إسباني، ثرية، وحيدة، بلا أبناء، ترفض الزواج بعد مرارة التجربة. كانت تستعين على قضاء أوامرها من الجميع بمجرد حركة من يدها، أو إيماءة من وجهها، أو حتى طرفة من عينها. وتحدث عن نفسه، ليس كل شيء، قال لها عن سفرائه، وكتاباته، وعن تجربته في سيدي عبد الرحمن. لم يبلغها بالتفاصيل، ولكنه تحدث عن معرفة الحاجة أمينة لتفاصيل حياته. إهتمت بالموضوع، عرف منها أنها تعرف أمينة، ولكنها حدثته عن شقيقات أخريات يستخدمن أساليب أخرى، ويعرفن أكثر منها. كانت تعرف الجميع، وأسرت له: هناك الشبيخة زهرة، التي تعرف عن حياتك باستخدام ورق اللعب. قالت: هناك رؤساء دول عربية وأوروبية يبعثون لها طائراتهم الخاصة، ليلتقونها، ويعرفون منها. إستغرب الأمر، وتسأل وكأنه يحدث نفسه: كنت أظن أن

عالم عرّافي السياسة والسياسيين إنقرض منذ زمن بعيد؟ وسألها: هل نستطيع لقاءها؟ ردت: هي صديقتي، نعم نستطيع لقاءها، ولكن بموعّد مسبق، سأتصل بها لأعرف. إتصلت، سألتها: يمكنها مقابلتنا الآن، ما رأيك؟ وافق فوراً...

ولم يكن شيء يوحى، عند مدخل البناية، ذات الطواب المتعددة، أن هناك فيها من يحمل تلك الأهمية، لكن الشقة التي اتخذتها الشبيخة زهرة مقراً كانت تشي بالغرابة. أشبه تكون بعيادة طبيب معروف، على يسار المدخل، غرفة إنتظار ملأى بالناس الذين يحملون هياكل أجناس مختلفة: عرب، أوروبيين، أفارقة، وآسيويين. نحو خمسة عشر شخصاً ينتظرون الشبيخة لتفتح أبواب مجهولاتهم. أجلستهما الخادمة في غرفة أخرى، وذهبت. إنتظرا ساعة أو بعضها صامتتين. دخلت سيّدة خمسينية ترتدي الجلباب المغربي، مدوّرة الرأس المكشوفة، محتاة اليدين، من باب آخر، غير ذلك الذي استخدماه قبل قليل. فخمّن بأنها الشبيخة. تبادلت القبلات مع عائشة، وسلّم عليه، فالتفت عيونهما. تأملتته بنظرة ثقبت روحه. سحب يدها بسرعة، ووضعتها على رأسها، وتعلّلت بصداق سيمع من رؤيته. نادى على الخادمة، وأمرتها بإبلاغ المنتظرين بالعدول في وقت آخر. وقف مستغرباً، فتدخلت عائشة: يا شيختي، لا وعدتنا.

تجّجت هذه بالصداع، والتعب، وغياب اللحظة ال

تستاعدها على مهمتها، وقالت: تعالا إليّ في يوم آخر.
تطلع إلى عائشة، بدت وكأنها غلبت على أمرها، وهمت
بالمغادرة، وجدّ نفسه، وبغفوية خالصة، يتطلع في عيني
الشيخة، ويدخل إلى أعماقها. قال لها بصيغة أقرب إلى الأمر
منها إلى الطلب: بل ستفعلين.

شعر بأنه كسر قوة عينيها، عندما وجهتهما إلى عائشة.
ثم إلى الأرض، ثم عادت لتطلع في عينيها، ولتقول له: تفضل.
وفتحت له الطريق إلى غرفة عملها...

جلست وراء طاولة صغيرة، وجلس أمامها. فتحت جاروراً
وأخرجت منه ورق اللعب، خلطته، ووضعت على سطح الطاولة.
وطلبت منه مسكه بيمينه، ففعل. بدأت بفرز الأوراق بترابنية
معينة. ثلاث أوراق فتوقف عند الرابعة، وتطلع إليه، وتقول
شيئاً ما حصل معه. ورقة أخرى وتوقف أمام التالية، فتقول له
شيئاً آخر. ثلاث والرابعة، سبع والثامنة. كانت تقول له أشياء
حدثت معه فعلاً. أنهت الورق، وعادت إلى خلطه مرة أخرى.
وأعدت الفرز مرة ثانية، فأبلغته أشياء جديدة، وخلطته مرة
ثالثة، وأبلغته، ورابعة وأبلغته، وخامسة وأبلغته. وتوقفت.

تطلعت إلى جهة عائشة، وسألها الانتظار في الخارج. همت
هذه بالمغادرة. إستنكر عامر. قال: ليس لديّ مانع من أن تسمع
كلّ شيء. عادت عائشة إلى الجلوس.

تأملته الشيخة بعناية، وقالت: لا تستغرب أنّي كرّرت معك
عمليتي خمس مرّات. أردت أن أؤكد. أنت إنسان محروس. مبروك.
ولديك كرامات. في داخلك روح طيبة قويّة. أعداؤك كثيرون

ولكنهم لن يستطيعوا أن يلمسوا شعرة في جسدك. سيموت
صديق عزيز لك مقتولاً قريباً جداً. وأراك وكما فجّرت أشياء في
الماضي، فتحدّث عنها الدنيا، ستفجّر أشياء أخرى تتحدّث عنها
أكثر. سيكتب عنك الناس كثيراً، وسوف تثير الكثير من الجدل.
رؤساء وملوك وسلاطين سيذكرون إسمك. والله أعلم. حفظك
الله يا إبني. فلم أكن أريد أن أكون في هذا الموقف، ولكنك
أصررت، ولم أستطع الرفض.

ورفضت أن تتقاضى أجراً...
الدهشة مرّة أخرى، والتساؤلات مرّة ثانية، والعقل يرفض أن
يصدق، لكنّ شيئاً في داخله كان يقتنع. فمن عرف ماضيه
بهذه الصورة المتكاملة، وجعله عارياً كما خلقه ربّه، لا بدّ وأن
يمتلك شيئاً من المستقبل...

وأبدى مشاعره المتناقضة لعائشة، لكنّ هذه قابلته ببرود،
بصمتها الزمن، المقطوع بجمل قليلة، وتعليقات مقتضبة،
وإشارات وإيماءات الأميرات.

قالت له: أنا لا أفهم إستغرابك الكبير، فهذه هي الدنيا،
وأسرّت له، لأوّل مرّة، شيئاً: حدّثني الشيخة زهرة عنك، قبل
أشهر، وأكّدت لي أنّي سألتقي برجل من المشرق، وسيدخل
حياتي...

وابتسمت...

دهشة وراء دهشة، تتتالي عليك يا عامر، ليسكنك المجهول
المعلوم، وليسكّل لك عالماً جديداً جديراً بأخذ إسم الإكتشاف.
قالت: إذا أحببت، فسنزور الكثيرات مثل زهرة. المغرب يمتلئ

بهن وانفقا على يوم كامل. في الغد، مخصّص لذلك العالم ودعاها إلى العشاء في مطعم تختاره هي. وافقت. في الموعد المحدد، كان ينتظر في ردهة الفندق. سمع صوت عائشة تناديه من قريب. تطلّع إلى مصدر الصوت. ملأه الإستغراب. فلا يمكن أن تكون هذه التي تقف أمامه عائشة. تلك المغربية المسوّرة جسدها بجلباب، ويختفي شعرها وراء شال، والتي تركها قبل ساعات. تأتبه الآن بهيئة عصرية. كانت تلبس فستاناً أسود ينتهي عند الركبة، وتضع على صدرها قطعة ذهبية مطعمة بحبات من الماس تحمل شكل عصا. وتعتلي حذاءً عالياً. فبدت أطول منه. شعرها كان يصل إلى آخر ظهرها. قبلها على خدها. فاشتتم عطرًا يحمل عبير الياسمين. توجهت إلى مطعم قريب مطّل على الأطلسي. إختارت طاولة بدت لعامر وكأنها معلقة في الهواء. يبدو منها المحيط مفتوحاً على آخره. أعجبه المشهد. شرباً نبيذاً. شرباً كثيراً. كانت عائشة قليلة الكلام. ترتشف وتسمع. وتناوّل الماء. وكان عامر يتحدث، ويشرب، ويتأمل ما يجري أمامه. وكأنه لوحة متحفية لم تُرسم بعد. كان الماء يبدو في صراع مع الصخر، والصخر يدافع عن موقعه. صار الماء يأتي على شكل أمواج كاسرة. لكن الصخر لم ينكسر. أخذ يكتب في ذهنه نصّاً غريباً. يتصوّر فيه تكوين العالم بعد هدوء الصراع. كان يكتب عن هذا الصراع التاريخي بين الصخر والماء الذي خلف وراءه صراعات البشر. تأمل عائشة، الغارقة بدورها في اللوحة الطبيعية التي

ينورها قمر كامل. كتب في ذهنه: يا عائشة، يا قصّة الأطلسي الهادر، الذي تحوّل مع عينيها، في لحظة، إلى بحيرة هادئة. أخرج قلمه، وكتب على منديل الطاولة، بعض ما كان يكتب في ذهنه قبل قليل.

سألته عائشة: ماذا كتبت؟ أراها المنديل. إبتسمت وسألته بحركة من يدها. وعينيها ما إذا كان يفضل الخروج. فأوماً لها أن نعم، فخرجت.

كان الليل قطع أكثر من نصفه. وشوارع كازابلانكا هادئة. ترتاح من ضجيج نهار مضى. وتستعد لصخب النهار التالي. توجهت بسيارتها جنوباً، على الطريق المحاذية للشاطئ. وضعت شريطاً في المسجّل. وجاء صوت فيروز ليعطي للجولة معنى من معان كثيرة يحملها الحب. كانت تغني:

سهار بعد سهار...

تا يحرز المشوار...

وسرح عامر في هذا الجديد الذي يعيشه: عائشة التي لا يعرف عنها أكثر من اسمها. وأمينه التي أعطته مفتاح عالم كان حوله. ولا يعرف عنه شيئاً. وزهرة التي فتحت له باب هذا العالم، والنبوءة التي ستجعله يغيّر وجه العالم. عاد إلى الماضي البعيد، فرأى الطائرات تنفجر على التوالي في الصحراء، لتشعل وهجاً تأجج قليلاً. ثم تحوّل إلى سحابة من دخان. سرعان ما تلاشت. وأخذ يفكر في ذلك الصديق الذي سيقتل قريباً...

وسدّت عائشة سبل أفكاره. أشارت بيدها إلى الشاطئ.

وأبلغته بأن سيدي عبد الرحمن على اليمين منهما. طلب منها إيقاف السيارة. نزل إلى الرصيف المحاذي للبحر. وقفاً يتأملان مشهد الماء والصخر، والمكان الذي يضمّ الولي وقد صار جزيرة كاملة. شعرت بالبرد مع نسيمات أتت من آخر الغرب. خلع سترته وألبسها إياها. اشتتم رائحة العطر. وتلاقت عيونهما. تلاقت شففتاهما في قبلة مرجلة، ثم قبلة قصيرة، ثم واحدة طويلة تليق بلحظة تستأهل أن تُسجّل في كتاب العُمر.

عادا إلى السيارة. فتعانقا بحرارة. وبكت. سألتها: لماذا تبكين. فمن حمل إسم عائشة ينبغي أن لا تبكي.

لم تجب على السؤال. وقالت: أنا لم أستم على إسم ستنا عائشة زوجة النبي، بل تيمناً بعائشة البحرية، التي سميت بإسم ستنا عائشة.

سألها: ومن هي عائشة البحرية؟

أجابت: هي المبروكة عائشة البغدادية.

لم يسمع عنها شيئاً. فزاد في تساؤله. لم ترد. سرّحت قليلاً. كان الفجر يقترب، والقمر يتهاياً للمغيب، تاركاً مكانه للشمس، وعائشة تفكر في مغامرة.

قالت: هل أنت مستعدّ لخوض مغامرة من نوع خاص؟

أجاب عامر، دون تفكير: معك، بالتأكيد.

قالت، وهي تدير محرك السيارة: سنزور عائشة البحرية.

وأزمو مدينة مغربية صغيرة، تغسل قدميها بمياه الأطلسي ويديها ووجهها بمياه نهر وادي الربيع، منذ ثلاثة آلاف سنة، أو أكثر قليلاً. حين استقرّ عندها فينيقيون جابوا البحار القديمة،

وتوقفوا هنا أمام بحر الظلمات. فبنوها على هيئة مدينتهم صور.

وعند التقاء وادي الربيع بالأطلسي، كان عامر يعيش سحراً آخر، فهناك كان يستمع إلى قصة سيدي بو شعيب الذي عاش في أزمو، وأحبّ عائشة وهي في بغداد. وكان يلاعبها بأن يتراميا الكرة. هي في بلدها، وهو في أزمو، وكيف كانا يتخاطبان عن بعد، فاتفقا على الزواج. لكنّ ماتت فور وصولها. قبل لقائه شخصياً. فدفنت إلى جانب التقاء الأطلسي بالربيع. وصار قبرها مقاماً. بو شعيب لم ينتظر طويلاً، فمات بعدها. ليدفن في تلة، على الجانب الآخر من النهر الذي لم تقطعه عائشة. تطلّ على مقامها، وصار قبره مقاماً آخر...

قصة حب جميلة، سحرت عقول الناس، واستحوذت على تفكيرهم، وأوصلت إلى أن مزار عائشة صار يجذب النساء اللواتي يردن حبيباً، أو بتطلّعن إلى استعادة زوج مفقود، أو يحلمن بأن يتبركن بها فيستطعن الإجاب بعد طول عقم، أو يأتين مع أحبائهن، أو أزواجهن، لشكرها على نعمة حافظت على وجودها.

وصل عامر وعائشة، مع أول خيط أسود تميّز عن خيط أبيض. ومع ألوان الفجر المدهشة، كانا يقرآن الفاتحة عند الضريح، ثم تستحمّ عائشة في مكان خصّ للنساء، من ماء بئر عذبة خلط بأنواع الأعشاب البحرية الآتية من المحيط، وعامر يتوضأ من ماء مشابه في مكان خصّ للرجال. خرجا في وقت واحد. سحبت عائشة من يده إلى حيث المصبّ. جلسا على الرمل

الناعم الذي أخذ لون الذهب من أول شعاع للشمس. أمسك بيدها. قبلها. كان التعب قد هدهما. تمددا على ظهريهما. وراحا في إغفاءة قصيرة. شاهد عامر نفسه يسير على الماء ويدخل في نفق أبيض. إستيقظ ليرى عائشة تغسل يديها في الأطلسي. ثم تحوّل إلى مياه وادي الربيع. فتغسلها من الماء المالح. في طقس أقرب إلى النزق. إنتبهت إليه. أشارت له بيدها أن تعال. فلدها. تمشيًا على ضفة الربيع. وأخذ يتأمل الحجارة الصغيرة المتناثرة حوله. والتي تحمل كل الألوان. الأبيض والأسود والأحمر والبني والأزرق والأخضر. قالت له: خذ معك ما استطعت منها. فهي حجارة مباركة. أعجبه حجران. أسود وأبيض. كانا شبه متلاصقين ببعضهما بعضاً. غسل الحجرين بماء النهر. وفصلهما. فأعطى عائشة الأبيض. وأخذ يتأمل الأسود. لم تصدّق عيناه ما ترى. كان هناك عرق ذهبي يتخلل الحجر الذي ملأ قبضة يده. صرخ بطفولية غابت عنه منذ زمن طويل: ذهب يا عائشة. ذهب. عانقها. حملها. واستمع لها تقول: يا سبحان الله...

وفي طريق العودة. تحدّثت عائشة عن ذلك المكان باعتباره واحداً من أمكنة ذكرت في القرآن الكريم. لأنّه يشهد التقاء بحرين. وقالت: "مرج البحرين يلتقيان" وهي من سورة الفرقان على ما أذكر...

إستمع إليها باهتمام. وهي تشرح عن قداسة تلك الأمكنة. عمّا سمّته بتلاقي الموت مع الحياة. سألتها: ماذا رأيت حين نمت؟ حدّثها. سألتها: ماذا رأيت أنت؟ قالت: رأيته تقبلني على مركب

في نهر النيل. الأهرامات من خلفنا. والنجوم من فوقنا. ورأيتك خرق كتاباً...

سألها: ولماذا بكيت؟

قالت: لأنني كنتُ أبحت عنك. فوجدتك.

سمّاها عائشة البرية...

ففرحت. واعتبرته فألاً حسناً...

في كازابلانكا. طلب منها أن تنزله قُرب مكتبة. إشتري نسخة من القرآن الكريم. ومجلّد المعجم الوسيط. توقّف كثيراً أمام كتب كثيرة لتفسير القرآن. لكنّه لم يشتري منها واحداً. فقد أراد تفسير الآيات بطريقته الخاصة. بما يشير إليه قلبه وعقله إلى معناها.

وفي غرفته في الفندق. لم يمنعه إرهاقه من القراءة. ومع فتحه القرآن شعر بطاقة غريبة تستغرق جسده وعقله. فتح الكتاب الكريم كيفما اتفق. فوقعت عينه فوراً على الآية التي يقصد. شكر ربّه. كانت تقول: "وهو الذي مرّج البحرين هذا عذب فرّات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً". تأمّل في الآية. بعد أن قرأها عدّة مرّات. إستعصت عليه بعض الكلمات: مرّج. أجاج. برزخ. حجر. بحث في المعجم. فوجد أن: الحجر. وضعه في حجره. حجزه. والأجاج ما يلذع الماء بمزارته أو ملوحته. ومرّج البحرين. خلطهما حتى التقيا. أو خلّاهما لا يلتبس أحدهما بالآخر. البرزخ: الحاجز بين شيئين. وما بين الموت والبعث. فمّن مات فقد دخل البرزخ. وفي التنزيل العزيز: "ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يبعثون". وفي علم الجغرافية. قطعة أرض

ضيقة، محصورة بين بحرين، موصلة بين أرضين.

وتذكر ما حلمه عند المصبّ. السير على الماء، والدخول في نفق أبيض، فاشتعلت في ذهنه فكرة أنّه عاش لحظة ما بين الموت والبعث. كان قرأ كثيراً عن هؤلاء الذي ماتوا للحظات خلال عمليات جراحية كبيرة، وعادوا إلى الحياة بعدها، ووصفوا ما شاهدوه بأنّه بياض في بياض. إشتعلت في ذهنه أكثر فكرة أنّه عاش محجوزاً هناك في البرزخ، لكنّه لم يصل إلى تفسير سيره فوق الماء، فهذه من معجزات المسيح، وليس ثمّة مكان للمسيح في هذا الموقع. وفجأة تذكر صديقه اللتحي، المسيحي التلحمي.

ونام...

إستيقظ، بعد ساعات، على صوت عائشة في الهاتف يسأله عن حاله، ويخطّط للجولة الروحانية في اليوم التالي، فوافق بفرح. وعاد إلى النوم العميق.

صباحاً، باكراً، كان الهاتف يوقظه مرّة ثانية، والصوت نفسه، كانت عائشة تبلغه بوجودها في ردهة الفندق. إستحمّ على عجل، وعلى عجل ارتدى ملابسه، في الردهة كان يرى عائشة في هيئة ثالثة: بنطال الجينز، والتي شيرت، والشعر غير المسرّح. كان هو أيضاً ارتدى زياً غير رسمي.

و هناك الكثيرون في المغرب تمّ يقرأون الطالع...

ويعرفون الماضي، أو يدّعون...

في تشكيلات أحجار الودع والزهر، ومن قراءة باطن اليد، ومن ورق اللعب، وفي الشبّة، وفي القصدير، وفي البخور المتشكّل

غيوماً صغيرة في غرفة، وفي فنجان قهوة، وفي السماء التي تتشكّل فيها سحب كبيرة تتفرّق وتتجمّع على أشكال وجوه وخرائط، وفي الرمل المتناثر على سطح طاولة، ومن مليون طريقة، وطريقة...

وجرب منها عامر الكثير ذلك الصباح، فاستمع إلى الصحيح، وإلى الدجل الواضح، كان يتابع باهتمام في بعضها، ويتحوّل إلى السخرية مع بعضها الآخر. عند الظهر، ومع شبيخة إنطلت عليها حيلة أنّه أميركي، فتحدّث بالإنجليزية، لتتنبأ له بأنّه سينجح في استثماراته في المغرب، تطلّع إلى عائشة، وأفهمها بحركة من يديه، وزفرة حارة من داخله، أنّه قد شبع ضجراً، فغادرا.

اقتрحت عائشة أن يستثمرا الباقي من اليوم في مراكش. قالت إنّ جامع الفنا يتألّق بدءاً من الغروب، وحتى ما بعد منتصف الليل. وعند الغروب كانا هناك.

مراكش، يا مراكش...

يا حمراء البيوت، والقلوب، ومحلّ يوسف بن تاشفين، ويا إسم المغرب الحقيقي العتيق، وتاريخه، المسور بالجال والبحار، يا مدينة تصوّفت حتى عاشت الغيب حدّ اليقين، وعشقت الماضي حتى صاغته جوهرة تمنّاها الحاضر.

وتجوّلا في مراكش على عربة يجرها بغل، يتوقّف بمزاجه لقضاء حاجته، وسط الشارع العام، دون أن يثير أدنى إهتمام من أحد. تذكر شارع الشانزليزيه في باريس، وكيف إمتلأ مرّة أمامه بروت الخيول والبغال، المحتفلة بذكرى الثورة الفرنسية في الرابع

عشر من تموز. شاهد جامع الفنا وقد حوّل في ربع ساعة من ساحة شبه فارغة، إلى مهرجان تختلط فيه أصوات الطبول بصرخات الأطفال بترنيمات المتصوّفة بموسيقى الجاز بقرقعات الصحنون التي تؤكل محتوياتها بشهية، وتتمازج فيه جنسيات العالم أجمع، وتُصهر في جنباته طرق صوفية تعود إلى كل الأزمنة والأمكنة، فتتجمع هنا لتبدو كأنها طريقة جديدة تليق بزمّن العولمة...

كان بمسك بيد عائشة بيساره، تحسباً من ضياعهما في الزحام، وبيمينه عصاه المزخرفة، وفجأة إمتثلت أمامه تلك الأفعى السوداء التي رآها في جبل نُبُو، قبل ربع قرن. كانت بالهيئة المتحفّزة نفسها، ولكنها تتراقص ذات اليمين وذات الشمال على صوت مزمار يحمله درويش. وقف وتأملها من مسافة قريبة. كانت تتوسط مجموعة أفاع صغيرة. شدّ على عصاه، وتصور نفسه يرميها ليختبر ما إذا كانت سـ"تلقف ما يأفكون". كما فعل سيدنا موسى مع أفاعي سحرة فرعون. لاحظت عائشة توتره. فشددت على يده وسحبته إلى دائرة أخرى يرقص فيها رجل يلبس ملابس النساء.

قالت له: أكره الأفاعي...
قال: لأنك لا تعرفينها جيداً، فمنها ما هو أكرم من البشر.
وفي اليوم التالي، زارا الرباط، ومن المعجم وجد أن إسمها يعني ملجأ الفقراء الصوفيين، فأرجع الأمر إلى التقاء نهر وادي الرقراق بالمحيط الأطلسي على أطرافها، وفسّر وجود مقبرة كبيرة عند المصبّ على هذا الأساس. هناك حاول عبثاً أن يغفو

بعد أن استلقى على الرمل، بحثاً عن رؤية، لكنه شاهد بأمر عينيه نورساً يصطاد سمكة من الماء، فغافله نورس أكبر وسرقها منه. عائشة رأت المشهد أيضاً.
ولم يعد عامر إلى عمّان. كما كان. كما سافر منها. عاد وفي داخله تساؤل ظلّ يتكرّر هناك مطوّلاً: ما حكاية المغرب معي، وما حكايتي معه؟

٢

نهر أم بحر...
أنت يا نيل...

تأخذ شكل الأنهر، لكنك تضمّ بين ضفتيك مياهاً أكثر مما يجمعها محيط صغير، وتبدو هادئاً ناعماً سلساً من الخارج، وفي داخلك موجّ يطيح بحضارات ظنت نفسها خالدة إلى يوم الدين.

ماء أم بشر، أم صخر...
أنت يا نيل...

تتبخّر لتتربطب الأجواء من حولك، وتننفس فكان رئتيك وسعنا هواء العالم، وخطبك كنوز تبدو وكأنّ فيضائك حملها

معه فزرعها حولك هبة للناس. ورمزاً لانتصارك الهادي على من ظنوا. في لحظة. أنهم حققوا إنكسارك. وتغادر السفن الصغيرة القاهرة، دائماً، باتجاه المنبع، بحثاً عن الماضي. عن وادي الملوك. غير أن قاربي تركها ذلك الغروب باتجاه المصب. فقد كنت أبحث عن المستقبل. عن البرزخ...

كان القمر بديراً كاملاً. والنيل ناعماً سلساً. تنعكس عليه أنوار الطريق من الضفتين. وصورة القمر. وأضواء درب الحليب من السماء. وكانت معي عائشة...

كان علي أن أزور رشيد. فهي ملتقى النيل مع المتوسط. وممر البحريين هناك سيكون مختلفاً بالضرورة. فهذا نهر وهب الحياة لحضارة كاملة. وذلك بحر توسط الدنيا. وكان بإمكانني أن أصل بالسيارة. غير أن فكرة دخول الإنجليز إلى مصر من رشيد. بحراً. ودخولي أنا رشيد من مصر. نهراً. استحوذت علي.

وهناك سبب آخر:

فجون ليدارد من ولاية كونيتيكت. الذي يسجله التاريخ باعتباره أول أميركي يمشي بالقرب من العرب. خاض تلك التجربة العكسية. كان ذلك حين قبل عرضاً من جمعية لندن الأفريقية ليبحر في النيل من مصبه إلى منبعه في محاولة لاكتشاف وسط أفريقيا. وصل إلى الإسكندرية في العام ١٧٨٨. قبل سنة من تولي جورج واشنطن رئاسة أميركا. أبحر من رشيد. ولكنه وصل فقط إلى القاهرة. ومات هناك. ووصف النيل بأنه نهر ليس أكبر من نهر كونيتيكت. حتى في أنهرنا. بحسبنا الأميركيون...

ولم أكن في حالة تسمح لي بالحديث مع أحد. كنت أحداث نفسي. وكانت عائشة بصمتها المزمّن. وبطبعها الهادي. تحقّق لي ذلك الجو. ولم أسأل نفسي لماذا جئت بها من المغرب لتكون رفيقتي. وأظنّها لم تفعل كذلك. فقد كان صمتها من نوع خاص. يمتلئ بالحكمة والتصوّف. معها عرفت أهمية التقاء النهر بالبحر. ومنها أمسكت الحجر المطعم بالذهب. وهي التي سميتها عائشة البرية. تيمناً بعائشة البحرية. كنت أحياناً أسأل نفسي: كيف تنساق هذه التي لم أعرف عنها. أو تعرف عني. أكثر من السطح. لرغبتني المجنونة؟ كيف توافقني على السفر المرّجل لخوض تجربة نزقة خطرت على بالي فجأة. ولم يتطلّب مني اقناعها سوى مكالمة هاتفية؟ ولا أجد إجابة إلا أنّها تشعر بي. وتعرف عني. ولعلّ هذا هو سرّ صمتها الهادر...

إستلقيت على أرضية المركب. أتوسّد ساقي عائشة. وأراقب السماء. صوت المجذاف الرتيب. وهو يرتطم بالماء. كان يرسل لي إشارات ساحرة هادئة تدعو إلى السرحان. فالتأمل. وكانت يد عائشة تداعب شعري بنعومة. مثيرة في نفسي إحساساً بالنوم. أغمضت عيني. لكنني لم أتم. كنت أعيش لحظة ما بين النوم والإستيقاظ. لحظة ممثلة بالبياض الذي يفصل ما بين الحياة والموت. هل أنا في البرزخ؟ هل وصلت إلى تلك المنطقة التي تحدّث عنها كتاب الله: "ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون". وقال عنها علماء اللغة إنّها الحاجز بين شيئين. وما بين الموت والبعث؟

قبلتني عائشة على جبيني...
ومسحت وجهي بيدها...

وشهقت، وقالت: سبحان الله.

أتراها كانت تشعر مثلي؟ تعيش لحظة اللاحياة واللاموت. سوّيت نفسي، فجلست، أدارت رأسي تجاهها بيد حنونة، وتأملت وجهي، وقالت: قل لي كوني لي. قلت: كوني لي. وتعانقنا. كنّا قضينا عشر ساعات في المركب، لكنني شعرت بها وكأنّها لحظات قليلة. كنت أعيش ذلك التواصل الذي لا أفهمه، مع شيء لا أعرفه. كنت أشعر بتلك الشحنة التي تضيئ في قلبي نوراً، وتشعل في روحي ناراً. وتركني وكأنّني وجدت ضالتي، أحملها في يدي، ولكنني أتطلع إلى يدي فلا أرى إلّا الفراغ.

إنبعث صوت أذان رقيق من مسجد صغير، بعد أن أضيئت فيه شعلة، وسرعان ما تلوّن الفضاء البعيد بلون الزهر، فالجمر، فالجمر، فبدأ شجر النخيل على الضفتين وكأنّه مجموعة عصي غُرست في الأرض لتطاول السماء، وتذكّرت أنّ عصا موسى، كانت من عوسج، لها شعبتان، وفي رأسها محجن، وأنّها كانت من آس الجنة حملها آدم معه حين نزل إلى الأرض، فكانّ النخيل على الجانبين ذلك الأساس الذي يحمل السماء، يحمل الجنة. كأنّه يجلس تحت مائدة أساسها النخيل، وسطحها السماء...

كانت دقائق عجيبة تلك التي فصلت الليل عن النهار، هنا في رشيد، حيث تلتقي السماء مع الأرض، يلتقي الأبيض مع الأسود، والموت مع الحياة. هناك حيث تتوحّد الأشياء. رحلت في إغفاءة قصيرة، فرأيت نفسي سلطاناً مُحاطاً بالآلاف من الناس، وتأملت ملامحي فكانت تشكّل صورة قديمة

لعبد الناصر.

استيقظت على صوت موجة تختلط فيها عذوبة الماء بملوحتة، فتأملت عائشة. كانت تبدو مثال الرقة والرقى والجمال. عانقتها، وسألتها: هل رأيت شيئاً؟ قالت: رأيتك تطلق النار على النورس الكبير، الذي شاهدناه في الرباط.

٣

والعالم صغير فعلاً...

ليس أكبر من حارة، في قرية صغيرة...

ودريان مدينة جنوب أفريقية، تتذكّر شاكا زولو، الملك الذي جاء إلى الدنيا نتيجة تزواج صاعقة مع شجرة. هناك تكون اليابسة قد أنهت مساحة أكبر قارة في العالم، ويكون المحيط الهندي قد داعب أقدام الرمل الذي يمتد، تحت الماء، حتّى يصل إلى شواطئ ليما على المحيط الهادي..

قريباً جداً من هذا الرمل، والماء، غُرز مركز المؤتمرات الدولي، الأكبر في القارة، ليرمز إلى مرحلة جديدة من تعايش الأبيض مع الأسود، تعايش الشمال مع الجنوب، تعايش الشرق مع الغرب، وليؤكّد أنّ نضال وسجن مانديلا لم يكن عبثاً...

على أن المؤتمر كان مملأً، متلئاً بالخطابات، والشعارات، والكلمات المنشأة، يجمع بين منظمات غير حكومية من كل مكان في العالم، على أمل تشكيل تيار ثالث، يأخذ من الإشتراكية البائدة بعضها، ومن الرأسمالية الصاعدة بعضها، ويستثمر العولة، وكل ذلك على شكل سلطة فواكه...

مثل أكل الشحاذين...

من كل مائدة لُقمة...

كان عامر يتجول في الأروقة، حيث كل قضية تطرح نفسها على شكل لوحة، أو فيلم، أو معرض صغير للصور، ولم تصدق عيناه ما ترى: ماريا تتحاور مع مجموعة، فيعلو صوتها وينخفض، ترتدي اللّفة التي تمثل الحطة الفلسطينية، وخمل الهيئة نفسها، تلك التي تركها عليها قبل ربع قرن، مع قليل من آثار العمر التي لا بدّ منها...

الله يا دنيا، ما أغربك...

إقترب من المجموعة، مقابلاً وجهها، لم تلاحظه، إقترب أكثر، لم تلاحظه أيضاً، كانت تتحدث عن التشابه بين قضيتي جنوب أفريقيا وفلسطين، مشتبكة في حوار مع رجل أميركي، قال الأميركي: حتى لو كان الحق مع الفلسطينيين، فإنهم لا يساعدون أنفسهم بهذه الطريقة، لقد أصبحوا قتلة.

ردت ماريا بحدّة: أنظروا من يتحدث عن القتل، الذي يحتلّ العالم بدباباته، ويُطلق صواريخه على الشعوب، ويزود إسرائيل بالأسلحة، ولا يتعامل إلا مع الأنظمة التي تقتل شعوبها. أجاب الأميركي محتدّاً: هذا كلام ساذج، وأنا لا أستطيع

متابعة الحوار بهذه الطريقة. عندما تتعلمين أساسيات التحاور سنلتقي. وهمّ بالمغادرة.

تدخل عامر: أنت تهرب من الحوار، لأنك تعرف بداخلك أن كلامها صحيح.

ووضع يده في جيبه، فأخرج منها علبة سجائر، وحمل سيجارتين، قدّم واحدة منها لماريا. لم تنظر إليه إلا قليلاً، قالت: شكراً، أنا لا أدخن. والتفتت نحو الأميركي المتعبد، وفي فمها كلام يشبه الصراخ، لكنها عادت والتفتت نحو عامر، تقابلت عيونهما، صمتت، إبتسم، ثم افتعل محاولة إشعال سيجارته عبثاً، كان يتعمّد إطلاق شرارة الولاة دون نار، تأملته، تأملته أكثر، صرخت بصوت سمعته أفريقيا كلها: أنت! وكررتها عدّة مرّات: أنت، أنت، أنت! وتقدّمت نحوه وعانقته: عمّر، ما زلت حياً. ما زلت موجوداً على الأرض؟

سحبته من يده إلى طرف الرواق، جلسا على الأرض، تأملها، لم تتغيّر، لا لم تتغيّر كثيراً، فقد وصلت آثار العمر إلى عينيها فبدأ حولهما قليل من التجاعيد، لكنّ البريق ما زال كما هو وما زالت تتحدّث العربية بالطريقة نفسها.

قال لها: عامر، يا ماريا، وليس عمر.

وأضاف: لم تتغيّري، ما زلت كما تركتك.

مرّرت يدها على وجهه، وردت: لكنك تغيّرت كثيراً، ولولا تلك النظرة المميّزة، والسيجارة لما عرفتك، لقد كبرت، لا لم تك تبدو ناضجاً أكثر، تغيّرت، حدّثني يا عامر، حدّثني كثيراً... وحدّثها عامر، عن السخنة، واللوبيدة، وبيروت، وعمّان، وحدّ

أكثر عن: كتاباته، قراءاته، نسائه، فرجه غير المكتمل، وحزنه الناقص. وأكثر وأكثر: روحانيته، وتصوفه بطريقته الخاصة، والأنهر والبحار، وأزمور، ورشيد، وأكثر وأكثر وأكثر: الظلم المعولم الذي لا تردّه سوى الأحداث الكبيرة، التي تصفع العالم في وجهه، لتذكّره بحقيقته، عن الظروف الموضوعية التي تناسب تلك الأحداث...

وحدثته ماريا عن ربع قرن من الفشل. موسكو، برلين الشرقية، براغ، بادر ماينهوف، هافانا. إختطاف شخصية ثرية في باريس، لتمويل عملية فدائية تفشل دائماً. رهائن مغلوب على أمرهم، نندم دوماً على المقتولين منهم، ونندم أيضاً على عدم قتلنا الأحياء منهم. وأكثر: عن تجربة وقوف مع النفس، ومحاولة أخرى مع زواج فاشل، وثالثة مع العمل مع الناس، فقد يأتي التغيير في العالم من حصيلة عمل النشاط في مجتمعاتهم: كانت أسست في ليما منظمة غير حكومية لمحاربة المخدرات، لكنّ الحرب التي ظننتها صغيرة، كانت أكبر مما تصوّرت، فالسياسة أيضاً تقابلنا في كلّ مكان.

وحدثته عنه: لم تغب عن بالي يا عامر، ولم يغب عن بالي البحر الميت. كنت أتذكّر حواراتنا دائماً حول النجوم ودرب التبانة والفراعنة والأساطير الأميركية الجنوبية. في يوم ذهبت إلى موتشو بيتشو، إلى البحيرة التي تعتلي أقرب نقطة أرضية إلى السماء، ثلاثة آلاف متر فوق سطح البحر، فتذكّرت أبعد بحيرة عن السماء: البحر الميت، خمسمائة متر تحته، وتأملت السماء، والنجوم ودرب التبانة. هناك أيضاً يبدو المنظر مدهشاً، تماماً كما

يبدو عندكم. ولا خاول أن تقنعني بما أنا مقتنعة به أصلاً، فلو تمدّدت على ظهرك في موتشو بيتشو، وتأملت السماء، لأنك إشارات روحانية أيضاً. حدث هذا معي، ولن تصدّق أنني رأيتك هناك تكتب رواية. لست أبالغ، عليك أن تقرأ كتاب شيرلي ماكلين الممثلة الأميركية الشهيرة، وما حدث لها هناك، فقد رأيت في ذلك الموقع ما حصل لها فعلاً بعدها...

وفاجأته: قصّة موتشو بيتشو أقرب ما تكون إلى قصّتك مع البتراء، ليس بعيداً كثيراً عن البحر الميت، ونهر الأردن، فقد ظلت مفقودة، إلى أن وصل إليها المكتشف الأميركي حيرام بن غام، في العام ١٩١١، فارتسمت على عيونه الدهشة، تماماً كما حصل لبيركهارت عندما إكتشف البتراء، والمفارقة الأخرى هي في إسم المكتشف، فحيرام هو إسم ملك صور في العهد القديم، الذي ساعد في بناء هيكل سليمان، وبين هي ابن بالضرورة، وغام ليست مفهومة، ولكنها قد تكون اسماً عربياً قديماً. وتظنّ هناك مفارقة أخيرة هي الأنباط الذين لا تعرفون لهم مصيراً مع أنكم تشاهدون آثارهم، والإنكا الذين لا نعرف مصيرهم، مع أننا نشاهد آثارهم. تسحرني فكرة أن هناك مدناً تمتلك أمرها، وترتدّ إلى نفسها حين تريد، فتغلق على نفسها الأبواب، وتفتحها حين تريد...

كان كلامها ساحراً، ويعطيه إشارات جديدة. لمعت في ذهنه فكرة مجنونة، قال لها: هل لديك مواعيد مهمّة؟ قالت: ليس أهمّ منك، في كلّ الأحوال. قال: إذن سنخوض التجربة معاً.

...وليس بعيداً. كثيراً. عن رأس الرجاء الصالح. تختلط مياه الأطلسي والهندي. في لقاء أكبر ماء مع أكبر ماء. وهناك. على صخرة مُشرفة على المشهد المدهش. كان عامر وماريا يتأملان الخيط الفاصل بين المائين. فيبدو الأزرق على اليمين أفتح من ذلك على اليسار. في ظاهرة عَصَبَة على التفسير...

قالت ماريا: ما أجمل الطبيعة. التي تصدمننا بغموضها.

ردّ عامر: بل قلّ لي سبحان الله. الذي يدهشنا بوضوحه.

إفتعدا الأرض. ثمّ مدّ جسمه. فاتخذ ساقبها وسادة. وأغمض عينيه. أخذت تداعب شعره. ذهب إلى ما يشبه الإغفاءة القصيرة. فرأى البياض الفاصل بين الحياة والموت. إختلاط الأسود مع الأبيض. وعاش اللحظة الواصلة. الفاصلة. بين الموت والبعث. ونام.

إستيقظ على صوت خفقان أجنحة سرب من النوارس. كان الأفق يحمل لون الغروب. وكانت ماريا نائمة. أخرج علبة سجائره. وأشعل واحدة. إستيقظت. أخذت السجارة من يد عامر. وسحبت منها نفساً بحرقه من يعود إلى الجنّة. ونفثته بما يشبه التأوه. سألته: ماذا شعرت؟

حدّثها. ثمّ سألها: وأنت؟

قالت: رأيتك تكتب رواية تغيّر وجه العالم...

عانقها. قبلها بحرارة. إشتّم فيها رائحة معتقة منذ ربع قرن. تحرّكت في جسده غريزة. فاشتتهى تلك الساعات التي قضّاها في الكهف المالح. والأشكال الهندسية. وشعر بغريزتها تشتهيّه. لكنّه كبّح نفسه. ووجد نفسه يقول لها: لست ماريا.

أنت لي منذ اليوم مريم.

فهمت. فلم تناقش. وعاشا أسبوعاً كاملاً في حديث بوح لا ينتهي. يقترب من الحب. لكنّه ليس هو. ويقترب أكثر من الصداقة. ولكنها ليست هي أيضاً. في المطار. كان وداعهما هذه المرّة حارّاً. بكّت على كتفه. وبكى على خدّها. وتواعدا على لقاء. وعلى التراسل اليومي...

وصلته أول رسالة.

"عامر. يا عامر..."

تعال معي لأدعوك إلى شرب كأس...

ستشرب أنت الويسكي. وأنا البيرة. سنتحدّث عنك وأنت

تسبح عارياً في البحر الميت. وأنا عن نفسي حين اختطفني تاجر مخدرات في ليما. سنضحك كثيراً. ونرقص أكثر. وكأنّه ليس

هناك من غد. وسنعود إلى الفندق. عبر الشوارع الخالية. ونحن

نحاول عدم الوقوع إلى الأرض. ماسكين بعيوننا النجوم

الصغيرة. ونمشي ونمشي ونحن نعرف أنّ هناك دائرة ستظلّ

مفتوحة أمامنا. في علاقتنا. تنتظر دوماً اكتشافاً جديداً.

وسوف أضحك على قصصك حول باقة الزهور التي ذهبت إلى

الفتاة الخطأ ذلك الصباح. وعلى محاولتك إقناعي بأنّ قدمي

جميلة. ولكنها ستكون أجمل إذا طليت أظافري بالأحمر. أحمر

يا عامر؟! وسوف أقول بنبرة صوتي المشابهة لزجيرة دكتاتور

أشياء يمكن أن تعبّر عنها بابتسامتك الساخرة. وأنت ترتشف

من كأسك وتنتظر بعيداً. وسوف تقول حين ندخل إلى البار الذي

تعودنا عليه: جميلة هي العودة إلى المنزل. وستمسك يدي

لأشعر كم هي دافئة وناعمة مقارنة بيدي. وستذهب للجلوس في آخر مقاعد الحافلة، ثم تدعوني إلى مجالسك لمشاهدة الغروب ينعكس على الينابيع. وستحدث عن الفكرة المجنونة في السفر إلى موتشو بيتشو في اليوم التالي، لنكتشف أننا لا نملك كفايتنا من الجنون فننقذ الفكرة. وستكتب شعراً على ورق المائدة ما يشعرنى بالدهشة حول شخص ناقص بيننا، ثم تعود عن فكرتك بعد كأسين، فتكتب عن قبلتنا الأولى، هناك على شاطئ البحر الميت، وستقبلني بعدها وكأننا لن نحصل على فرصة أخرى. وسنجلس على شاطئ المحيط الهندي، فأشعر بالبرد، لتلبسني معطفك، وتدور في رأسي دوائر الكحول. فأستغرق في السماء الملاء بالغيوم البعيدة، وأشاهد فيها أشكالاً وخرائط، وحين تبتعد غيومي فتظهر جمة تأخذ في الحديث عن درب الحبيب. وستقسم لي بأنك لن تنظر إليّ وأنا أقضي حاجتي تحت جسر على الشاطئ، لكنني أفاجئك باختلاس النظر، فأراك تتطلع بإجهاى، فنضحك ونضحك حتى تضع منى العدسات اللاصقة، التي طلبت مني قبل قليل خلعه لتغرق بعيوني. وستسرق لي وردة من حديقة أمامية لبناية حكومية يحرسها شرطى، فأضعها في جيبى لأكتشفها في ليما ما زالت تحتفظ برائحة ساحرة. وسنلتقي في غرفتي، فأنام، وتركني دون أن تطفئ النور، وستكون في الصباح غاضباً، فأداعب شعرك وأحضر لك القهوة والعصير وبيضتين مقلبتين على شكل عينين، فترضى وتبتسم، وتفاجئني بحجرين أملسين أسودين أحضرتهم من الشاطئ،

في الليلة الماضية، فتعطيني واحداً وتحتفظ بالآخر لجلب الحظ. وستبدو دائماً نافذ الصبر، عجولاً، تطالبني بأشياء، وتواصل إقناعي، ولما أصل إلى قناعة تننصل، وتبتعد. عامر... لقد فكرت بمسألة سفرك إلى ليما، ولقائي في بلدي، ووصلت إلى قناعة أنه من الأفضل أن لا تقوم بهذه المغامرة العبيثة، فلك حياتك ولي حياتي، وأفضل أن يظل لقاءنا في مكان محايد. هناك سأكون مجنونة أكثر، ولا تنس ما قاله شيكسبير حول الكلمات... كلمات كلمات كلمات!" وردة عليها برسالة:

"مرم، يا مرم...

فلن تصدقي هذه الحكاية، ولكنها حصلت معي بالأمس، وقد تساعديني على تفسيرها. كنت مدعواً على العشاء، مع بعض المعارف، ومرّ عليّ صديق شاعر ليصطحبني بسيارته إلى المطعم. في الطريق جاءه اتصال هاتفي من صديقة له، فنانة تشكيلية إفتحت مؤخراً غاليري. فاعتذر لها بأنه لا يستطيع المرور عليها لسبب العشاء، وقال لها معي عامر الذيب، ولم أسمع ردها، لكن ضحكة صديقي وقوله لها: عليك أن تقولي له هذا بنفسك، أثار فضولي. وانتهت المكالمة.

قال صديقي: هل تعرف غالبية الحائمي، الفنانة التشكيلية؟ أجبت بأنني أسمع عنها، ولكنني لا أعرفها شخصياً. قال: ولكنها تعرفك، وقد أخبرتني أن هناك قصة ما تتعلق بك؟ رددت: لا أعرف، وقد أعرفها حين أراها، لست أتذكر بأنني التقيت بها. وقد أثار الأمر فضولي كثيراً، وحين تلقينا اتصالاً هاتفياً بأن

العشاء تأخر قليلاً. واقترح صديقي أن نمرّ لزيارة الغالييري لشرب قهوة. وافقت فوراً. دخلنا. اللوحات تبدو مثيرة. والمكان مريح. والفنانة صبيّة. ووجهها مألوف. لكنني متأكد من أنني لم ألتق بها من قبل. قال صديقي: هذا هو عامر الذيب. فما هي القصة؟ ردتّ بأنّها سخيّة. وحين تتذكّرها مع صديقة لها لا تكفّان عن الضحك. زاد فضولي أكثر. سألتها: وما هي القصة. وهل أعرف أنا صديقتك؟ ردتّ: بالتأكيد لا. لا تعرفها! وبدأت تحكي:

صديقة عمرها. ولم تذكر اسمها. كانت خلم دائماً منذ سنوات الدراسة الإعدادية بأنّ هناك شخصاً اسمه عامر الذيب يأتبها في الحلم. وتعلّقت به إلى درجة أنّهما دخلا في قصة حب. وظلّ ذلك الحلم يتكرّر حتّى سنوات قريبة. سألتها: وما هو اسم صديقتك؟ قالت: نسرين...

ودون تخطيط. وبغفوية مطلقة. قلت: وهل عيناها خضراوان. وشعرها يميل إلى الأشقر؟ قالت: نعم. واستدركت: ولكنني متأكّدة من أنّك لا تعرفها. كنت أصف لها نسرين التي كتبت عنها صفحات في الرواية. وكانت هي تصف لي نسرين صديقة عمرها. وكنا وكأنا نتحدّث عن فتاة واحدة. المهم. أنّ الأحلام ظلّت تسيطر على صديقتها إلى درجة أنّهما سألتنا عن شخص اسمه عامر لذيب. وعرفنا مكان بيتي. ودلّتني على بيت كنت اسكنه فعلاً... وقد عرفت أنّ أحلامها بدأت قبل أن أكتب في الصحف.

ليكون إسمي معروفاً بشكل أو بآخر. وعرفت أن إسم الفتاة نسرين الشال. ولست أعرف ما اذا كان الشال إسم عائلتها أو عائلة زوجها...

وكان علينا أن نغادر إلى العشاء. ففعلنا. ولكنّ القصة ما زالت تستحوذ تفكيري منذ الأمس. وأحار في تفسيرها. كما أحار كثيراً في تفسير الكثير من الأمور. ومنها قصتي معك... فهذه حكاية أخرى...

إذن. يا مريم. فأنا المخطئ في أنني أردت قطع البحار القديمة. والمحيط الأطلسي الذي كانوا يسمّونه بحر الظلمات. لأصل إلى العالم الجديد. ولسبب واحد وحيد هو رؤيتك والحديث معك ليومين أو ثلاثة. ولأعيش تجربة موتشو بيتشو؟ إسمعيني جيداً...

واسمحي لي أن أحشر نفسي في رواية لم أكتبها بعد. فأقول: إنني أزور النساء في أحلامهن. بحثاً عنهن. لأعرفهن أكثر. وأزيد بالقول إنّ نسرين كانت واحدة منهن. نسرين التي كانت على الورق والتي عرفتها جيداً. ونسرين التي لا أعرف عنها سوى إنّها حلمت بي. وظلّت خلم إلى أن وجدت في الواقع عامراً آخر...

هل تروق لك هذه الفكرة؟

قد تروق لك هذه أكثر. وهي من الواقع. ومن الورق أيضاً. لقد سميتك غير مرّة مريم. فهل كنت أبحث عندك عن تلك التي تحمل الروح العظيمة التي تشاركني جسدي. ولست أقول جسدي بالمعنى المبتذل السوقي. فللجسد بيننا حكاية أخرى.

بدأت ليلة الكهف العتيق، فبدت وكأنّ باب الجنة فُتح لي فجأة ليقول لي: هذه هي الجنة، ولكنه أغلق فجأة أيضاً. أقول إنّ حكاية الروح والجسد غير المكتملة، وبالظروف التي تعرفين، ظلت تمثل لي الدائرة المفتوحة، والتي ينبغي أن تُغلق كما قلت لك مراراً، وحتى لا تفهميني خطأ، فأنا هنا لا أأخذ عن التزامات معينة، فلك حياتك ولي حياتي، ولك علاقاتك ولي علاقاتي، ولكنّ لنا شيئاً مشتركاً أيضاً يمكن أن يحمل شكل واسم علاقة من نوع جديد مبتكر، وهذا ما نتركه للأيام التي قد تثبت أنّنا عشنا في غيمة لمدة ثلاثة أسابيع، في البحر الميت، وفي غيمة أخرى لمدة أسبوع في ديربان، أو تفيد بأنّ هناك ما هو جدير بالمتابعة، وفي كلّ الأحوال فسنبقى أصدقاء بالضرورة، نتشارك بعض الافكار، ونتصارح بشكل أقرب الى البوح...

وسأذكرك أكثر، وقد يكون لقصتنا بقيّة تكتبها الأيام المشتركة، وقد لا تكون، وفي كلّ الأحوال، فسنبتقي مريم التي خفق لها قلبي، وما زال..."

وردت ماريا:

"عامر، يا عامر..."

سحرتني فكرة أنّك تزور النساء في أحلامهن، وسمحت لنفسي أن أقرأ فكرتك على صديقتي، وقالت لي إحداهن في اليوم التالي إنّك زرتها في حلمها. لست أعرف ما إذا كانت صادقة، ولكنّ هذا يعني أنّها أعجبت بالفكرة. تصوّر أنّك تسكن في أحلام الجميلات في أميركا اللاتينية، هل جرى ذلك معك فعلاً، أم أنّه فصل من رواية تكتبها؟

على آية حال، فسوف أثير فضولك، وغرورك، بحقيقة تاريخية قرأتها بالأمس، فأنا أفكر دائماً بذلك البرزخ الذي يستحوذ على تفكيرك، وسوف تفرح على الكلام الذي سأقوله لك، مع أنّي لست مقتنعة به تماماً، رغم كلّ الدلالات التي شاهدها بنفسي.

كنت أنصفّح دراسة عن تاريخ أميركا اللاتينية، فوجدت التالي: سكّنت دهشة مصحوبة بالهذيان نفس كريستوف كولومبوس أمام أميركا الجميلة، وذلك حين كان يقترب من مصبّ نهر الأورينوكو، فاعتقد أنّه يكتشف أحد الانهار التي تنبع من الفردوس، فهل كان في البرزخ الذي تتحدّث عنه، والذي رأيته سويا في جنوب افريقيا.

إسمع هذه أيضاً: نحن في أميركا اللاتينية لا ننتمي في الجغرافيا الى وحدة مع أميركا الشمالية، لا هذا خطأ شائع. فقد كنّا نتوحّد مع افريقيا في قارة واحدة، ففصلنا حدث مجهول، بنباتاتنا وحيواناتنا، بدون الانسان، الذي جلب بعدها على شكل العبيد...

واسمع أكثر نبوءة هيغل، قبل نحو مئتي سنة، قال: أميركا إذن هي أرض المستقبل، وسوف يتكشف في العصور المقبلة شأنها التاريخي، وربما كان ذلك على شكل نزاع بين أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية.

ولدي تساؤل، فأنت تقول عن البرزخ أنّه بين ماء فرات وماء مالح، ولكن ما شاهدنا في جنوب افريقيا هو لقاء ماء مالح بماء مالح؟...

ردّ عامر برسالة قصيرة جداً:

"مرم، يا مرم..."

هناك آية أخرى في القرآن تقول: مرج البحرين يلتقيان
بينهما برزخ لا يبغيان فبأي آلاء ربكما تكذبان...

أي أن هناك برزخاً أيضاً بين الماءين. ولكنه سيكون مختلفاً
وتبادلاً الكثير من الرسائل. لكنّ عامر كان يكتب لنفسه. لا
لماريا. وهذا ما كانت تعرفه تماماً. كتب لها آخر رسالة
يسألها: "ألا تشتاقيين لأيام السلاح... إلى تحرير العالم؟" ردّت
ماريا: "تلك أيام ذهبت بلا عودة. فتحرير العالم لن يكون
بالسلاح".

وفي زحمة الأشياء، ضاعت ماريا من حياة عامر...

٤

عراق. يا عراق...

يا أرضاً لم تسترح منذ تدرج عليها رأس الحسين. وشعباً لم
يرض منذ إنتظر عودة الرأس إلى مكانه. ولو على جسد
مختلف. وروحاً لم تستكن منذ وصلتها دعوة الحميمة وأعلام
سود خراسانية.

ويا شطّ العرب...

يا ملتقى المئات الهادرة والرائقة العذبة والمائجة المألحة في
بقعة تحمل شكلي الصحراء والخضراء معاً. ويا برزخاً مفتوحاً
على آخره على السماء. والفضاء. والكتب. والحريق. والفناء
المؤقت...

الطريق إلى بغداد. هذه المرّة. كانت مختلفة. تعود عامر أن
يصل إليها جوّاً. لكنّ الحصار كان يأكل كلّ شيء في طريقه. من
المطار حتّى الصغار. والطريق البرية الصغيرة التي صوّر عامر
كلّ تعرجاتها. كما كانت في بداية الأربعينيات. في روايته غير
المكتملة. صارت واسعة وتليق بمطار. لتسع كلّ هؤلاء الناس
المسافرين. ولكنها كانت حزينة. كان دوماً يحمل للعراقيين
تقديراً خاصاً. ولا يتذكّر موقفاً لعراقي ذلّت فيه نفسه. أو تنازل
عن كرامته. وتعمّمت هذه الصورة في نفسه على كلّ
العراقيين. لكنّهم هنا. على هذه الطريق. يبدون مكسورين. عزّة
النفس. والكرامة. كما هما دائماً. لكنّهما يحملان الآن شكلاً
مختلفاً. يدعو إلى الحزن.

وبغداد. أيضاً. كانت مختلفة. فالفنادق ذات الخمس نجومات
صارت مهلهلة. وسهرات شارع أبي نواس باتت ممّلة مفتعلة.
حتّى المسكوف. الأكلة العراقية التي طال ما سحرته بطريقة
إعدادها. كانت هذه المرّة باهتة. تصوّر السمكة النهرية المفتوحة
أمامه لتُشوى بالخطب كلّ العراقيين أمام النار الأميركية...

وفي غُرْفته. في الفندق. كان يشرب وحده. تماماً كما فعل
قبل سنوات. شرب وشرب. أمسك بقلم. وأخذ يكتب رسال
لزميل له كان وجّه إليه رسالة من المكان نفسه. فنشره

زميله، مرفقة برّد. كان ذلك قبل الحرب بقليل.

كتب:

صديقي العزيز:

فقد أخذتني أيام، وشهور، وسنوات، لأردّ على رسالتك الأخيرة. وأنت تعشق الرسائل. إعرف أنك تعتبرها فناً أدبياً إبتدعته العرب، لا العربان الذين باتوا يتناولون على الغربان في سوادهم. وأعرف أنّ الرسالة عندك زمان ومكان. وبعدها فهي تسجيل للحظة، ولحظتنا في زماننا ومكاننا حاسمة، وسكينة...

ورسالتك الأخيرة، كانت معلنة...

أما رسالتي الأخيرة، فقد كتبتها اليك من بغداد، التي كانت تعيش لحظة الوهم المغلفة بالإنحصار، قبيل دخولنا إلى حالة الأسر بقليل، فقد كانت غير مكتملة، تُحاصرني فيها زجاجة ويسكي في فندق حمل أهمّ اسم عربي في التاريخ، بعد محمّد: الرشيد، ولحى تناولت حتى السماء، وتدانت حتى الأرض، ومفارقتي التي كتبتها لك يومها أنّنا كنّا إثنين لم نطلق لحانا؛ وزير الاوقاف العراقي، وأنا! فقد كان المؤتمر الذي أحضره حافلاً بالاتجاهات الاسلامية المنافقة، تلك التي وعدت العراق بالوقوف معه، فتخلّت عنه في أوّل لحظة.

وتلك قصّة أخرى...

تلك رسالة لم تكتمل بعد...

فيا صديقي...

لست أملك إلاّ الذاكرة، وهذه لا تعود بي، هذه اللحظة، إلاّ

إلى ذلك الشارع الذي يحاذي مخفر صوبلج، لتحنني الطريق يميناّ ذاهبة إلى الشمال، حيث مخيم البقعة هو البداية، فجرش قدمشق، ومنها تستطيع أن تصل الى القطب الأبرد، عند المنحنى. وبالقرب من الخفر كانت دمعائنا تكاد تصل الى أرض السيارة، وغضبنا يطاول السماء، فقد استمعنا إلى خطاب الهزيمة في الخليج، وكان معنا صديق، وكنّا متوجّهين إلى دفن صديق آخر ميّت فشعرنا بأننا ندفن وطناً، وقال صديقنا المرافق كلاماً فهمت منه سعادته فأسكته، وسكتنا، فقد بكينا، وسكتنا، أنت وأنا، لأنّ سقوط الخليج كان يعني أنّ فلسطين صارت أبعد، وأنّ الحاضرات يدعي ملكيته بسطار يهودي أميركي.

وتواصل بي الذاكرة، فأصل إلى يوم جرأت فيه الجردان على الصقور، وظنّ فيه الباشق نفسه نسرّاً، والفار تدهنّ حتى ظنّ نفسه أسداً، وإختلطت الصورة على الضبع هل يميل يميناّ فيصبح ذكراً، أم يميل يساراً فيتلقّف الذكورة شغفاً وشبقاً، وفي الأحوال كلّها فهو ضبع لا يأكل إلاّ من فتات موائد الأسود، ولن يؤكل إلاّ منهم، لكنّ الدنيا خلت منهم، ولم يعودوا موجودين سوى في حدائق الحيوان...

فهي الذاكرة، إذن...

التي تأخذنا يميناّ ويساراً، وتعيدنا وتستعيدنا، ونحن منها ولها وفيها، وتعطينا العبرة وتوصل إلينا الرسالة، والتي أستحضر منها الآن ليلة بكيت فيها على المقبل من الأيام، وها أنا أبكي الآن الأيام التي أقبلت، في المكان نفسه، وعلى الواقع

نفسه. فمتى يا صديقي ستحتلنا روح الكرامة، كرامة الدنيا التي نصنعها نحن، وكرامات الله التي بغيرها لا تنتظم الأمور؟ أخوك عامر

وفي بغداد كانت وفاء سمس رفاقته، صحافية، محجبة، أجرت معه مقابلة صحافية، فصارت صديقة. حدثته عن ثلاثة إخوة شهداء في حربين، ووالد توفي حسرة، ووالدة تجاوز مقام عبد القادر الجيلاني، أغلب النهار، وبعض الليل، تسأله شفاعته عند الرسول صلوات الله عليه، ليكون مأواهم الجنة. وعند ذلك المقام بدأت جولته في بغداد، فوجئ بعدد الجنازات التي تزور المقام، ثم تنتقل إلى مسجد الغزالي للصلاة على الميت. كان الحزن يلف بغداد من قلبها إلى قلبها، والغضب يسكنها من الوريد إلى الوريد، وكان دجلة يبدو وكأنه نهر من دمع مختلط بدم وقبح. أخذته إلى ملجأ العامرية. كان هناك عازف عود عراقي بقتعة قطعة إسمنتية سلخت من الملجأ الذي دمره صاروخان أميركيان، وحوله مجموعة من النساء يستمعن إلى اللحن الحزين، وهن يحملن الشمع. رائحة الموت زكمت أنفه، ومشهد الدمار الذي يستغرق طوابق تحت الأرض إستحوذت على عينيه، وبكى.

وفي شارع الرشيد كان يراقب أثار الحصار على الحياة العادية، السيارات التي لم تصلح أجزاؤها المخطمة، فمنها ما يسير بلا زجاج، ومنها ما خلع بابه، ولم ير سيارة كاملة. هناك كان يتأمل وجوه الناس فيعرف حجم الحزن في عيونهم، وفي طريقة حديثهم. إشتري عباءة مذهبة، وأهدى وفاء خاتماً ذهبياً.

وسافرا إلى شط العرب، لم يقل لها شيئاً عن تجاربه المائية. عن البرازخ، وعند التقاء دجلة بالفرات، وقف يتأمل الماء المنساب بحزن. لم يحاول الإغفاء، كان يرى في الماء حريقاً مشتعلًا دون نهاية، وهو في منتصفه لا يحاول إطفاءه. مشهد الآلاف من شجر النخيل المحروق، الذي بدا كعصي سوداء مزروعة في الرمل، كان يعطي لرؤيته شكل الحقيقة.

خلعت وفاء فلادتها، ونزعت منها قطعة فضية مدورة، وأعطتها لعامر. قالت له: هذه هديتي لك. تأملها.

كانت تحمل كلمات تقول: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً. وسارت السيارة بهما مُحاذين شط العرب. كان مشهد غابات النخل المقطوع الرأس، الأسود الجذوع، الواقف على الرمال، والذي تواصل طوال الطريق، يكون في ذهنه مشهد رأس الحسين الذي قطع في مكان قريب من هنا. فصار رمزاً للثورة التي لم تنته بعد...

وعند الفاو، حيث التقاء الإلتقاء. حيث دجلة والفرات يلتقيان مع الخليج، كان يعيش حزناً آخر، وتسكن أذنيه صوت زوبعة، وتغلق عينيه رمالها. شاهد آثار حربين، واشتتم أنفه رائحة الموتى، ودون إغفاء أيضاً، تطلع إلى البرزخ فرأى نفسه داخل حريق ضخم، لا تمسه نار فصارت عليه برداً وسلاماً. كانت حوله ملايين الكتب تحترق.

٥

التلحمي...

بيدو، هذه الأيام، إسماً غريباً...

لكنه لم يكن كذلك في ذلك الزمان، فقد كان الشباب يحملون أسماء حركية، تفتنوا في انتقائها، ليس هروباً من الأسماء الحقيقية، أو إمعاناً في التنكر وإخفاء الشخصية، فحسب، ولكن أيضاً لإقناع أنفسهم بحجم المسؤولية التاريخية التي ظنوا أنهم يحملونها على أكتافهم الطرية. كان الوهم يتشكل على هيئة إسم، وزيّ مبرقع الألوان، ولحية. هناك من سمى نفسه ماركس، وغيره كاسترو، وثالث لومومبا، ورابع لينين، وخامس ماو، وسادس أبو ذر، وسابع غيفارا، مثل عامر. وهناك من بالغوا في الوصف فاستخدموا أسماء مثل: أبو نضال، أو أبو كفاح، أو أبو حديد، أو أبو غضب. وهناك من أطلقوا على أنفسهم أسماء الأسلحة، مثل: آر بي جي، كلاشينكوف، سيمينوف، كارلو، سميث، بورسعيد، ودوشكا...

الرفيقات، أيضاً، كنّ يحملن أسماء حركية، فهناك خولة، روزا لوكسمبورغ، جان دارك، يافا، فلسطين.

واصل عامر:

أما الملتحي، فقد اكتفى بالتلحمي، نسبة إلى بلدته بيت

لحم، وقد عرفته منذ تعرّفت عليه بهذا الإسم، وحين التقينته بعد ربع قرن، كان يحمل الإسم نفسه...

كنّا افترقنا في عمّان، ولم نلتق في بيروت، مع أنّنا كنّا هناك في وقت واحد. ذهب هو إلى المعسكرات في الجنوب، ورحلت أنا إلى الكتابة. سمعت بعد أشهر أنّه سافر إلى الصين، في دورة عسكرية، وسرعان ما انقطعت أخباره.

وفي عمّان التقينا، كنّت ما زلت في نظره ذلك الشاب البدوي السارح في جبل نبو، وكان ما زال عندي الثائر الذي يحمل شكل المسيح، لكنّ الدنيا كانت رسمت على وجهينا أشكالاً جديدة، وسطر قلمها في كتاب أرواحنا حقائق أخرى. كنّا شخصين مختلفين، إلّا قليلاً... إلّا تلك الروح الباحثة..

تنقّل في الصين من معسكر إلى آخر، فتعلّم على استخدام الأسلحة الصينية الثقيلة: الدبابات والصواريخ المتوسطة المدى. كانت الثورة الفلسطينية بدأت تمارس دور الدولة في الجنوب اللبناني، على أنّه تعرّف في معسكر على فتاة صينية، أحبّها، ثمّ تزوّجها، وتعلّم اللغة فصار يتحدثها بطلاقة، ولم ينقصه سوى شكل العينين، لتقول إنه عاش عمره مجاوراً لسور الصين العظيم.

هناك، وعلى مدار ربع قرن، وقليل، تفرّغ للزراعة، ولتشذيب نفسه على طريقة روحية نادرة، تستند إلى مقاربات قديمة فتمتزج فيها البوذية بالصوفية الإسلامية بالمسيحية بالمانوية، ولنوع ممنوع دولياً من رياضة الدفاع عن النفس. كان عضواً في

مجموعة لا يزيد مريدوها على حجم سكان قرية صغيرة، يرأسهم والد زوجة التلحمي، ويأخذ عندهم مقام الشيخ. كانوا يعيشون عند قمة جبل شيندو المقدس، إلى جانب ما صار جامعة تدرس المعالجة بالإبر والأعشاب، وصار التلحمي خبيراً في هذا كله. لكن كل تلك الخبرة، التي نفعت مع الآلاف، فأعادتهم إلى صحتهم، لم تنفعه مع زوجته التي فاجأها المرض العضال. فأخذ منها جسدها، ولم يستطع أن يقترب من روحها، التي استقرت في جسد آخر في نيو، كما أنبأته بذلك النجوم، ولهذا عاد إلينا، عاد إلى عمان...

باحثاً عنها...

في واحدة أخرى...

ووعدني عامر أن يعرفني على الملتي، غير أنه لم يفعل، لكنني أكاد أقول إنني تعرّفت عليه من كلامه. كان يعتبره بطلاً ومونجاً، وقد لاحظت بنفسني أثره عليه. صار يتحدث عن أسلوبه في ممارسة التأمل، وبالتالي التوحد مع نفسه، والإنسلاخ عن المكان والزمان، أو السفر والإلتقاء مع روح أخرى، في مكان آخر. كان يقول إنه يلتقي مع زوجته في الروح، ويبحث عنها في الجسد. ودخل عامر في مرحلة الملتي الصينية. تعلّم منه الكثير من طريقته، وقال إنه صار يستطيع التوحد مع ذاته، باسترخاء يبعث خلاله لأعضاء جسده، واحداً واحداً، إشارات عقلية، تبدأ بطرف أصابع قدميه، وتتواصل صعوداً فتتجاوز القلب، لتصل إلى الفم فالأنف فالعين فالأذن، لتتوقف عن الإحساس العادي، ويعود إلى القلب فيأمره بإبطاء العمل حتى

عشر دقائق في الدقيقة. بات يستطيع الذهاب إلى سبات وهو يقظان، ولا يحتاج من النوم في اليوم سوى لحظات قليلة، في رياضة روحية لا يعرفها إلا القليلون... وتعلّم منه رياضته الجسدية، أيضاً...

كان يخرج من بيته قبل ذهاب نجم سهيل، بعد أن يشرب كوب حليب طازج، مُزجت فيه بيضتان نيئتان، يأخذهما من تحت دجاجات وضعها على سطح بيته خصيصاً لتلك الغاية. يركض مسافة خمسة كيلومترات، ويعود ليجد التلحمي بانتظاره، يبدأ هذا بتدريبه: شهرين لتقوية جسده، ثم ثلاثة لتليين مفاصله، وستة لتعلّم سرعة ردّ الفعل بمعرفة طريقة تصرّف الخصم قبل حركته، وستة للقتال الحقيقي. بعدها كان عامر آلة دمار حقيقية. أراني، مرة، قدرة أصابعه على ليّ قطعة نقود معدنية، ومرة ثانية وضعه يده على الجمر مدة خمس دقائق، وأثار حيرتي حين ابتعد عن حائط غرفة مترين، ثم وبسرعة فائقة ركض باتجاهه، فوضع رجله اليمنى عليه، فاليسرى، فاليمنى أيضاً، ليصل وكأنه يمشي سريعاً حتى سطح الغرفة، وعاد إلى مكانه قفزاً، وكلّ ذلك في لحظات قليلة.

وفي الربيع، كانا يذهبان إلى الجبال، يستخرجان من بين الصخور والأشجار أعشاباً غريبة، يستخدمها الملتي لألف سبب وسبب، من الطبخ إلى المداواة، إلى تطيبب الأجواء بالرائحة الزكية، إلى وإلى وإلى...

ومع الملتي، أراد عامر أن تكون تجربته، في برزخ البرازخ، حيث لا بدّ أن تكون تجربة التجارب، ولا بدّ أن يكون إتصال الإتصالات،

ولا بد أن تأتي الإشارة التي تؤشّر إلى الآتي من العمر. وتبشّر بالمستقبل. هناك، حيث البرزخ. كما لم يكن، ولن يكون. حيث أعظم إختلاط بين ماء فرات وملح أجاج. ماء تعمّد فيه عيسى. وآخر قلبت من أجله الأرض. وأفني الناس. ماء خالص النقاء عاش إلى جانبه يحيى تعمّد البشر. لسبب برّكته. وماء ثقيل مالح مرّ نتن. رمز إلى خطايا كبيرة ارتكبها قوم لوط. هناك حيث التقاء المائين، لا بد أن تتشكّل المعجزة.

وقريباً، جداً، هو مصبّ الأردن...

لكنه بعيداً أكثر...

فلا تفصله عن جبل نبو، مرقد سيدنا موسى، ومسقط رأس عامر. إلا كيلومترات قليلة، لكن الوصول إليه أقرب إلى المستحيل، فهو منطقة حرام، تفصل بين ضقة محتلة، وأخرى تتوجّس.

على الجانب المحتل، ينتشر الجنود المدجّجون بالسلاح، والتوسّع الغارق في وهم الوعد، وضجيج التاريخ، وصخب الخرافة، والنصوص الموتورة، وضيق الجغرافيا والأفق، والعقل....

وعلى الجانب الآخر، يقف الجنود الحائرون، الواقفون على حدّ سكّين، الجاهزون للضغط على زناد تنطلق بعده رصاصة إلى الأمام، أو الوراء، الضائعون بين فكرة استعادة أرض، وحماية أخرى، والإنظار في واقع قائم حليماً بواقع جديد....

والأرواح جنودٌ مجنّدة، وكما سُخّرت لعامر ظروف وأشخاص وأمكنة، كان سالم أمامه جُدة من السماء تفتح له الطريق إلى السووية. وجاء الأمر أشبه بالنكتة. شاب ثلاثيني، وسيم،

يخرج عن صمنه الذي ميّزه طوال سهرة استغرقت أغلب الليل، فيقول للحضور المتبارين في حديث نظريّ عن صيد السمك: وهل تصدّقون أنّني اصطدت السمك في البحر الميت؟ كان الأمر أشبه بنكتة، فملأت الغرفة ضحكة جماعية، لم يكن بينها واحدة لعامر. إنتبه إلى الشاب، وسأله: كيف، حدثنا عن الأمر؟ سكّت الحاضرون. ردّ: في الشتاء، يكون نهر الأردن في أحسن حالاته، فيصل إلى البحر الميت على شكل تيار جارف، ويستمر في مساره مخترقاً الماء الراكد، مشكلاً نهراً في بحر حتّى مسافة طويلة. في تلك المسافة اصطدت السمك في البحر الميت!

كان الأمر مقنعاً، لكنه ظلّ بالنسبة للحاضرين أشبه بالنكتة فضحكوا، لكنّ عامر لم يشاركهم أيضاً. جالسٌ سالم، تعرّف عليه: ضابط في الجيش، يعيش في تلك النقطة الحرجة التي تفصل ضفتين، وحضارتين، ومائين. إقترب منه، وكسب ثقته، وفجأة طلب منه ترتيب زيارة له لمشاهدة الموقع. وافق سالم، بتحفظ واحد: أن يبقى الأمر بينهما. طلب عامر أن يكون معه صديق له مهتمّ بالأمر، وافق سالم.

واختار عامر الموعد، في منتصف ليلة منتصف الشهر القمري، يرافقه التلحمي. سارت الأمور بيسر. وصلا إلى الموقع دون أدنى مشكلة. كان سالم رتب لهما الأمر بشكل يبدو طبيعياً، غير أنّ شعوراً بالقهر، ملأ نفس عامر.

بدت له الأرض أشبه ما تكون بساحة شهدت مذبحه قبل قليل. كانت مئات الأسماك مرمية على الشاطئ، فسّر سالم

له بأنّها حين تصل إلى ذلك الموقع تحاول العودة باتجاه المنبع، فينجح بعضها، ويفشل البعض الآخر ليتوجّه إلى قدره المحتوم. إلتمعت في ذهن عامر لوحة الفسيفساء في كنيسة مادبا، التي تُظهر الأسماك سابحة عكس التيار، وتخللتها صورٌ كثيرة لمذابح صبرا وشاتيلا. كانت الأسماك الصغيرة المرمية تبدو له أطفالاً ونساءً وشيوخاً ومقاتلين قُتلوا للتوّ.

بلع ريقه، واجتلس الأرض. تأمل مشهد الماعين: في كتب التاريخ يبدو نهر الاردن كبيراً، والصور التي كان شاهدها قبيل مجيئه، وتمثل النهر قبل مئة سنة، كانت تُظهر سفناً، وتذكر جملة كتبها المستشرق الدكتور سيلاه مرر في العام ١٨٧٥: "قضينا ساعة كاملة حتّى عبرنا نهر الاردن". وأخذ يقارن بين ما يراه، وما رآه غيره، قبل أن يأتي ذلك العدو الذي سرق التاريخ والأرض والماء والفضاء.

وتطلّع إلى الجهة المقابلة. كان هناك موقع عسكري إسرائيلي. إلتقطت أذناه أصوات أشخاص يتحدثون بلغة غريبة، تتبعها ضحكات اخترقت روحه. شعر وكأنّه المعنى بالضحكات المتهكّمة. أحسّ بنفسه تتلقّى إهانة التاريخ والجغرافيا. وجد يديه تتحسّس خاصرته، وكأنّه يبحث عن مسدّسه الذي رماه قبل عشرات السنوات، ولأوّل مرة، منذها، أخذ يشعر بالندم. كان يسائل نفسه، ويحاسبها، وكانت تتشكّل داخل عينيه دمعات مقهورة، مكتومة. تطلّع إلى جانبه يبحث عن التلحمي. لم يجده. جال بنظره حواليه. رآه يفتعد الأرض على جانب النهر والبحر. بدا له كصنم من تلك التي يبدو فيها بوذا ذاهباً في

صلاة. كان يوجّه صلاته إلى الجنوب الغربي، إلى بيت لحم. إحترم سكبنته. جلس على الأرض، موجّهاً نظره إلى السماء، إلى درب الحليب. كان الصفاء كاملاً، والنجوم تتلألأ كبأورة سحرية. أخذ يتأمل النهر في السماء، ويحوّل نظره إلى النهر في الأرض. تذكر ما قرأه قبل أيام: الملازم لينش، من الأسطول الأميركي، كان أوّل من تمكّن من السير فيه، بواسطة القوارب، من طبرية إلى البحر الميت، في العام ١٨٤٨. أي قبل مئة سنة، تماماً، من احتلال فلسطين. وأخذت الأفكار تتداعى:

يا لمصادفات التاريخ.

ويا لسخریات القدر...

أميركا، هنا، أيضاً، وكما في كلّ كارثة. كما في كلّ نعش عربيّ مسامير أميركية، وكما في كلّ مذبحة فلسطينية رصاصات أميركية، وكما في كلّ عدوان على بلد عربيّ صواريخ أميركية.

وعاد يتأمل السماء، سرّح فيها. ذاب فيها. دخل في مرحلة ما بين النوم والإستيقاظ، ما بين الحياة والموت، ما بين الموت والبعث. أبصر عموداً أبيض كأنّه لؤلؤة تحمل الملائكة، ودون سابق إنذار هطلت أمطار غزيرة. كان هناك برق بلا رعد، وأمطار لم ترها المنطقة من قبل. تلك المنطقة التي لا تعرف الشتاء أصلاً، إلّا نادراً وعلى شكل رذاذ خفيف. كان حجم النقطة يقارب قبضة اليد، والبرق يخطف الأنظار، والرياح تجتاح ما يعترض طريقها. شاهد بأّم عينيه الموقع الإسرائيلي يُقتلع من أساسه فيتدحرج في النهر الذي جرفه في لحظة ورماه في البعد

واستمع إلى صرخات الإستغاثة. تطلّع إلى جهة التلحمي، فوجده على نفس جلسته. لم يتحرّك ولو قيد أنملة. خلع ملابسه، ووقف عارياً. كان يغتسل. يتطهر. يتوضأ. لتأدية صلاة من نوع خاص. صلاة تتوجّه إلى فالق الأصباح، فجرًا، تحمل الحمد كله، والشكر مُطْلَقَه. شعر بوجوده يوحنا العمدان في المكان. رأى طيفه يحوم حول التلحمي. فيعمّده بالماء المقدّس المختلط من ماء السماء وماء النهر.

وفي طريق العودة، سأل التلحمي عن تجربته. فحدّثه هذا بأنّه توحد مع الطبيعة، توحد مع فلسطين. توحد مع بيت لحم. ووعدّها بالعودة إليها. قال لعامر: شاهدتك تمرّ إلى جانب عمود أبيض كأنّه لؤلؤة حمّله الملائكة.

وعاد في بيته إلى الكتب: فوجد أنّ سيدنا محمداً صلوات المولى عليه أبصر عموداً أبيض كأنّه لؤلؤة حمّله الملائكة، حين أسري به، فقال لهم: ماذا حمّلون؟ قالوا عمود الإسلام. أمرنا أن نضعه في الشام. وقرأ أيضاً أنّ النبيّ الحبيب الصلاة عليه والسلام قال: "لم يبق من النبوة إلّا المبشّرات"، وقرأ في سورة الأنفال: "إذ يغشّيكم النعاس أمنةً منه ويُنزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام"...

سبحانك ربّي...

لقد ملأتني بكرمك...

٦

كان يهرب دائماً، من أسئلتني عن زوجته وابنته. أو بالأحرى كان يرفض الحديث عنهما. وفي يوم ألححت عليه، فقد كان ذلك الجانب من حياته، جانب الزوج والأب، يعنيني كثيراً. أردت أن أعرف مشاعره حول زوجة تركته بناء على طلب غير مباشر منه، بعد قصة حبّ صوّرها لي بأنّها كانت حديث بيروتين، بيروت المقسّمة إلى جزئين. كانت دائرة عامر، بالنسبة لي غير مكتملة، دون أن أعرف شكل مشاعره حول إبنته التي لم يرها، أو على الأقلّ لم يذكر مرّة أنّه عرفها.

لكنّه كان ينمتزس وراء قلعة...

كان يرفض، فيهرب...

ولست من هؤلاء الذين يعتبرون عامر ملاكاً نزل من السماء، وعاد إليها، ولا من كلّ هؤلاء المحبّين، الذين قرأوا كلماته، وسمعوا عن قصصه، وأعرف تماماً أنّ هؤلاء سيفاجأون بأنّه كان يحمل جانباً آخر لا يطاق، جافاً، سمجاً، شرساً، أنانياً... فلقد كرهته ذلك اليوم...

لم يأت ذلك الثلاثاء، ولم يعتذر، وكان ذلك غريباً. اتّصل بي في اليوم التالي، فقلت له: تأخرت يوماً كاملاً: اليوم هو الأربعاء تعلّل بأسباب واهية، وطلب لقائي فوراً في بيته. إستغفر

الأمر، لكنني وافقت. فقد أردت أن أعرف بيته، الشكل الذي يعيشه، مكتبته، وأيضاً؛ لأنني سمعت صوتاً نسائياً غاضباً في الخلفية، وظننت أنني سأقابل نسرين، أو ماري، أو عائشة، أو وفاء، وكنت متسرعاً في ظنّي...

وصلت. كان الصوت الغاضب ما زال على حاله، يأتي من خلف الباب. صوت نسائي. كان صراخاً. إرتبكت، وكدت أن أعود. سمعت صوت عامر ينطق باسمي. قال: هو صديقي، وسيكون حكماً بيننا. سأرضى بكلمته. هو يعرف أكثر مني ومنك صالح إبنتنا. صالح ربتا. إنتظرت دقائق صمت قليلة، وضغطت على الجرس.

فتح عامر الباب، يرسم إبتسامة باهتة على وجهه، ويرحب بي بطريقة مفتعلة. لم بيد على وجهه ذلك الإنفعال الذي سمعته بالصدفة، قبل قليل. إستغربت من حجم قدرته على تشكيل تعبيرات وجهه..

عرّفتني عليها: جاكلين صباغ. لم يقل زوجتي، أو زوجتي السابقة. تصرّف وكأنّها امرأة نكرة. سلّمت عليّ، وهي تفتعل إبتسامة. قالت إنها تعرفني من كلام عامر، وهاجمته فوراً. سألتني: ماذا تقول في رجل يضرب امرأة؟

تدخل: أنت زوجتي، قولي زوج يضرب زوجته. ردّت بما يشبه الصراخ: لست زوجي. طلاقنا كان منذ أكثر من عشرين سنة، وما زلت تقول زوجتي. لست زوجتك. قال: لم أطلّقك، فأنت ما زلت على ذمتي. كان صراخها يختلط بالبكاء، قالت: ذمتك؟ وهل أنا شيء

تملكه فتستعمله في الوقت الذي تشاء. لم تطلقني، أنا طالقتك.

حاولت تهدئتها، فسألتها: هل تريد العودة إليها؟ لم يجب.

تدخلت، وما زالت تبكي: الأستاذ زعلان من إبنته. إسمها منذ ولدت كارلا. وهو يريد تسميتها الآن ربتا. تصوّر هذا الجنون. يتصرّف وكأنّه لم يتركنا. أنا المجنونة التي صدّقته فأثبت له بابنته ليراها بعد أن صارت صبيّة. كان عليّ أن أعرف أن ذيل الكلب لا يمكن أن يستقيم.

إندفع عامر نحوها. يريد صفعها على وجهها فأوقفته. قالت: هل رأيت؟ هذا فقط ما يعرفه الكاتب العظيم. هذا النوع من الحوار هو الوحيد الذي يعرفه.

سألت نفسي: ماذا أفعل هنا. لماذا أراذني عامر أن أكون طرفاً في هذا الموقف الشخصي البحت. هل يتعامل معي كصديق، كطبيب نفسي. هل يستقوي بي عليها؟ خمنت بأنّه أضعف من أن يواجه الأمر بنفسه، وهو يعتبرني كلّ تلك الأشياء معاً. قررت أن أخوض لعبته، ولكن بقوانيني أنا، وليس كما يريدّها أن تكون.

غمزته أن إتركنا وحدنا. غادر الغرفة. قلّت لها: إعتبريني أخوك. وسألتها: ماذا حدث؟

قالت، وهي جفّف دموعها: إتصل بي ودعاني لزيارته مع كارلا. كان يتحدث كملاك، وكأنّ شيئاً لم يكن. ظننته سيعتذر عن عمّر كامل تسبب في ضياعه، وأنّه سيعيد وصل ما انقطع مع

كارلا. لكنّه أخذ يفتعل المشاكل. ويتصرّف باعتباره الزوج والأب. لقد طأفته في بيروت منذ زمن. وكارلا لا تعرفه. المسكنة فرحت عندما عرفت أنّها ستلتقي والدها. ولكنّه ناداها ريتا فور رؤيتها. إستغربت كارلا. واستنكرت. فاشتبكنا.

ولماذا يناديه ريتا؟ سألتها.

ردت: لأننا اتفقنا على هذا الإسم قبل ولادتها.

قلت: ولماذا لم نسمّها به؟

قالت: لأنني أردت قطع كلّ شيء. كلّ ذكرى عن عامر.

كانت قد هدأت قليلاً. أخذت تستحضر أيامها معه. في بيروت. كان حديث ندم في أغلبه. تأملتّها. وحاولت فهم حقيقة ما تقوله من تعبيرات وجهها. يفترض أنّها جاوزت الأربعين. لكنّ هيئتها لم تفد بذلك. أنيقة. تحتفظ بقدر من الجمال. ليس من ذلك النوع من النساء الذي كان يصفه في كتاباته. وحدّثني عنه. كانت تبدو عملية. تنزيه. ولكن دون تكلف. وتناق. ولكن دون مبالغة. رأيتها تناسب عامر أكثر من أيّ واحدة أخرى.

سألتها. مغبراً مسار الكلام: هل ما زلت شيوعية؟

إستغربت. وابتسمت. قالت: حدّثك عني. إذن. لا. فقد تركت الشيوعية. العالم كلّها تركها. ماذا قال لك عني أيضاً؟

كانت تتراجع عن موقفها الحاد. دون أن تعرف.

قلت: قال الكثير. وأشعر فعلاً بأنّه يحبك. ولكنني وبصراحة

فوجئت بأنّه يضربك. هل كان يضربك في بيروت؟

ردت: لا. أبداً. وبالعكس. فقد كنّا متفاهمين. على الأقلّ كنتُ أظنّ ذلك أيامها. إلى أن شعرت أنّه لا يريدني فتركته. ولم يعاود

الإتصال بي. لهذا لم يأتني هذا. بل قد يكون قد مضى.

سألتها: ولو أتصل؟

لم تجب. كان واضحاً أنّها ما زالت تحبه. تحبّ ذلك الجانب منه الذي عرفته أوّل أيامهما في بيروت.

قلت: ولو طلب منك العودة الآن. هل ستوافقين؟

ردت: مستحيل. لقد كُسر الإناء الزجاجي. ولا يمكن إعادته إلى شكله الأوّل.

رنّ جرس الباب. قالت: هذه كارلا. أرجوك أن لا تفتح الموضوع

أمامها. إنّها حسّاسة جداً. ويكفيها ما تعرّضت له في الصباح.

دخلت كارلا. صبيّة جميلة. تكاد تشبه هؤلاء اللواتي

وصفهنّ عامر في كتاباته بحبّ. في عينيها شيء كبير من عامر.

وفي قوامها شيء كبير أيضاً. عرفتّها عليّ. كان سلامها بارداً.

أخبرت أمّها بأنها حجزت مقعدين في طائرة الغد.

عاد عامر. كان يحمل كأس ويسكي في يده. تطلّع إلى كارلا.

وقال بلهجة ساخرة: إذن يا ريتا. لا تستطيعين قضاء يومين مع

والدك؟

ردت. وهي تشدّ على أسنانها: كارلا... إسمي كارلا. كلّ الناس

يعرفونني بهذا الإسم. ولم أعرف إسماً غيره. أرجوك لا تناديني

بريتا.

لم تقل له يا والدي. وكان صوتها يرتفع تدريجياً. تدخلت

وقلت له: ولماذا هذا الإصرار على ريتا يا عامر. لماذا الإصرار على

مسألة شكلية؟

فوجئ بموقفه. فأجاب بلسان تأثر بالخمرة: لأنّها ريتا. ولأنّها

زُرعت في بطن أمّها على أساس أنّها ريتا، ولأنّها ليست كارلا،
ولأنّنا كنّا، أنا وأمّها، نحارب ثقافة تسمّي بناتها بكارلا...
فأطعته كارلا بلهجة ساخرة، متحدية؛ ولماذا تزوّجت من
واحدة تحمل اسم جاكّي؟ وألاّ يمثّل اسم ريتا الثقافة نفسها؟
تطلّع إلى جاكّي. وقال: هكذا صرّتم تربيون الأبناء في بيروت.
هذا هو نتاج تربيتك؟ ألم تقولي لها أن ريتا هي صديقة محمود
درويش التي كانت تفصله عنها بندقية، ألم تُقريها القصيدة،
ألم تُسمّعها أغنية مارسيل خليفة، ألم تُفهمها معنى
النضال الذي خُصّناه في بيروت؟
زادت كارلا في نبرتها الساخرة: تقصد إحتلالكم بيروت.
تقصد المجازر التي ارتكبتها في الدامور. تقصد فلسطين التي
أردتم بناءها في لبنان، بعد أن فشلتم في الأردن...
إنّفض عامر، بعد أن ضرب بكأسه على الأرض. وتوجّه إليها
رافعاً يده وفيها صفة لم تصل إلى مكانها. أمسكت بيده.
لكن كارلا لم تتوقّف...

واصلت صُراخاً، هذه المرّة، وبصوت يتهدّج: هذا هو، هذا هو،
إنّكم لا تعرفون إلاّ هذه الطريقة. هل أحضر لك مسدّساً
لتطلق النار عليّ. هل ستنسفني كما فعلت في الطائرات
فخرّبت الدنيا؟

أبعدني بعنف، ووصل إليها فصفعها بقسوة. لم تبك. ولم
تتحرك من مكانها. تطلّعت إليه باحتقار. كانت نظرتها حادة،
تنقب الصخر. أعدته إلى مكانه. كان صوت لهائه مسموعاً.
عادت، وقالت: على الأقلّ فنحن في جوبه لا نستعمل يدنا

حين نتحاور...

وتركت الغرفة.

جاء دوري. شعرت باستفزاز لم أألفه من قبل، فخرجت على
هدوئي، ولقنته درساً ظننت أنّه لن ينساه أبداً. حدّثت عن شكل
الحوار المفترض في مثل هذه المناسبة، لنته على كلّ العلاقة،
منذ الزواج وحتى الآن. إنّه مهتم بالهمجية، والجبن، واللامبالاة،
وأنهيت كلامي بمطالبته الذهاب إلى طبيب نفسي أشطر
منّي، فمثل هذا لم يمرّ عليّ من قبل...
وغادرت البيت...

في اليوم التالي، إتّصلت بي جاكّي معذرة، ومودّعة. قالت
إنّها لا تلوم عامر، فهي تتشارك معه في المسؤولية، وصارحتني:
أنا أحبّه، وهو يحبّني، وما جرى بالأمس كان مجرد سوء تفاهم.
وأكدت: سأحاول مع ريتا، وسأصل إلى إقناعها. هي تحمل نفس
عناد عامر، ولكنها ستهدأ قريباً.
وودّعتني قائلة: لا تترك عامر. إنّه عزيز على قلبه، ويثق بك،
أتمنى أن تكون دائماً إلى جانبه.

وكدت أن لا أصدّق ما أسمع، فقد سمّيت كارلا ريتا، ووصفت
ما جرى بسوء التفاهم. أخذت التساؤلات العجيبة تستغرقني:
ما هذا الذي تملكه يا عامر. ماذا تفعل للنساء. أيّ سحر هذا
الذي تستخدمه. ما هي التعويذة التي تقرأها، والتميمة التي
تحتفظ بها، كيف تحمل يا عامر كلّ ذلك التناقض في داخلك.
كيف تكون الحبّ العاشق، ثمّ تصبح الشرّ بعينه؟ وقررت أن لا
ألتقيه بعد الآن.

لكنني خرجت منكسراً...
فقد عدت إلى لقائه...

V

أردت أن أحل لغزهم...
وسكنتني رغبة أن أفهمهم...
قال:

لست أدري ما إذا كنت أحببتهم. أو لم أفعل. ولكنهم،
كلهم، كن نسخة عن زوجتي جاكين. ولقد فعلتها مرة وتزوجت
واحدة ظننت أنني أحبها. وثبت العكس. أو نصف العكس.
ولهذا فلن أكررها أبداً. الحب يعني ببساطة لا زواج. والزواج يعني
لا حب. ماريا كانت الحب المستحيل. الذي عرفت معه تفاصيل
جسدي. وتفتحت فيه زهرة إنسانيتي. وعائشة كانت أكثر من
مغامرة. وأقل من حب. وكل البشرى. والغيمة العتيقة التي
جابت بحار وأنهر الدنيا. في كل الأزمنة. وسحبت البخار كله،
فأمطرت على قلبي رذاذ ماء. وملأت روحي بعبق تعرفه فقط
الأرض العطشى. وفاء كانت تحمل من إسمها نصيباً. أو أكثر.
هي بغداد والبصرة والنجف الأشرف. هي قنبلة نووية لم يقدر
للعراق أن يصنعها. لكنّها لا تشع إلا الحب. وهي حجر صغير
في يد طفل يقاقل صاروخاً. وفاء هي الحزن الفرح الذي ملأ

الشعر شجناً.

ولست أكذب عليك. فقد عشت علاقات أخرى غير هذه. مرّت
مثل قوس قزح بقي محفوراً في العين. وفي الذاكرة. إلتقيت
نساء ليلية واحدة. ليس بالمعنى الذي قد تظن. وعشت نزواتي
العابرة أيضاً. وتستطيع أن تعرف عنهن من كتاباتي. نسرين
وسهى وديما وسارة وذهب. وغيرهن أيضاً.

أوقفته. مضطراً: لقد قرأت "درب الحليب"، الرواية غير
المكتملة. وظننت أن سارة وذهب شخصيّة واحدة. لا يمكن أن
تكونا إثنين. من هي سارة. هذه التي تكررت في روايتك. وحملت
غير إسم. فمرة هي يهودية من بغداد هاجرت الى تل أبيب. ومرة
هي ذهب الفجرية التي تطهّرت فتعمّدت في مياه جدول يصبّ
في نهر الاردن؟

قال: هي شخصية واقعية. قصّة حقيقية عشتها فعلاً.
يهودية في الديانة. وعجربة في طبيعة الشخصية. كانت مثل
حادث سير تتعرّض له فيؤثر بك. ولكنك تنساه بسرعة. ثم تعود
وتذكّره حين يتكرّر عليك مثله...

قلت، مستنكراً: هل ارتبطت بعلاقة مع يهودية؟

قال: نعم. وفي عمان. وهي تجربة لو كتبتها كما جرت
لاتهمني الناس بأنني أبالغ. في يوم، إتصل بي صديق ودعاني
إلى بيته لقضاء سهرة مع أصدقاء. ميّزت الموجودين ما عدا
واحدة. كانت تعرفني من بعيد. تقرأ لي. معجبة. تحمل هيئة
وصفتها تماماً عندما وصفت سارة وذهب في الرواية: لها عينان
عسليتان ساحرتان، وشعر عجري طويل، وتقاطيع أوروبية

علم نفس، كتب رحّالة، إسلاميات، العهد القديم وحوله كتب عن الأساطير التوراتية، إنتقيت رواية إسرائيلية مترجمة، حمل عنوان: "الطريق إلى عين حيرود"، فسحبته وعدت إلى مجلسي. كنتُ قرأتها قبل سنوات عديدة، لكنني افتعلت مشاهدتي لها لأول مرة. وقلت: هل قرأت هذه؟ ردت: أحترم ذكائك في إختيار الطريقة التي تفتح بها الموضوع. نعم قرأتها، وهي رواية جميلة، لكنها مظلمة، متشائمة، وأنا لا أحب أن أكون كذلك. قُلبت الرواية، وتوقفتُ عند صفحات تصف فتاة تلتقي البطل الهارب، في كهف عتيق، وتسبح عارية. قرأته بسرعة. وقلت: هذا مشهد رائع، أعطيتها الكتاب. قرأت قليلاً، ثم تطلّعت نحوي بابتسامة خبيثة، وقالت: نعم جميل، ولكن هل أفهم أن هذا إحياء من نوع ما؟ وضككت، شعرت بالإجراج، فسحبت الكتاب من يدها، وأخذت في تقليبه. توقفتُ عند صفحات تُحاصر فيها قوّات إنقلابية البطل. قُلت: وهذا مشهد جميل أيضاً. أعطيتها الكتاب فقرأت سريعاً، وقالت: هذا ما أعنيه. أنا لا أحب العنف. ووضعت الرواية جانباً.

كنّا أنهينا الزجاجة، فأحضرت أخرى، ورمت قطعاً من بخور بلّوري صخريّ أصفر في المجرمة، فتجددت الرائحة السحرية. سألتني، وهي تقف قبالي: هل تحبّ الموسيقى؟ أومأت بالإيجاب. فتحت خزانة صغيرة تنتصف أدراج الكتب، فبدا جهازا تلفزيون وستيريو. ومجموعة من الأشرطة. إنتقت واحداً، وقالت: نصرت خان رائع، ما رأيك؟ لم أكن أعرفه، فأخبرتها. قالت: ستحبّه بالتأكيد. وضعت الشريط وعادت. جاء الصوت رائقاً من

طبقة صوت عميقة، ثم تخلّله إيقاع رتيب، يتصاعد ويخفت، ثم رافقته أصوات مجموعة تُردّد ما يقوله المغني. قالت سارة: نصرت خان صوفي باكستاني، وهذا الشريط لحفلة أقامها في مسرح الأولمبيا في باريس سحرّ الفرنسيين. إنهم مغرمون بالشرق، وبصوفيته.

كان النبذ بدأ يعطي مفعوله، والترنيمات الصوفية غير المفهومة تنفذ إلى روحي. فاستغرقت في الصمت، في ما يشبه النوم المستيقظ. عينا مفتوحتان، ولكن بصري يتوجّه إلى داخلي. لم أسرح بشئ معيّن، كنتُ أستغرق في الفراغ. أشرب من الكأس، دون أن أرى يدي خمله. إنتبهت فجأة مع صوت نهاية الشريط. تطلّعت إلى يميني، فلم أر سارة. وقفت، قلبت الشريط. عادت سارة، وقالت: ستأكل أصابعك، طبخت لك دجاجاً محشواً، وملوخيّة.

كُنْتُ ما زلت واقفاً، وسارة كذلك، فأمسكت بيدها أدعوها إلى رقصة حميمة. سوّرت جسدها بيديّ، وسوّرت رقبتني بيديها، واستغرقتنا في حركة بطيئة تلاحق الطبول والأصوات والكلمات الصوفية من لغة غريبة، تحوّلت مع تحوّل الإيقاع إلى سريعة، فأسرع وأسرع وأسرع، ومع نهاية الأغنية، إنتبهنا. كان العرق يملأ وجوهنا، وخت إبطينا، واشتممت رائحة جسدها الممزوجة برائحة عطر ساحر. قُبلت خدّها بسرعة، وعدنا لنجلس الفرشة.

شربت من الكأس، وأشعلت سيجارة ساحباً منها بحرقّة. ونفثت الدخان بما يشبه الزفرة الآتية من داخل الداخل. قلت

لها: إذن، ما هي قصتك. حدثيني؟
ومعها تعلّمت كيف يكون الإستماع فنّاً، بداية، إعترفتُ لها
بأنني لم أكن أعرف عنها شيئاً، وحين شتّبت عينيها بعيون
قادمة من أولاد العمّ اليهود، كنت أقول تعبيراً بريئاً، لكنّ
الصدفة الخالصة لعبت دورها هنا، كما تفعل معي دائماً.
إطمأنت إليّ، سألتني أن يكون كلامها سرّاً لا ينطقه لساني،
حتى لو طلبت هي منّي ذلك، وعدتها، طلبت منّي أن أقسم
بشرفي، أقسمت، وشعرت بها تُحدّثني بما لم يعرفه لسانها من
قبل، كانت تُطلق العنان لمهرة تعرف الجري للمرة الأولى، وقد
شاهدت أمامها حقولاً خضراء لا نهاية لها، كانت تبدو وكأنّها
طفلة وُلدت للتوّ فأخذت تجرّب صوتها بالصراخ المتواصل..

قالت إنّها لم تنم ليلة البارحة، قلّقاً، فقد تصوّرت أنّ ما
ظنّنت أنّي أعرفه بعرفه غيري، وهذا ما يمكن أن يُدمّر حياتها
كلّها، في بداية الأربعينيات، هاجرت عائلة يهودية من براغ
مكوّنة من زوجين وستّة أبناء، ثلاثة شباب، وثلاث شابات، إلى
فلسطين، هرباً من الإضطهاد، وبحثاً عن أرض الميعاد، واستقرت
في كيبوتز قرب بحيرة طبرية، كانت تلك عائلة أمّها، أبوها من
طبرية، يعمل في جارة تأخذه دوماً إلى الشام والأردن، تعرّف على
جدّها لأمّها فتشاركها في التجارة، وتصادقا، وتعرّف على الإبنة
فأحبّها، ولم يجد صعوبة في الموافقة على الزواج منها، رغم
عدم إخباره عائلته بدين العروس، أو تعريفهم على عائلتها،
إدعى بأنّها يتيممة ومسلمة من البوسنة، واضطّرت الزوجة
الجديدة إلى الهجرة مع زوجها وعائلته إلى الشرق، في الأردن

أجّج الزوجان بدورهما أربعة أبناء، ولدين وبنتين، لم يعرفوا
حقيقة دين والدتهم حتى مرض الأب، فأخبرهم بالحقيقة قبل
أن يموت، حرصاً على معرفتهم أنّ لهم على الجانب الآخر من
النهر أهلاً آخرين، الأمّ تعاملت مع المجتمع باعتبارها مسلمة،
وتجنّبت بعد أن حجّت إلى البيت الحرام، ولكنّها تحتفظ في
خزانتها الخاصّة بالتوراة، وتعود إليها دائماً، وما زالت تمارس
الطقوس اليهودية وحدها في الأعياد، فقد شاهدتها سارة
تفعل ذلك غير مرّة، غير أنّها لا تفرض شيئاً على أبنائها، الأبناء
لم يشعروا بأيّ أزمة دين، أو هويّة، وهي وحدها التي تشعر
بذلك، تشبه أمّها بالشكل كثيراً، ومتأثّرة بها أكثر من الأب...

شربت الكأس دفعة واحدة، وقالت: "لا أعرف ما أنا، يهودية
على دين أمّي، أم مسلمة على دين أبي؟ عربيّة على جنس أبي،
أم يهودية على جنس أمّي؟". وصارحتني أكثر: "كانت أمّي تسافر
إلى قبرص لتلتقي بإخوتها، وبعد معاهدة السلام، إتصل بي
خالي من هنا، من عمّان، وطلب لقائي، فلم أرض، خفت أن
تُفضح قصّتي". كان صوتها يأتي متهدّجاً، أقرب إلى البكاء،
سألتني: "كيف تراني، يهودية أم مسلمة؟".
وغرقت في البكاء.

أزلت المسند الفاصل بيننا، ومسحت دموعها، ضممتها إلى
صدري، وأدّمت عيناها، لست أعرف، الآن، ماذا كانت حقيقة
مشاعري تلك اللحظة، فهل نزلت دموعي تعاطفاً مع قصّة
إنسانية محزنة، أم أنّ الخمر كان يضخّم في داخلي ردود فعلي،
كما يفعل دائماً؟ شعرتُ بدموعي، فأبعدتني عنها دون أن

تتركني. قالت: "أنت تبكي يا عامر؟". إبتسمت. ثم ضحكت من قلبها. قالت: "رائع أنت يا عامر. توقعت مليون رد فعل لك. ولكنني لم أتوقع أن تتعاطف معي بالدموع. أنا أحب الرجل الذي يبكي. ألا تمنع بكوني يهودية، أو نصف يهودية. ألم تكرهني. قل لي بصراحة حقيقة مشاعرك. أرجوك لا تكذب علي".

ضممتها إلى صدري مرة أخرى. شددت عليها، وشدّت عليّ. أمسكت برأسي بيديها. مرّرت بهما على وجهي. جبينني. عينيّ. خديّ. فمي. عادت وأمسكت برأسي بيديها وجذبته إليها. وقبلتني مليون قبلة. كانت تعبّر عن امتنانها. وتبدو وكأنّها استمعت منّي إلى اعترافي بوجودها. إشتممت مرة أخرى رائحة جسدها المختلط برائحة العطر. عانقتها، وقبلتها في فمها. فكنا وكأننا تعارفنا منذ ثلاثة آلاف سنة. منذ دخل يشوع إلى أريحا. ولست أذكر كيف أصبحنا عاربين، ولا كيف دخلت بها. ولم نأكل الدجاج المشوّ. فكانت حجّة للالتقاء في اليوم التالي. وفي الثالث إفتعلنا حجّة جديدة، وهكذا حتّى لم نعد نحتاج إلى مبرّر. فصارت لقاءاتنا شبه يومية. إلى أن سافرت إلى واشنطن في رحلة عادية. ولم تعد.

ألح عليّ سؤال. كان لا بدّ منه: تصوّر يا عامر لو أُنْجبت منها ابنة. ماذا ستعتبرها: يهودية أم مسلمة؟

ضمّ يديه إلى بعضهما بعضاً. ثمّ فتحهما على الجانبين. وحرك شفثيه بإشارة تعني عدم المعرفة. ولم يجب.

الجزء الخامس عامر، الشيخ الأحمر

١

جاء رمضان...

واختفى عامر...

هاتفني في اليوم التالي لعيد الفطر. طلب لقاء سريعاً. وأصر أن يكون في عبادتي. إتفقنا. والتقينا مساء. كان علي أن أدقق في وجهه لأعرفه. فقد أطلق لحيه غير مشدبة. غلب عليها الشيب. وبدا لي وجهه أقرب إلى صورة رجل كانت تنصّر غلاف روايته "أسود وأبيض". ونحل جسمه إلى درجة واضحة. لكن بريق عينيه كان مميّزاً. وصوته صار أعمق.

حدثني عن شهر غير حياته.

عن رحلة جوائية أخذته إلى أعماق نفسه. وأخرى برّانية عرّفته على ما تعنيه الأرض التي يعيش عليها. على ما هو حولنا ولم نميز يوماً أهميته. السرّ والسحر الذي تحمله هذه الأرض التي كانت مرّاً ومستقرّاً. وفي كلّ الأحوال. كان يتحدث بعشق عن الحجر والشجر والماء والأشياء. يزاوج التاريخ بالجغرافيا. ويستغرق في الكلام عن دواخله. حين يصف المكان.

أرادها. منذ البداية. على الطريقة الصينية التلحمية: عشرة

أيام في الجبال. والبادية. والغور. والصحراء. وسجّل رحلته على الورق. قال لي وهو يسلمني ما كتب: هذه أرض منذورة لدور تاريخي. خذ إقراراً. أريد أن أسمع رأيك. وبدأت أقرأ:

حين نطق الحجر ...الحجر الأسود

كثيراً ما يترك المكان أثره على ناسه... وكثيراً ما تُعطي الجغرافيا شكلاً مُعيّناً للتاريخ... وكثيراً ما تختلط الأمزجة. تبعاً لإنخفاض المكان أو إرتفاعه. لبرودته أو حرارته. لكن هذه. كلّها. لم تفعل فعلها في مكان. كما فعلت مع بلادنا. هذه التي حُمِلَ تنوعاً يشي بتفرد عجيب. ويكاد بعكس شكل التناقض المُتكامل... فآدم. أبو البشر. وُجد عندنا. وإبراهيم. أبو الأنبياء. مرّ على جاوا. واستقر فيها حيناً. فأخذ منها ذلك الحجر الأسود. الذي وضعه في الكعبة. وموسى. نبيّ اليهود. عاش في بلادنا. فحارب أهلها. فإنتصر وإنكسر. ومن جبل فيها ألقى بنظرته الأخيرة على بلاد الكنعانيين. ومات. وعيسى. نبيّ المسيحيين. وُلد على بُعد ثلاثين كيلومتراً من نَبُو. وعمّده يوحنا المعمدان على مقرب منه في النهر المقدّس. وذهب ضحية مسيحيته الخالصة. فقطّع رأسه على قمة جبل فيها. يُطلّ على فلسطين. إسمه مكاور. وشهد رقصة سالومي. قبيل قطع الرأس بقليل...

وَمُحَمَّدٌ، نبي البشرية، مرَّ على أرضها، في رحلات الصيف، وما زال الناس يتباركون بشجرة تفيًا تحتها، في إستراحة المسافر، قبل وبعد لقائه بحيرى، الناسك المسيحي الذي بشر به نبياً...

وفي البدء كانت البادية، ومنها نبدأ...

ففيها كان التكامل بالتناقض...

وفيهما كان اختلاط الأسود بالأبيض، هذين اللونين اللذين ما إجتمعا حتى كانت لوحة جميلة، على الورق، أو على الأرض، وقلَّ ما يجتمعان بهذه الطريقة...

فَمَنْ البراكين جاء الأسود على شكل صخور صلبة، تفتت مع السَّنوات، حجارة ورملاً، لتعطي الأرض شكل القمر المُتخيل. ومن سماء صافية، وشمس وهّاجة، جاء الأبيض خالصاً، ليتحوّل أحياناً إلى أصفر الذهب، وكثيراً إلى بُني الطين، وقليلاً إلى أخضر الحياة...

ومن تناقض البادية، أن ترى سياراً تُجهد السير فوق طُرُق تُرابية، أو حجرية، أو صخرية، كيلومترات طويلة، للوصول إلى خيمة بدوية بالية، تُحيط بها أغنام كثيرة، أو قليلة.

فالفارس الأصيلة حوّلت إلى سياراً...

وأيضاً: مِنَ التناقض أن تُتابع سياراً مُتدققاً، جديراً بأخذ إسم نهر، يندفع بشراسة مُرعبة، في شتاء غزير، ولتنتطلع في اليوم التالي إلى مساره فارغاً يحمل آثار دمار طاريء. وأيضاً، وأيضاً: مِنَ التناقض أن تسير عشرات الكيلومترات، في صيف قائف، فتواجه بسرّاب إثر آخر، وفي لحظة مُباغتة، تُفاجأ بماء جدير بأخذ

إسم بحيرة...

ومن هذه البحيرة، نبدأ...

فعلى ضفافها كانت قصّة حب صحراوية جميلة.

وتمضي سيارتنا في طريق تُرابية، دون عناء كبير، فالأرض مَلْسَاء ناعمة، بإعتبارها مُستقرّ ماء في الشتاء، وهي صلبة إلى درجة أنه يمكن إعتبارها مطاراً لهبوط طاريء. تذكّرت مطار الثورة، وصورة الطائرات الثلاث تنفجر الواحدة تلو الأخرى. بعد كيلومترين، أو ثلاثة، تخفّ الصلابة، لتثير السيارة زوبعة كبيرة من التراب والغبار، وهكذا لثلاثة كيلومترات أخرى، لتبدأ بعدها خمسة كيلومترات من الطريق الحجرية الصعبة...

لكنك لا تأبه بعناء صُعود درج بسيارة، لأنك تُعرف أنك ذاهبٌ لمتابعة تفاصيل قصّة عشق، جرّت على أطراف الصحراء، ومن بعيد، يُطلّ عليك بُرج عال، فتُقدّر أنه القصر الذي تقصد، ومع الإقتراب، شيئاً فشيئاً، تُعرف أن تقديرك صائب، لكنك لم تحسب أن هذا القدر من الماء، الذي يقف على أعتابه، يمكن أن يكون إلى هذه الدرجة، فما ترى أمامك بحيرة حقيقية، وبمحاذاة الشاطئ تسير، لتتنسّم هواء رطباً في ساعات حارة، وترى سيارات البدو لسحب الماء مُتناثرة حول البحيرة، وقطيع أغنام يشرب، لكن لا أحد عند الطرف الجنوبي، حيث القصر، يقف وحيداً، تغسل أقدامه المياه، بطراوة، وتُداعب سوره المُهدّمة أجزاءه طيور مُلوّنة، تُطرب بزقزقة مُحبّبة. القصر مبني من الحجارة السوداء الكبيرة، التي خار من أين أتت، مُهدّم جزء من برجه الذي يستغرق مساحة الرُبع من البناء، ويرتفع مسافة

ثلاثة عشر متراً، ويبدو أنه كان أطول من هذا بكثير.

أما قصة الحب المجهولة المرتبطة بالقصر، ويتناقل أهل المنطقة تفاصيلها، فتقول: هرب بطلا القصة بعد قصة حب جارف، إلى القصر الثاني، لسبب كونهما من قبيلتين متحاربتين، وتزوجا، وعاشا حياة سعيدة، يدلّ عليها سحر المكان، باختلاط الماء مع الرمال، ووجوده طوال أيام السنة. جاء أهل الفتاة فأغاروا على الموقع، وقتلوا الزوج الحبيب، ولترمي الزوجة العاشقة نفسها من أعلى البرج حزناً، وثمة قبران أمام القصر، يُقال أنهما يخصّان الحبيين بطلَي القصة الدرامية...

جلست إلى جانب القبرين، وقرأت الفاتحة على روحهما، وسرحت في الفضاء البعيد. جاءني صوت عائشة، بعيداً، عميقاً: أحبك يا عامر، أحبك. وجاءني صوت مريم: أحبك يا عامر، أحبك. وجاءني صوت سارة: لو كان الأمر بيدي لأحببتك. وجاءني صوت جاكى: أحبك يا عامر، أحبك إلا قليلاً. وجاءني صوت رينا: أحبك يا والدي، أحبك، فلا تغضب مني...

ومن برقع، ذهبت إلى جاوا.

مدينة الأسرار، مدينة الذهب...

ولم يكن الإسم ليثير في داخلي أيّ شيء، وقد أكون سمعته مرّات عديدة، وفي رحلة جماعية إلى الموقع، قبل سنتين، وجدت نفسي أقف أمام أطلاله، من بعيد، أستمع إلى بعض شرح سطحيّ عن المدينة التي تعود إلى ما قبل التاريخ المكتوب. قال الشارح: هناك من يقول إنها أقدم مدينة مسورة في التاريخ. سألته بعفوية: ولكن ماذا عن أريحا؟ فلم يرد...

ودون تخطيط مسبق، وجدتني أنزل التلّ الصغير، فأسير في واد، مُحاذياً بركة ماء مملئة عن آخرها، ولأبدأ بصعود الجبل المؤدي إلى باب القلعة. المكان موحش، لكنّه يحمل من الغموض ما يكفي ليُجعل الفضول يتغلّب على الوحشة. دخلت صاعداً ركاماً ترابياً يحتلّ المكان. فوقها أعداد لا تُحصى من الحجارة، المتعددة الأحجام. صعدت أكثر، فأكثر، متسلّفاً الحجارة، والركام، إلى القمة. المكان موحش أكثر، فيزداد الفضول، أكثر فأكثر. كلّ شيء هنا يدلّ على أنّ شيئاً رهيباً جرى في هذا المكان. آثار فخاريات مدمّرة في كلّ مكان تقريباً. لا بدّ أنّ زلزالاً دمرّ القلعة. لكنّ السور المحيط بها، والذي يُشكّل حول الجبل شكلاً بيضاً متكاملاً، ما زال كما هو، واقفاً تماماً. ما جرى، إذن، أمر داخليّ.

تذكّرت قصة شمشون والمعبد...

وعليّ وعلى أعدائي...

واصلت السير في الأنحاء. يتكرّر المشهد. ركام فوق ركام إلى جانب ركام. نزلت من الجانب الآخر، شيئاً فشيئاً، ليفاجئني منظر مُرعب: حاقّة تطلّ على جُرف سحيق، في آخره قاع مجرى سيل "وادي راجل"، ويحمل صخوراً سوداء كثيرة، الواحدة منها خمل حجم غرفة في شقة عمّانية.

واصلت النزول الصعب، الخطر بما خمله الكلمة من أقصى المعاني، ماراً بمغارة مغلقة، لأصل إلى القاع الفارغ من الماء. عمق المجرى لا يقلّ، في حال من الأحوال، عن عشرين متراً. قَطعت المسافة صعوداً فوق صخرة، ونزولاً عن أخرى، ودرت حول

الجبل، القلعة، المدينة، لأنهي ساعات ثلاثاً، من الجهد الكبير، والفضول الأكبر...

وسهرنا تلك الليلة...

فتأمل واحد منا الفضاء، وملايين النجوم تحتل قبة سماء البادية، وكسّر صمتاً ذكرنا بأغنية قديمة، تتحدث عن صوت الصمت، فقال: إنني أفكر بالنجوم، هنا، على أنها شاهد على ما مرّ بالبادية من ناس وأحداث.

فوجدت نفسي أقول: تصوّروا أن سيّدنا إبراهيم مرّ من هنا، في رحلته من العراق، إلى فلسطين، لقد إستقرّ في حرّان، وجاوا في حوران، ألا يمكن أن يكون إستقرّ في جاوا؟ أم لعلّه إسماعيل، والإسماعيلية كانت في هذه المنطقة؟

وعدت إلى عمّان، فعدت إلى الكتب، باحثاً عن "الحجر الأسود"، ليس عنه بذاته، فهو موجود في الكعبة، لكن من أين أتى، وكيف وصل إلى هناك؟ فسؤالان لم أجد لهما إجابة، غير أنني وجدت كتاباً قديماً، كتبه آثاري ألماني يتحدث عن "خان إبراهيم" في منتصف البادية، وعن نظريته في أن سيّدنا إبراهيم مرّ من هناك، إذن، فإذا كان مرّ من هناك، فلا بد أن يكون أخذ الحجر الأسود من هناك أيضاً.

وعدت إلى جاوا، وكان معي التلحامي...

خرجنا من عمّان، عند التاسعة صباحاً، لنهني الطريق المعبّدة عند العاشرة والنصف، ونخوض ساعة أخرى من الطريق الدرج، فنصل مدينة الأسرار نحو الظهيرة، فلا يمنعنا تعب المسافة، من تكرار تجربتي ذاتها، ولنمكث في الموقع نفسه،

ساعات ثلاثاً، نبحت عن لا شيء، أو أي شيء، أو كلّ شيء... وجدنا قطعاً فخّارية كثيرة، بعضها يحمل نقوشاً بدائية، وعثرنا على أربع قطع صغيرة من العقيق النقي، لكنني لم أر رسماً أو كتابة واحدة، ولم أميز أن بعثة آثارية مكثت هنا، في الموقع، ثلاث سنوات كاملة، تلك البعثة التي رئيسها الآثاري الألماني...

الوحشة نفسها، والغموض أكبر، والحجارة تكاد تنطق عن سرّ دفين، عدت إلى السائق، وهو من المنطقة، لأسأله عن رسوم وكتابات، فكّر قليلاً، ثم قال: ربما تكون هناك، لقد إصطحبت باحثاً أميركياً، قبل شهر، فأخذني إلى موقع لم أكن أعرفه، يبعد ثلاثة كيلومترات إلى الشرق من هنا، ومكث ساعة عند الجانب الآخر من الوادي، وكان يتأمل الصخور...

الأميركيون هنا أيضاً؟
وذهبنا إلى هناك، في طريق صعبة أخرى.

الوادي، مجرى الماء، هناك، يكاد يبلغ عشرة أمتار عمقاً، ومثلها عرضاً، كان فارغاً من الماء سوى بركة ضحلة، ملأى بالطمي البني، وتظهر على جانبيه وقاعه الصخور السوداء الكبيرة، وتبدو مغارات كبيرة، في أماكن مختلفة، ببطء المتسلّق الهاوي، نزلت إلى القاع، ثم صعدت إلى الضفة الأخرى، تساعدي إشارات السائق الطيّب، وخسّبه من أن أسقط كريشة في الهواء، عند اللمسة الأولى لقدمي على القمة، أفاجأ بصخرة سوداء ملساء تحمل نقوشاً غريبة، وأخرى تمتلئ بالرسوم البدائية لحيوانات كالغزال، والجمل، وغيرها، وأخرى

بالعربية القديمة... وهكذا، فتمنيت لو كنت عالم آثار، أو لغات قديمة، لأكشف ما خوي من أسرار، وحسدت شامبليون على تفسيره لما حواه حجر الرشيد...

وتمنيت، أكثر، لو كنت أحمل كاميرا، وكان أقصى ما يمكنني عمله، أن أختزن في عقلي أشكال الرسوم، وأنقل بقلمني أشكال الكتابة، وسرحت في الكتابات والرسومات، فتغيرت الأشكال لتصبح لغة عربية مفهومة، كانت تقول: أنا إبراهيم، لقد مررت من هنا، في طريقي إلى فلسطين، وأخذت حجراً أسود مباركاً. يا من تقرأ كلماتي، أنت متي، أنا والدك إبراهيم، إمض إلى قدرك راضياً مرضياً، فأنت منذور لخدمة الله.

أخذت حجراً أسود، وعدت، وقد ازدادت الأسئلة أسئلة، التلحمني أسر لي في طريق العودة أنه شاهد عصا سوداء، خولت إلى أفعى، وتطلعت إليه بشراسة، فظن أنها ستهاجمه، لكنها انسابت بتسامح وراء صخرة، وبثقة فرس.

جاوا.. أي سرّ تخملين، يا جاوا؟

وذهبت إلى وادي شعيب، إلى مقام سيدنا شعيب، حمي

سيدنا موسى... و

أوقفني. قال إن الموضوع طويل، وأستطيع أن أقرأه في وقت آخر، لكنه أخذ يستعرض الأماكن التي زارها، وعاش فيها تجارب روحانية معينة، من عراق الأمير الذي كان عمونياً يرتبط بعلاقات مع كهنة المعبد في أورشليم اليهودية، وقرأ لي جملة قالها طوبيا، الأمير، بعد أن اجتزاها من العهد القديم: إن ما بينونه إذا صعد ثعلب فانه يهدم حجارة حائطهم. وأضاف:

تصوّر، ألا ينطبق هذا على الواقع الآن، فكلّ دولة إسرائيل لن تقوى على محاربة ثعلب.

وتحدّث، مطوّلاً، عن مكاور، التي شهدت رقصة سالومي، الفاجرة، وأوصلت إلى قطع رأس يحيى، يوحنا المعمدان، وقال: اليهود، أيضاً، وأيضاً، هم في كلّ زمان، وفي كلّ مكان، سبب القتل والدمار. لم يترك مكاناً لم يزره، ويشهد فيه تجربة ما، وقال: كانت تجربة برّانية ثرية، أعطتني نفحات روحانية كبيرة، فمكاننا مقدّس، ومنذور لدور تاريخي دائماً... ثم أخذ يحدثني عن تجربته الجوانية...

٢

شنلر...

يوحنا شنلر، فسّ ألماني جاء إلى الأراضي المقدسة في العام ١٨٦٠، مهاجراً إلى الله، مبشّراً بالمسيحية في البلاد التي شهدت ميلاد مسيحها، وأيضاً، على الجانب الآخر من النهر الذي شهد قطع رأس سميه الأوّل: المعمدان.

ومخيّم شنلر، على أطراف عمّان الشرقية، مساحة واسعة من الأرض بدأت مركزاً لتجمّع لاجئين فلسطينيين هربوا في

العام 17. ومع الأيام كان يكبر ويكبر فيتحول إلى مدينة صغيرة. تبدلت فيها الخيام إلى منازل صغيرة من الصفيح، ثم إلى مبان من الطوب، وبعضها بني من الحجر. وتكاثر الناس... عند مدخل الحميم. قرب زقاق تنبعث من أطرافه رائحة المجاري. وتلعب فيه مجموعات الأطفال. غرفة واسعة تصل إليها بعد المرور عبر فناء صغير. سيكون المسجد على يمينك، وهي في المقابل تماماً. على يسارك... ولا شيء يأتي صدفة... فكل شيء بمشيئة الله...

وقد شاء سبحانه أن ألتقي سيدي الشيخ طاهر. فتعرفت على عالمه المدهش. ووجدت نفسي أدخل فيه دون أن أستاذنه. أو يستأذني. سكتني معرفة أنه الأخير من سلسلة طيبة. والوارث الشرعي لطريقة تختصر كل الطرق. وتشكل بحر الوصول إلى الله عز وجل. والرسول صلوات المولى عليه. من خلال النهر المقدس الإمام علي كرم الله وجهه. سلسلة طاهرة غير منقطعة منذ علي. كوّنت من مشايخ بدأوا بآل البيت. وهي السلسلة الذهبية. فكان أول حلقاتها الحسين بن علي. الإمام الشهيد. ثم الأئمة علي زين العابدين. ومحمد الباقر. وجعفر الصادق. وموسى الكاظم. وعلي الرضا. السلسلة الفضية أتت بعدها. فوُثِّت لِمَشَايِخ عُرِفُوا بِكَرَامَاتِهِمْ. وتسلسلوا كما المياه المتساقطة من شلال. لا تميز واحد منهم عن الآخر. عبر مئات السنوات. حتى وصلوا إلى الشيخ طاهر مشايخ لا يشيخون لسبب عرق أو شكل أو عصبية. ولكن لأن

الله اختارهم لهذه المهمة. فقدم لهم كرامات أعلنوها على الملأ. فاكتمسبوا ثقة المريدين.

سيدي طاهر شيخ حين عاد من إرخالة دامت عشر سنوات. بدأها في الحجاز. وسيناء. والعراق. فاستقر في الجبال يتنقل من خلوة في كهف. إلى أخرى في آخر. يتعبد ويتفكر في شؤون الدين والدنيا. ويرخل مع كل واردة جديدة إلى الشمال. حتى وصل إلى جبال الشيشان. هناك. وليلة بلغ الأربعين من عمره. أنه في منامه الشيخ عبد القادر الجيلاني. فاستنكر وجوده بعيداً عن أهله. وقال له: ماذا تفعل هنا؟ عد إلى بلادك فجماعتك ينتظرونك.

عاد سيدي طاهر إلى بغداد في فلسطين. ليستقبله المنتظرون بماء العطر الزيتي. وليعرف هناك أنه صار الشيخ الجديد. فقد أجازته سلفه الشيخ عز الدين قبل استشهاده. حين قال للمريدين: سأرحل قريباً. ولن أجاز أحدًا. بل ستجيزون أنتم سيديكم الشيخ طاهر عند عودته من ترحاله.

وصار سيدي طاهر الشيخ. فأوقف الجهاد الأصغر. فقتال الإنجليز. تاركاً إياه للآخرين. وركز على الجهاد الأكبر. جهاد النفس. إنتظاراً لنداء السماء إيماناً بالقتال. كان يعمل على نشر الطريقة في الناس. وتوسيع قاعدتها. وتطهير نفوس المريدين حتى الوصول إلى الصفاء الكامل. ومع النكبة الفلسطينية الأولى تفرق المريدين بين الدول العربية. فنشروها أكثر. ومع الهجرة الثانية تفرق الباقيون أيضاً. فنشروها أكثر فأكثر. لكن سؤال القتال كان يتردد دائماً. فالنفوس التي كانت تملأها الروح

الإلهية ظلّت تتساءل عن جدوى ترك الدنيا لصالح الآخرة. فالدين دنيا وآخرة. صار المريدون يتفرقون مع تباعد المسافات. وتكاثر الأسئلة. وانعدام الأجوبة. وذلك الغضب العارم بما يجري حولهم من قتل وتشريد وظلم. وتلك النفوس المشحونة بطاقة جبارة كامنة لا تجد مكاناً للتفريغ.

وشاء الله أن ألتقي سيدي طاهر...

مرة. وإثنتين. وثلاثاً. وعشرًا. كنّا في العشرة الأواخر من رمضان. فتحولت أيامنا وليالينا إلى رحلة متواصلة من العبادة. والمناقشة. نقرأ القرآن. ونستمع إلى تلاوته الأسرة من صوت عميق شاب. فننسى جوع الجسد. ونحاول إشباع روحنا. ونصلي جماعة وفرداً. ونعود بعد أكل إفطار قليل إلى الطقوس نفسها. ثم نناقش آية. أو حادثة تاريخية. أو حدثاً سياسياً.

كنت غارقاً في الأسئلة. وفي تفسير الإشارات والإشرافات والتجليات والخواطر والإلهامات والدهشات والرؤى. كنت غارقاً في الحيرة. وكان غارقاً في الأسئلة. وفي الإتحاد والاتصال والإرادة والبصيرة والجذب وجنان القلب والخضرة والحق والخلوة والرموز والسفر والشواهد والطوارق وعين الحياة والكشف. كان غارقاً في الحيرة.

والتفت حيرتي بحيرته...

بمشيئة الله...

كنّا أنهينا جلستى رياضة الجسد ورياضة الروح. الأولى بترديد جملة التوحيد "لا إله إلا الله" بصوت مسموع. مع تحريك رؤوسنا ذات اليمين وذات الشمال آلاف المرات. بإيقاعية واحدة.

وبالحركة نفسها. ونحن جلس الواحد قبالة الآخر. والثانية بترديد الجملة في دواخلنا. آلاف المرات أيضاً. سارحين في فضاء الله. باحثين في أنفسنا عن الغوث. كنّا نقضي ليلة القدر...

فاجأني سيدي طاهر بقوله: أرتاح لك يا عامر. ولا أكتمك أن جلستنا هذه ذكرتني بجلستاتي مع الشيخ عز الدين. قدس الله سره. فقد سرّرت في جسمي وروحي شحنة لم أشهدها منذ سنوات. حدّثني يا شيخ. حدّثني عن نفسك...

كان يطلق عليّ كلمة شيخ للمرة الأولى. وكنت أشعر بالشحنة نفسها. قد سرّرت في جسدي وروحي أيضاً. حدّثته بكل شيء. بكل شيء تقريباً. فلم أستثن إلا القليل. كانت حياتي كلّها تمرّ أمامي لحظة بلحظة. وكان يستمع بكلّ جوارحه. كانت عيناه في عيني. ويده اليمنى غارقة في سبحة طويلة. واليسرى تداعب اللحية البيضاء بين ساعة وأخرى. وشعرت به بتابع باهتمام تفاصيل علاقاتي العسكرية. لكنّه كاد يرتعش حين وصلت إلى أمر البرزخ. وجاري في أزموه ورشيد وجنوب أفريقيا وشط العرب ونهر الأردن وجاوا. ضمّ يده على السبحة. وفركها. وطالبني بتفصيل أكثر. حدّثته. بالتفصيل. ولم أخف وجود عائشة ومريم ووفاء والتلحامي معي. وسكت.

تأمّلني بعينين ذاهلتين. وقال: يا شيخ عامر. ألا تشعر بأنّ الله خصّك عن الآخرين برسالة؟
انتقل الذهول إلى عيني أنا. لم أرد.

قال: العالم البرزخي لا يصل إليه إلا القليلون. وأنت وصلت إليه عدة مرّات، دون مساعدة من بشر، بل بإشارات ربّانية صافية خالصة. وهذا ما يميّز السادة، لا الشيوخ. فقد يصل إلى الحالات التي وصلت إليها شيوخ، ولكن بمساعدة من السادة. ومع هذا كلّهم، فمجرد انصياحك إلى الإشارات، وتجربة ما لم يفعل به بشر من قبلك قطّ، فهذا يعني أنك سيّد. باركك الله يا إبنّي...

خطرت في ذهني صور عائشة ومريم ووفاء والتلحمي. قلت: ولكنني يا سيدي كنت مع نساء، ورجل مسيحي. قال: في البرزخ لا يوجد ذكر أو أنثى، مسلم أو مسيحي أو يهودي. هناك بشر فقط. هناك مؤمنون بالله. هناك تتلاشى فوارق الدنيا. وتتلاقى توحيّات الآخرة. هناك وكما جاء في سورة عمران: "شاهد ومشهود". وهناك أتكك بشارتك يا إبنّي. وقد قال حبيبنا محمد صلوات الله عليه: "لم يبق من النبوة إلا المبشرات".

سكت للحظات، وسألني: هل تستطيع أن تصف لي شعورك في البرزخ:

ووجدتني أجيب بعفوية: أستطيع أن أصف لك طعم التفاحة بكتاب كامل. لكنك لن تعرف طعمها إذا لم تذوقها. لا. لا أستطيع وصف شعوري هناك. عليك أن تجرب به بنفسك.

قال: هذه إجابة السادة والأولياء، وليست إجابة الشيوخ العاديين. وحتى لو خضت تجربتي في البرزخ، فلن أشعر مثلك. كان يستفزّ في داخلي روحاً كامنة، وكنت أنقاد إلى عالمه

وكانني منوم مغناطيسياً. كان يضخّم فيّ مشاعر ولدت أصلاً ضخمة، وكنت راضياً فرحاً مرضياً.

عدت، وتذكّرت عائشة ومريم ووفاء، وكثيرات كثيرات. سألته: لكنني يا سيدي زنيت وشربت الخمر؟

قال: لا، لم تزن. فقد ملكنّهنّ أيمانك. وأخذت من الخمر فوائدها، ففيه كما جاء في الكتاب الكريم: "منافع للناس" وقد كان الخمر السبب الذي أوصلك إلى تلك النتيجة، فقد جاء في كرم الكلام: "وجعلنا لكلّ شئ سبباً". المهمّ أنّ تترك الخمر الآن. فقد ذهب السبب حين وصلت إلى النتيجة، فأنت حين تصل البرّ من رحلة بحرية طويلة، تترك مركبك على الماء، ولا تحمله معك، والمركب هو السبب، والوصول هو النتيجة.

سألته: وأنت، هل شربت الخمر يوماً يا سيدي؟ ابتسم، وقال: نعم شربت، وكان الخمر سبباً أيضاً. كنت شاباً، وخلال ارتحالي في الشمال، بين جبال العراق وتركيا والذي أوصلني إلى الشيشان، توقفت مرّة في جبل شرق الأناضول، فاستقررت في كهف ضخم يتسع لسكان قرية صغيرة، وتعرّفت على راعية أغنام، فأحببتها، وأحبّبتني. كان أبوها شيخ طريقة يسمونها "القلز باشيه"، فتعرّفت عليه، وعرفني على جماعته. كانوا يتعاملون معي باعتباري ذلك البريق الذي أتى من الحجاز، ويستمعون إلى قصصي باهتمام، وتستحوذ على خيالاتهم الأماكن التي شاهدها في رحلتي. مكّة المكرمة المدينة المنورة، النجف الأشرف، والقدس. وعرضت عليّ إبنات الزواج، فزوّجني إياها والدها. كان يريدني أن أبقى عندهم. وف

يوم فاجأني بسؤال: ألا تريد أن تكون واحداً منّا. بعد أن تناسبنا؟ لم أفهم. فعرض عليّ أن أكون واحداً من مريدي الطريقة. وأن أتعرف على أسرارها التي لا تُكشف إلا للمريدين. كنت أعيش أيامها في رحلة بحثي عن الأسرار. فوافقت. جمع جمهوراً من الخاصة والعامة. واستدعوني. وناولوني قدح خمر. ثم وقف النقيب بجاني. وقال لي: قل بسراً إحسانك: يا عمّي وسيدي وتاج رأسي أنا لك تلميذ وحذاؤك على رأسي. وأمرني بشرب القدح. فلما شربته. إلتفت إليّ الإمام قائلاً: هل ترضى أن ترفع أذنبة هؤلاء الحاضرين على رأسك إكراماً لسيدك. فكرت فقلت: لا. ضحك الحاضرون لعدم قبولي القانون. وانتهت المسألة عند ذلك الحد.

قلت: حدثني عنهم أكثر؟

قال: لم أعرف عنهم الكثير. ولكن زوجتي قالت لي إنّ شعارهم هو عَمَس. والعين تعود إلى الإمام علي كرم الله وجهه. وهو عندهم المعنى. والميم تعود إلى سيدنا محمد صلوات الله عليه. ويسمونه الإسم والحجاب. والسين إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه. ويسمونه الباب. وهم يعظمون الخمر. ويحتسونها. ويعظمون شجرة العنب. لذلك. ويستفطعون قلعها أو قطعها. لأنّها هي أصل الخمرة التي يسمونها: "النور". وهكذا ترى أنّي شربت الخمر. التي كانت سبباً لمعرفتي كلّ ذلك.

قلت: أعذرني يا سيدي. ولكن أليس هذا إساءة تفسير لكتاب الله؟

ردّ بتسامح: قال الإمام علي كرم الله وجهه: "القرآن حمّال أوجه. فاستفت قلبك". وقد استفتيت قلبي.

قلت: وماذا بالنسبة لزوجتك؟

قال: كانت تعرف منذ البداية أنّي لن أستقر هناك. وتعرف أنّي لن أصطحبها في إرخالتي. وكان تسريحاً بإحسان.

قلت: والتلحمني يا سيدي. كان معي في جبرتي عند مصب الأردن. وهو مسيحي.

قال: "ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأنّ منهم قسّسين ورهباناً وأنّهم لا يستكبرون..."

كانت إجاباته. دائماً. على رأس لسانه. وتبدو مقبلةً من قلبه. وحوّلت مع حوارنا. شيئاً فشيئاً. إلى حديث بوح. قال: "لقد بلغت التسعين منذ سنوات. ولم يتبقّ لي من حياتي سوى أن أجز خلفي في الطريقة. ويعلم الله أنّ هذا ما ظلّ يشغل كل تفكيري منذ سنوات. ولعلّ الله أمدّ في عمري إلى اليوم لسبب واحد هو لقاءك. إنّني استفتيت قلبي فأسمع منه أنّك المختار من ربّي لتكون هذا الخليفة. ومن كتاب الله أنّه "يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً". ويقول لي قلبي إنّك أوتيت تلك الحكمة...

صمت للحظات. صعقني فيها بواحدة من نظراته الهادئة الهادرة. وقال: إسمعني جيّداً. فقد منّ الله عليّ بفضلته حتّى صار مريدو الطريقة بالآلاف الموزعين على أركان الأرض. وكان ذلك قبل سنوات وسنوات. على أنّه سبحانه عاقبني فارتدّ كثيرون من الكثيرين على الطريقة. وقد ظلمت أفكر في

السبب. ولا أجد واحداً سوى أنني لم أسر على منهاج سلفي سيدي الشهيد عز الدين، قدس الله سره، وسره كان في الجهاد وقتال المحتلين. لقد فضلت جهاد النفس على جهاد الأعداء. باعتبار أن ذاك هو الأكبر وهذا هو الأصغر، ولكنني أعرف الآن أن الأكبر يأتي بعد الأصغر. والخيرة في ما اختاره الله، ولا تكرهوا شيئاً عسى أن يكون خيراً لكم، وقد يكون تأخير كل تلك السنوات كان للوصول إلى لحظة لقائنا.

وضع يده على رأسي، فقرأ الفاتحة، وأنزلها إلى يدي اليمنى، فأمسكها، وقرأ: "إن الذين يبايعونكم إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم". فتح محفظة تناولها من جيبه، بحث فيها قليلاً، ثم أخرج منها خيطاً أخضر، قطعه إلى نصفين، وناولني واحداً منهما وقال: "هذا خيط من عبادة الرسول صلوات الله عليه، احتفظ به معك دائماً ليحفظك من كل شر".

أنهى عامر، بقوله:

أمسكت بالخيط بأصبعي السبابة والخنصر، بحرص كبير، ورفعته إلى شفتي، فقبلته، وفتحت محفظتي فوضعتة هناك، ووجدت نفسي أقبّل يده، شاكرًا، ومعتزًا بالجميل. وتطلعت إلى وجهه، متأملًا تقاطيعه هذه المرة: بدا لي كثير التجاعيد، يحمل صفة المرض، فشعرت بأن برودة يده كانت تنبئني بقرب موته...

٣

أريدك أن تكون شاهداً على زوجي...

قالها على الهاتف، وطلب منّي الذهاب إليه بسرعة، بعد أن وصف لي العنوان: مخيم شنلر، عند باب مسجد الطاهري. سينتظرك شاب، ليوصلك إلى البيت. ذهبت. كان هناك شاب بانتظاري، ملتح، يرتدي الجلباب والعباءة، ويغطي رأسه بحطة بيضاء لا يعتليها عقاب. تعرّف عليّ فوراً، وقادني إلى بيت متواضع قريب.

دخلت. كانت مجموعة أحذية مرمية عند طرف الباب. خلعت حذائي، وأنا أواجه مجموعة شبان، يجلسون الفرشات الموزعة على أطراف الغرفة، يتوسطهم طاهر الطاهري. كان واضحاً أنه هو. ميّزته من وصف عامر له: لحية بيضاء تماماً، عينان خضراوان، وجه مستدير، أنف معقوف، حين همّ بالوقوف لمصافحتي بدا قصير القامة ومتلئ الجسد. سارعت إلى الوصول إليه لمنعه من الوقوف إحتراماً، لكن قامته كانت قد انتصبت فعلاً. سلّم عليّ بحرارة، وقبلني على وجنتي، ورحب بي: أهلاً بك في بيتك. أجلسني إلى جانب عامر. كان عامر يجلس إلى جانبه. قال الطاهري: على الخير اجتماعنا، وعلى الخير سنجتمع دائماً إن شاء الله الكريم الرحيم دعانا إلى إكمال نصف ديننا، وجاء في كرم القول: "من ملك منكم الباءة فليتزوّج"، وقد تعودنا.

كما علمنا حبيبنا محمد صلوات الله عليه، أن يناسب كرامنا كرامنا، فالطيبون للطيبات، وإبنتنا عامر من الكرام والطيبين، ونرجو من الله أن نكون نحن كذلك، وتمتّى علينا أن يصاهرنا بابنتنا طاهرة، ونحن لن نجد أفضل منه رجلاً محافظاً على دينه، مكرساً وقته للجهاد ولعمل الخير. نبارك لك يا عامر زواجك. وتطلّع إلى جانبه الأيمن، حيث أحد الشباب، وأمره: تفضل يا شيخ.

تنحنح هذا، ثم قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: "والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات" أخرج مجلداً ضخماً وسجل فيه بيانات الزوجين، فوقعت عليه باعتباري شاهداً، وكذلك فعل أحد الشباب، وقرأنا الفاتحة. ولم أكن شاهداً على الزواج فحسب، بل كنت شاهداً أيضاً على نقله لم أتوقعها في حياة عامر. كان يتصرف مع الشيخ طاهر منقاداً مأسوراً وكأنه طفل مطيع أمام أب قوي الشخصية. يحرّك رأسه إيجاباً مع كلّ كلمة يقولها، ويؤكد على أي موقف يتخذه دون أدنى تحفظ أو مناقشة، وكلّ ذلك حين يكون الحديث عن الدين، فيصبح معدوم الشخصية تماماً. غير أن الحال ينقلب تماماً عندما يتحوّل الحديث إلى السياسة، الذي يتولاه عامر. كان الشيخ يتحوّل إلى تلميذ مستمع، يؤيد ويؤكد، ويصبح معدوم الشخصية أيضاً. في لحظة شعرت بأنّ الزواج الذي شهدته قبل قليل ليس سوى زواج بين الشيخ وعامر.

زواج بين الدين والسياسة.

استفسر أحد الشباب عن حكم الإسلام في الأئمة الذين يكفرون المجاهدين الإستشهاديين. كان شيخ أصدر فتوى بتكفير هؤلاء استناداً على أنّه لا يجوز قتل نفس إلاّ بالحق. أجاب الشيخ طاهر بمحاضرة عن معنى الشهادة في القرآن الكريم، معتمداً على آيات كثيرة. إنتهى إلى القول إنّ الذين يكفرون الإستشهاديين هم المنافقون إخوان الشياطين. أنهى حديثه وتطلّع إلى جهة عامر. بدأ هذا بالكلام، فشرح كيف تستخدم السلطة الدين لتحقيق أهدافها، وتوسّع في شرح أهميّة العمليات الإستشهادية لتغيير موازين القوى في الأرض المحتلة. وأكد: "الأرض المحتلة ليست في فلسطين فحسب، فكلّ أراضي المسلمين محتلة، وكلّ العالم محتلّ أيضاً. إذا كان العقل الغربي اخترع مليون سلاح وسلاح لقتلنا، فهو لن يستطيع وقف شاب منا طلب لقاء ربّه، وعمل على تلقين المعتدين درساً يجعلهم يفكّرون طويلاً قبل مواصلة عدوانهم". كان الزواج واضحاً...

بين طاهر وعامر...

وقف عامر، فوقفنا جميعاً إستعداداً للمغادرة. إنحنى أمام الشيخ وقبّل يده الممدودة، وكذلك فعل الجميع، وسط دهشتي واستغرابي وتساؤلاتي مع نفسي. إستغربت أكثر بأنّ الزوج الجديد لم يصطحب زوجته.

في طريق العودة، إستفسرت من عامر. ردّ بأنّها ما زالت صغيرة على الدخول. ستبقى مع أهلها سنة أخرى حتّى تبلغ

سنّ الدخول.

سألته: كم عمرها؟

ردّ: ثلاثة عشر عاماً.

شعرت بحالة قريبة من غثيان ودوار. أوقفت السيارة وصرخت في وجهه: "مجنون. هل أنت مجنون؟ إنها في عمر حفيدة لك" ردّ بهدوء: "لم أطلب يدها. لم أطلب الزواج. فالشيخ هو الذي زوجني. ولا أستطيع رفض طلبه. الخيرة في ما اختاره الله. وأنا فعلاً بحاجة إلى ابن يحمل إسمي. لا تنس أن سيدنا محمداً صلوات الله عليه تزوّج سيدتنا عائشة رضي الله عنها وهي في التاسعة. ودخل فيها بعد فترة".

صارت علاقتي مع عامر مرهقة لأعصابي... ووعدت نفسي أن أقطعها فوراً، لكنّه فاجأني، بعد يومين بزيارة. كان مرتاحاً، لحيته مخلوقة. ويكاد الفرخ يقفز من عينيه. لكنّه كان يعبر عنه بالكتمان المفضوح. أخرج نسخة صغيرة من القرآن الكريم من جيب معطفه، وقال: ستقسم لي الآن بأنك لن تحدث أحداً بما سأقوله لك. فهو سيكون سرّاً المقدّس. سأأتمنك على ما لا تتوقعه. ولا يمكن أن تتوقعه في نهار. ولا خلم به في ليل.

أعطاني الكتاب، فأقسمت، قال:

ليس من المفروض أن أقول لك كلامي. ولكنّ الشيخ طاهر يقول لي: إستفت قلبك. وقد فعلت، ورأيت أنّه من المناسب أن تكون الشخص الوحيد الذي يعرفه، فأنا أحتاج إلى من يسمعني. وبشورني. وتعرف أنني أثق بك، وأعتقد بأنك أوتيت

الحكمة أيضاً.

أعاد الكتاب إلى جيبه. وقال: لقد فتح لي الشيخ طاهر كلّ أوراقه. فكان فيها العجب العجيب: الكتب العتيقة التي تعود إلى مئات السنوات. أعطاني ثلاثين كتاباً يتحدث كلّ منها عن التجربة الشخصية لكلّ شيخ من شيوخ الطريقة. كلّ واحد منهم كان يتحدث عمّا جرّبه في زمانه، وفي الكتب تصوير دقيق لتاريخنا كما رآه الشيوخ. وكان فيها أيضاً "كتاب الأسرار" الخاصّ بالطريقة. ولا يمكنك أن تتصوّر كم هو مرن، وصالح للإستخدام في كلّ الأزمنة والأمكنة. إنّه يترك لكلّ شيخ حرية التصرف حسب ظروف زمانه. ولقد قرأت كلّ الكتب. بل درستّها. فوجدت كم كان حكيماً من وضع الكتاب الأوّل. حين أكّد على الرموز السريّة التي لا يعرفها إلا أصحاب الطريقة للتعارف. وهذا ما حافظ على الكتب، وعلى الحركة طوال تلك القرون...

في سياق الكتب تقرأ كيف كان الجدل دائماً بين السيف والقلم. فإخوان الصفا الذين رموا السيف من أجل القلم. كانوا يتعاملون بواقعية فرضتها هزيمة القرامطة، وهؤلاء كانوا تعاملوا مع السيف والعنف. لأنّ الحوار انقطع مع العباسيين. أمّا العباسيون فلجأوا إلى الحوار والقلم حين كانوا في الحميمة، ثمّ رفعوا السيوف حين تمكّنوا. وقالوا:

والّا فارفعوا الرايات سوداً على أهل الضلالة والتعدي وقبلها كان أهل المرجئة، فأجلّوا الصدام. والتزموا الحياد. وفسّروا مواقفهم بالشعر أيضاً. وكلّ ذلك لأنّ القلم والسيف

تساويا عندهم في القيمة. قالوا:

نرجي الأمور إذا كانت مشبهة ونصدق القول فيمن جار أو عندا
لا نسفك الدم إلا أن يراد بنا سفك الدماء طريقاً واحداً جدداً
واستخدم المعتزلة القلم فكانوا عقلايين، منذ اعتزل واصل
بن عطاء حلقة الحسن البصري، وجمعوا الأفكار وصهروها في
إناء واحد، وهذا ما ساعدتهم على إحتواء الحكام، فصاروا
الحاكمين الفعليين، دون اضطرار للإنقلاب عليهم...

هي مكتبتي الجديدة، ذات الواحد والثلاثين كتاباً، وسيكون
كتاب الشيخ طاهر، الذي يشارف على الإنتهاء من كتابته،
الثاني والثلاثين، وسأكون صاحب الكتاب التالي، هي مكتبتي
الآن، وهي أكبر من كل مكتبات كل العصور.

سكت، ثم تحدث بصوت أقل انفعالاً، وأكثر حرصاً. أحسست
بكلماته تخرج من قلب متحسب، قال: لدينا نحو ألفي مُريد
موزعين في كل أنحاء الكرة الأرضية، تصوّر بعضهم من عترة
العترة، جاهزون لفعل أي شئ يطلبه الشيخ، أي شئ على
الإطلاق، والآخرين مستعدون لدعم أي فكرة، ودفع أي مبلغ من
المال، لصالح الطريقة.

سألته: وما قصة اللحية، فلا أفهم كيف يكون ولي عهد
شيخ بلا لحية، لا يمكن أن تستوي الأمور هكذا؟

قال: كان ذلك أمراً من الشيخ طاهر، فله فلسفة في هذا
الشأن، يريدني أن أكون نفسي، وأن لا أظهر أمام الناس باعتباري
الشيخ المقبل، يعرفني الخاصة فقط، إنها نوع من التقية
التخفي.

لم أفهم، فسألته التوضيح، لكنّه التزم الصمت، وأبلغني
أنّه لن يلتقيني لفترة، فهو سيكون على سفر، يأخذه إلى أرجاء
العالم، ووعدني بالتواصل بين بلد وآخر...

قال، وهو يغادر:

خسر الشيطان صديقاً..

وكسبت نفسي.

ك

هذا رجل ملئ بالمفاجآت...

في لحظات، أصل إلى قناعة أنّه يختبر في الحلل النفسي،
لكنني أكتشف، بعدها، أنّه يحمل من الصدق ما يحمله نص
مقدس، وفي لحظات، أخرى، أعيش الصدق في كلماته، لكنني
أكتشف، بعد قليل، أنّه يكاد يلامس الكذب.

كان التناقض بعينه...

بدا، ذلك اليوم، وكأنّه يبوح لي بأدق أسرارهِ، قال: أجد نفسي،
مرة، أمارس نفاقاً من نوع عجيب، ومرة ثانية، أجدها متفقة مع
نفسها، وتسير في سياق واحد، أعيش تناقضاً صعباً يؤرقني.
أظن أنني بحاجة لنصيحة منك.

لم أرد. عرفت أنه يريدني أن أسأله. ففضلت الصمت. وتركته على سجيته. لم أرد أن أشوش على تفكيره. وعلى انسياب الأفكار من ذهنه.

فاجأني بما لم أتوقعه. قال: ما زلت عضواً في الجبهة. سألته: أي جبهة تقصد؟

قال: الجبهة. ليس هناك غيرها. فأنا لم أتركها في بيروت. ولم أتركها في عمان. وأكثر من ذلك. فأنا مرشح. الآن. لمنصب قيادي.

قلت: ولكنّها على النقيض من الطريقة التي أصبحت ولياً لعهد شيخها. أنا لا أفهم. الجبهة تتبنّى العلمانية. والمادية. وخارب الغيبية. وتعيد كلّ التخلف إليها. أمّا الطريقة فتعتبر أعضاء الجبهة ملحدين. كفر. أنا لا أفهم. ظننتك تركتها منذ زمن بعيد.

أجاب: لا لم أتركها. ظللت عنصراً فاعلاً فيها. وعضواً في مجلس العلاقات الخارجية. وكنت. وما زلت. مكلفاً بالتواصل مع منظمات في الخارج. عملي سياسي وثقافي بحث. أحضر مؤتمرات وأحافظ على العلاقات مع ثوار الماضي. الذين حملوا السلاح معنا. ولكنهم عادوا إلى بلادهم. فصاروا فاعلين هناك في العمل المدني والسياسي.

سكت. قليلاً. ثم قال: ليست هنا المشكلة. المشكلة في أنني مرشح لعضوية المجلس العسكري في الجبهة. بماذا تنصحنني؟ قلت: بما يشبه السخرية: إستفت قلبك. أليس هذا ما تفعله دوماً؟

قال: لقد فعلت.

سألته: وماذا قال لك؟

ردّ: وهو يراقب ردّ فعلي: قال لي أن أمضي في ما أفعل حتّى النهاية. ففي أعماق داخلي لا أجد تناقضاً بين هذا وذاك. فكلّ تلك الأفكار والتجارب. التي مررت بها. لم تكن سوى مجرد مواد خام يمكن عجنها بطريقة جديدة..

سألته: أنت مع من يا عامر. وضدّ من؟

قال: لست مع أحد. حتّى نفسي. ولست ضدّ أحد أيضاً. أنا مع الحقيقة الواضحة. الناصعة البيضاء. والحالكة السوداء. أنا يا دكتور مع الحقيقة. إذا وجدت...

قلت: قلتها إذن... إذا وجدت؟

قال: نعم إذا وجدت. وهي موجودة بيننا دائماً. عليك فقط أن تبحث حوليك. وفي نفسك...

رددت: يا عامر. لا تلعب بالكلمات. ولا تتلاعب بها. فالحقيقة لديك كما تراها أنت. ولديّ كما أراها أنا. هل هناك وجوه للحقيقة...

كنت أستفزه...

وكان يعرف ذلك...

قال: حسناً. فالحقيقة كما تراها أنت. قل لي كيف تراها. وأريد أن اسمع كلمات واضحة صريحة. لا مجال فيها للمواربة...

قلت: حسناً. سأحدث عن حقيقتك. أنت تريد أن تجمع عنب الشام وبلح العراق معاً. تريد أن تكون شيخ الطريقة. والعضو

المهم في الجبهة، ولو وُلّيت أمورها كلّها فلن ترفض. هذه حقيقة أعرفها تماماً. ولكنك يا عامر تتناقض مع نفسك، حين لا تراها بعكس ذلك. لقد جئت إليّ على شكل باحث عن إجابة تمتلكها أصلاً. تريد فقط أن تحصل على شرعية تصرفك. فوجئت بأنّه وافقني، وقال: نعم، هذا صحيح، ولست أنكر ذلك. بصراحة، لقد سئمت من حروبي الصغيرة، حروبي الصغيرة، غير المجدية. ولقد وصلت بيني وبين نفسي إلى قناعات لن تزعجها قنبلة نووية. ليست القوة في المادّة، ولكنّها في الروح، وليست القوة في الروح، ولكنّها في المادّة. وأيضاً، فالعقل الجماعي المنظّم، ليس كالعقل الفردي المنظّم. الغرب يملك النظام الجمعي الماديّ، لكنّ الشرق يملك الروح، وتغيّب عنه العقلية المنظّمة، وعلى ذلك كلّهُ أن يتغيّر. وصار يتحدث عن الموت كثيراً...

ليس في تلك الجلسة فحسب، ولكن في غيرها أيضاً. فقد صار الموت هاجسه. كان يقول: أريد أن أموت، حين أموت. لا أن أموت وما زلت حياً. وهذا يعني أن يكون لموتي معنى. لا أن أصبح كهؤلاء الذين يمرون على الحياة كشهاب يضيع في الفضاء، ولكن كنجم هوى على الأرض، فأعاد إنتاجها...

وكنّت أشعر به يتحدث وكأنّه شخصية في رواية يكتبها، فيخلط بين ما يفكر به، وما تفكر به شخصياته، كانت المسافة بين الواقع والخيال تنقلص مع عامر حين يتحدث عن الموت ومعناه، وتختلط بشكل محبّر حين يفترض نفسه منذوراً لشيء كبير، وحين يعود إلى الأرض فيناقش فكرة واقعية...

كان يتحدث أحياناً عن معركة هارماجدون الفاصلة بين الخير والشر، وكأنّها فكرة إسلامية، وحين كنّت أتدخل فأعيده إلى أصل الفكرة، كان يُوارب في الحديث، فيعتبر أنّ التاريخ حوّر، وأنّها ليست سوى فكرة ظهور المهدي المنتظر، ويزاوج بشكل غريب بين الأعور الدجال، والمسيح المنتظر، ونهاية العالم، وتؤلّف ولا تؤلّفان، والنبوءة...

فطوال حياته، كان عامر يعيش في عالم من الأسئلة، من ذلك الذي حيّره حول مكان عصا موسى، إلى علاقاته النسائية الباحثة عن الحب، إلى البرازخ التي اعتبرها مكان توحيده مع الغيب، إلى الظلم الذي صار يُغلّف كلّ شيء بشعارات مفضوحة، إلى الحقائق غير المعترف بها...

كان طوال حياته غارقاً في الأسئلة، في إنارتها وفي العيش فيها، وفي تلك الفترة، كان بدأ يقدّم إجاباته هو، بطريقته الخاصة، وكما اختلطت الأسئلة طوال العمر، كانت الأجوبة تختلط أيضاً.

صارت العلاقة بين السيف والقلم تسيطر عليه، سجّلت مرّة ما قاله بسرعة، كان يحدث نفسه: كوني سيفاً يا عصاي، ولا تعصيني. كوني سيفاً، فبالسيف وحده تحكم الدنيا، وبه كان لنا شأن بين الأمم، ولو لم يكن السيف لما صارت لنا الدنيا يوماً، ولو لم نتخلّ عنه، لظلت لنا. بالسيف تُفتح الدنيا، وبالقلم تُكرّس الفتوحات...

٥

صرتُ شيخاً...

خليفة...

إماماً...

صرتُ مسؤولاً أولاً عن الحركة...

كان يقولها بفرح طفل حصل على لعبته، ودهشة مكتشف وصل إلى ضالته، ولهفة مبيت عاد إلى الحياة. لم يعطني أدنى إنطباع بالحزن على الشيخ طاهر، ولم يكف خاطره بكلمة واحدة، ولو على سبيل المجاملة، تُبين أنّ في داخله شعوراً بفقدان رجل صار بالنسبة له في مقام الأب. قلتُ له، بيروود: مبروك.

قال، وقد خفف من نبرة فرحته: وتكريسي كان سلساً لم تشبه منقصة واحدة. مات الملك، عاش الملك.

كنتُ قرأت نعيّاً صغيراً في الصحف، قبلها بأسبوع، يُفيد بموت الشيخ طاهر، ويعلن تقبّل العزاء في بيته. ذهبت على أمل لقاء عامر، لكنه لم يكن هناك، ولم يجب أحد على أسئلتي عنه. كان المعزّون خليطاً من الشيوخ والشباب الملتحين.

سألته: ولكنك لم تحضر العزاء. أين كنت؟

قال: كنتُ مسافراً، ووصل إليّ الخبر في اليوم التالي لوفاته، فعدت. المهمّ الآن أنّني أريدك أن تكون مستشاري. أنت

مستشاري فعلاً. منذ زمن، ولكنني أريدك الآن أن لا تبخل عليّ بنصائحك، أبداً، وتظلّ صريحاً معي حتى النهاية، فكيف لي أن أتصرف. لقد قال لي الشيخ طاهر: إستفت قلبك.

لست أفهم ماذا كان يريد عامر منّي؟ هل كان يقنعني ببطء بطريقته؟ هل كان يريدني أن أكون سجلّ تاريخه؟ فعملياً، أنا لم أكن مستشاره في يوم. صحيح أنّه كان بوجه لي الأسئلة، لكنّ الصحيح، أيضاً، أنّه كان يجيب عليها.

صرنا نلتقي بدون ترتيب مسبق، يُهاتفني فأذهب إليه، أهاتفه، لأكتشف أنّه مسافر، لكنه حين يكون موجوداً بأنيني فوراً. صار واضحاً أنّه يريد أن يقول كلّ شيء في أقصر وقت. أفهم، الآن، أنّه كان يريد الإنتهاء بسرعة، للتفرّغ إلى أعمال أخرى...

وفي تلك الأيام، كان دخل في مرحلته الأميركية، يتراسل عبر البريد الإلكتروني مع عرب في أميركا، ربّما أعضاء في الحركة أو الجبهة، ويقرأ الصحافة الأميركية عبر الإنترنت، ويستغرق في دراسة الأدب الأميركي، ويدرس الجغرافيا الأميركية، ويناقش السياسة الأميركية. جاء مرةً مشحوناً حتى آخره بالغضب، قال:

هدسون...

والأطلسي...

نهر، ومحيط...

لقاءً وابتعاداً عالمين كاملين، جديدٌ وقديم، واجتماعٌ وفراقٌ عجيبان للماضي والحاضر والمستقبل، وتمازجٌ غير متناسق بين

رموز هذا وذاك وذلك، في لوحة ترمز إلى ما بعد الحداثة، تختلط فيها الألوان والخطوط والمثلثات والمكعبات والدوائر والمستطيلات، فلا تعرف أولها من آخرها، وخار في كيفية تعليقها على حائط...

ظنه الفرنسيون تكريساً لمعنى الحرية، فزرعوا التمثال هناك، واعتقد العبيد الأفارقة أنه المعتقد فصنعوا هارلم قريباً من ضفافه، على سفينة واحدة، وصل إلى هناك دون كورليوني وجبران خليل جبران وغولدا مائير، واحد يحمل في جيبه مسدساً وعصاة، وآخر كتب في ذهنه أول جملة في كتاب النبي، وثالثة جعلتها محطة في طريق دمار المسجد بحثاً عن الهيكل.

وكنْتُ هناك...

عند البرزخ العجيب...

أحضر في برودواي دخول طائرة إلى مسرح، وكأنها ساحة قتال فيبنتامية، وأشاهد فيلماً سينمائياً يقتل فيه رجل سكان مدينة، وأنامل مشردة تأكل من حاوية زبالة، ومشردة يحرق حاوية أخرى ليحصل على قليل من الدفء، كنت هناك، أراقب الطائرات تدور من حولي فوق مركز التجارة الدولي، قريباً من السماء، وأدور بعيني حولي لأرى البنايات السبع التي تمثل مصر الدماء، وأتطلع إلى تحت، ومن بين سحب الضباب، إلى البرزخ، وأتذكر قصيدة أدونيس: قبر من أجل نيويورك...

وهو برزخ غريب، هذه الأيام، لكنه كان برزخاً حقيقياً، يحمل قداسة التوحد، قبل مئات السنوات، فعرفه الهنود الحمر،

واحترموا سره، وخبره الأديب الأميركي الحقيقي، واشنطن إيرفينغ حين قال: "إذا كان ثمة مكان في العالم أريده ملاذاً لي، فليس هناك سوى هذا المكان، سليبني هوللو، بعيداً عن الضجيج"، وسليبني هوللو هو الإلتقاء، هو البرزخ، كان يجلس هناك ويتأمل، ويقول: "أين هم أبائنا وأنبيأنا، هل سيعيشون إلى الأبد"، إيرفينغ الذي يسمونه أب الأدب الأميركي هو الذي كتب عن سيدنا محمد والخلفاء، ولو فهم ما يعنيه البرزخ الذي عاشه فعلاً، لصار مسلماً، هناك، بالضرورة، كتب رالف وودرو إميرسون، قصيدة "البراهما"، وهو روح الكون وجوهره في الفلسفات الهندوسية، وقال فيها:

إن ظنَّ القاتلُ الأحمرُ أنه يَقْتُلُ

أو ظنَّ المقتولُ أنه يَقْتُلُ

فهما لا يدركان كنه تدابيري

التي أمسك وأطلق وأسير

قلت: لكنك يا عامر لم تخبرني أنك زرت أميركا؟

سكت...

ألححت عليه: عامر، متى سافرت إلى أميركا؟

قال: لا أستطيع الحديث معك بهذا الأمر بالتفصيل، ولكنني زرتها، وزرت غيرها، وفي السنة الأخيرة جُبت العالم، وبجوازات سفر مزورة، أميركا هي الأميركيون، إنهم يعيشون الكارثة في دواخلهم، ويبحثون عنها، ويتوقعونها، لأنهم يرونها لدى الآخرين، ويعرفون في دواخلهم حجم الكارثة التي أوصلوا الدنيا إليها، ولذلك عليهم أن يروا أنه من الممكن أن تأتيهم من حيث لا

يتوقعون. هذا فقط ما سوف يجعلهم يستيقظون...

كان عاد للتو من مشاهدة فيلم أميركي يتحدث عن الإرهاب الذي وصل إلى وسط أميركا. مخترقاً كل الحدود التقليدية. شعرت به يتحدث بانفعال غير مسبوق. قال:

أميركا هي الفرصة التاريخية للإنسانية، التي أضاعها الأميركيون. حين فصلوا أنفسهم عن الإنسانية، جسداً وروحاً. إنني أتصور أميركا قارة لم تكن موجودة أصلاً. وزرعها الله في البحر، بعد الخلق بملايين السنوات، لإختبار الانسان. عد إلى التاريخ وتأمل معنى إكتشاف القارة في ذلك الوقت. كان العالم يعيش فترة حؤول تاريخية. المسلمون يخرجون من الأندلس، غرب أوروبا. والمسلمون يدخلون القارة الأوروبية من شرقها في استانبول. والمسيحيون غارقون في خلافات لم يتسع لها العالم القديم. ومعادلات الصراع بين العقل والجهل تملأ العالم. وفجأة وصل كولومبوس إلى هناك، وكأنه كان يكتشف أرض إختبار البشر. الفردوس الجديد الذي لن يكون الإختبار فيه على شكل تفاحة وشجرة ورجل وامرأة وإبليس وحيّة. بل على شكل القدرة على إعادة بناء الإنسانية من جديد. إعادة إنتاجها من جديد. هي الفرصة الضائعة على البشر جميعاً. لأنّ أسوأ ما في القديم ذهب إلى هناك، وأحسن ما في القديم ذهب إلى هناك أيضاً. ولم ينتج صراعهما سوى إعادة إنتاج الشر من جديد...

لم يكن عامر يتحدث إلي...

كان يتحدث إلى نفسه...

الأميركيون مغرمون بالمباني الكبيرة، التي تثبت عظمتهم

لقد جاؤوا من كل مكان. وكل مهندس أت من مكان أراد إثبات عظمة المكان الذي يعيش به، على حساب ذلك الذي ولد فيه، أو ينتمي إلى ثقافته السابقة. ومن خلال استحضار الصورة التي أتى منها. تصوّر أنني رأيت بنايات كثيرة تضع وقت تأسيسها ١٩٩٥ بعد الميلاد مثلاً، وكأنهم يريدون أن يقولوا إنّ التاريخ عندهم. يكتب سطره من جديد. ليبدأ مرة أخرى.

وأخذ يعترف، دون أن أسأله:

نعم، لقد سافرت كثيراً. قالها بلهفته التي صرت خبيراً بها. وأضاف: وزرت باريس ورأيت. رأيت حجر ميشع في اللوفر. وكدت أداعبه بيدي. لكنّه كان خلف الزجاج. غير إني دأبت لوحة الرأس المقطوع "يوحنا". وهناك في اللوفر لم أملك إلا أن أتذكّر أنّ أوروبا سرقت منا ما وجدت من ماضيها. وأن أميركا تسرق ما تبقى منه. وتسرق أيضاً حاضرها ومستقبلنا.

الله، يا دكتور كم نحن عظماء... أقصد، كم كنّا عظماء. نحن نعيش في أرض يحسدنا عليها العالم، لكننا لسنا جديرين بها. لدينا الجغرافيا والتاريخ. وليس لدينا الحاضر.

إسمع ماذا كتب ميشع على الحجر: قال لي كموش: إذهب وخذ نبو من إسرائيل. فذهبت في نفس تلك الليلة، واشتريت بالمدينة من وقت تبين الخيط الأبيض من الأسود حتى الظهر وافتتحتها. وذهبت كل سكانها. وعددهم سبعة آلاف. رجالاً وصبياناً ونساء وبنات وإماء.

لو جاء لي ولد لسميته ميشع...

قالها بحرقة. وتابع اعترافاته التي كان يبثها لنفسه، لا لي.

ويتدقق كما لو أنه لن يُقدّر له أن يقول الكلام نفسه مرة أخرى. كما لو كان يُسجّل عندي دفاعه عن نفسه، في محكمة لن يُتاح له حضورها. قال:

وسافرت إلى وارسو، أيضاً، فوجدتها مدينة مختلفة، غير تلك التي قضيت فيها في شبابي أشهراً جميلة. إنها الآن مدينة محتلة. لقد احتلها الأميركيون تماماً. تصوّر أن تلك المدينة التي كان حلف عسكري كامل يحمل إسمها رمزاً لمحاربة العصر الأميركي، صارت مركز الدعاية والدعاية الأميركية. خوّلت إلى محطة لهم حين يريدون الراحة، لقد أدّلوها بالدولارات. كنت أعود إلى غرفتي في الفندق لأجد عشرات المطبوعات التي تعلن عن بغايا بكلّ الأشكال. وكلّ شيء بالدولار. اشتري الأميركيون كلّ شيء هناك، من الأسواق والمتاحف حتى النساء.

وزرت برلين الموحدة، وتذكّرت أيامي في برلين الشرقية، وشاهدت الكذبة الأميركية الكبيرة، فقد إنهار الجدار الفاصل فعلاً، ولكن على رؤوس الناس. لا تصدّق أن برلين باتت موحدة، فهناك جدار نفسي أقوى من ذلك الجدار الذي حطّمه الأميركيون، يفصل بين برلين وبرلين...

وزرت بانكوك، المحطة التي كانت للترفيه عن الجنود الأميركيين القتلة في فيتنام، وشاهدت الجنود الذين خوّلوا إلى رجال مال وأعمال. الأميركي هو الزبون الدائم لبغايا شارع بات بونغ، وكذلك في الشارع الأحمر في أمستردام، والبيغال الباريسي. تصوّر أن الاحتلال الأميركي لفرنسا، الذي جاء على شكل جيش تحرير لم يترك هناك إلا نادياً ليلياً يحمل إسم

"الكريزي هورس"، تتعرّى فيه الباريسيات للأميركيين، ومحطة للمترو في الشانزلزيه حملت إسم فرانكلين روزفلت، ومقبرة للجنود الأميركيين السود في النورماندي... عن أي شيء تريدني أن أتحّدث، والعالم صار مستعمرة أميركية. عن براغ التي تجاور فيها محطة "صوت أميركا" الموجهة إلينا دعايتها السوداء أعظم المتاحف. عن سننغاغو التي تذكّر الهندي بصمت، حين ترى العملة التشيلية ريشة في مهبّ رياح الدولار. عن عواصمنا التي صارت فيها السفارات الأميركية أكبر من قصور الحكّام. عن مكّة التي يحمل ملهى ليلي في لندن إسمها.

قلّ لي، بالله، عليك:
عن أي شيء تريدني أن أتحّدث؟

٦

...وكيف كان لي أن أعرف أن عامر ظلّ يوجّه لي الإشارة، تلو الأخرى، حول نيّته تفجير مكتبة الكونغرس؟ كيف كان لي أن أفسّر كلامه حول أن أفضل مينة له ستكون بين الكتب، تماماً كالجاحظ الذي وقعت عليه مكتبته؟ وهل كان لخيالي أن يكتشف مراده لمجرّد أنّه ردّد أمامي أنّه يريد أن يختار بنفسه

طريقة موته، وأنه يريد لها أن تحمل معنى رمزياً كبيراً. تاريخياً؟ كيف كان لي أن أفهم هذا كله، وأربط بينه، وخصوصاً تركيزه دوماً على دور الحدث في التاريخ، إذا ارتبط بالفرد؟ كان عامر مهووساً بفكرة إمكانية تغيير مسار التاريخ، لسبب حادث واحد، خصوصاً إذا كانت الظروف الموضوعية مناسبة. كان يشبه الأمر برمي حجر في بركة راكدة، فبعدها يكون الماء قد تغير مكانه، ولا شيء يمكنه أن يعيده الى الوضع السابق.

بل، وأكثر من ذلك...

سألني، مرة: ما هي برأيك أهم ثلاث مكتبات في التاريخ؟ أجبت: مكتبة الاسكندرية، ومكتبة بيت الحكمة في بغداد... وتوقفت، وقلت: لست أعرف الثالثة؟ قال: مكتبة الكونغرس طبعاً!

قلت: ولكنها مثل غيرها، فالعواصم الكبيرة لا تخلو من مكتبة مشابهة.

ردت بسرعة: طبعاً، قد تكون هناك مكتبات في حجمها، ولكنها ليست مثلها، فهي تشارك مع المكتبتين التاريخيتين الآخرين بأمر مهم: إنها ترمز الى مرحلة تاريخية معينة، في الإسكندرية كانت ترمز إلى التقاء حضارتي الشرق والغرب معاً، وفي بغداد كانت ترمز إلى حضارة الشرق، وفي الكونغرس هي ترمز الى الغرب...

وأضاف، بعد تركيز: وكان سقوط مكتبة الإسكندرية يرمز إلى سقوط التعايش، واختلاط حبر كتب بغداد بمياه دجلة رمز

إلى انهيار عاصمة الشرق أمام شرق آخر... وسكت...

وما مناسبة الحديث يا عامر، ماذا تريد من كل ذلك؟ قلت. قال: حين تسمع عن دمار مكتبة الكونغرس، فاعرف أن الحضارة الأميركية قد سقطت، أو في طريقها إلى السقوط. كلام عادي، يحمل شكل التنظير، التمرين الذهني، الآتي من مثقف، ثوري، يساري، إسلامي، وليس أكثر من ذلك. هذا ما خرجت به من انطباع، لم أفكر بالأمر أكثر من ذلك...

وكيف لي أن أفعل، وقد تطرق إلى موضوعات مشابهة كثيرة، فقد أخذ مرة يفكر بصوت عال، ويستعرض رموز أميركا، واحدة واحدة، الإمبريالية ستيت، جسر السكاي واي، مقر السي آي ايه في لانغلي، مبنى البنتاغون، هوليوود، البيت الأبيض، لكنه لم يصل الى قناعة أن أيّاً منها يرمز الى أميركا، بل اعتبرها تعبيراً عنها فحسب. ثم قال: الإعلام هو رمز أميركا، وسطوتها، وقوتها، فبه فقط دمّرت جدار برلين، وبه تتحكم بالدينيا، وليس بالدبابات فقط. لكن المشكلة أن الإعلام الأميركي ليس موجوداً في مكان واحد، في بنائية واحدة. تصوّر لو كان موجوداً في مكان واحد ودمّر ذلك المكان فجأة، ماذا سيحصل؟

لم يكن يوجّه لي سؤالاً. أعرف الآن أنه كان يفكر بصوت عال، وأنه كان يرصد ردود أفعالي، لقياس حجم فكرته.

لم أفكر، أبداً، في إمكانية أن يكون عامر وصل الى قناعة بما كان يقول، بل إلى قرار بالأمر. قال: مكتبة الكونغرس التي تسمع عنها هذه الأيام، ليست هي المكتبة الأصلية، فتلك كان

الإجليزية قد أحرقوها في العام ١٨١٢ خلال حرب الإستقلال. تصوّر أنّ الإجليزية دمّروا رمز الثقافة الأميركية الناشئة، الذاهبة إلى الحرية والتحرّر، في محاولة لئونها في مهدها، وها هو التاريخ يعيد نفسه، على شكل تبادل الأدوار، فأميركا اليوم هي إنجلترا الأمس. كانت تلك المكتبة، في الماضي، ترمز إلى التحرّر فدمّرها الإجليزية، وهي ترمز الآن، إلى الإستعمار الجديد، لهذا ينبغي حرقها، وليبدأ الأميركيون بينها على الشكل الأول، شكل الحرية والعدل والمساواة.

وراح يشرح، دون أن يعطي كلامه معنى الجديدة: لقد زرت المكتبة، وهي عبارة عن ثلاث بنايات منفصلة، ولو كان لي أن أختار الهدف لكان بنابة جيمس ماديسون، فهي تتكون من سبعة طوابق، وتعرف قداسة الرقم سبعة، من السماوات السبع التي تباعد بين الأرض والعرش الإلهي، إلى الأيام السبعة التي خلق فيها الله العالم، إلى النجوم السبع التي تكوّن درب التبانة، إلى السبع السمان والعجاف لسيدنا يوسف، إلى رموز مقدّسة كثيرة. ولو كان لي أن أختار الطريقة، فسوف أضع متفجّرات في إثني عشر كتاباً، وأوزّعهم على أنحاء المكتبة، وتعرف قداسة الرقم ١٢ أيضاً، من الائمة الإثني عشر، إلى القبائل اليهودية الإثني عشرة، إلى رفاق المسيح في العشاء الأخير، إلى سيدنا يوسف وأخوته الـ ١٢، إلى وإلى وإلى. ولو كان لي أن أختار الموعد، فسيكون يوم السابع من كانون الأول، الشهر الثاني عشر، أو يوم الثاني عشر من تمّوز الشهر السابع، وكلّ ذلك بشرط أن تتوافق التواريخ مع كون القمر في ازدياد، لا

في تناقص. هل تعرف أنّ كتاب النبي لجران ما زال الأكثر مبيعاً في أميركا، وهل تعرف أنّ السفينة، التي جاءت لتعيد النبي إلى جزيرة ميلاده، وصلت في اليوم السابع من شهر الحصاد، من السنة الثانية عشرة لوصوله.

وأسرّ لي عامر بطريقته في إعادة تنظيم الحركة، فقد اختار إثني عشر أختاً فقط، اعتبرهم القيادة المركزية، وجعل كلّ واحد منهم يختار سبعة أخوة يرتبطون به، ليكونوا جميعاً المجلس المركزي، وكلّ واحد من هؤلاء يكون مسؤولاً عن إثني عشر أختاً، وهكذا...

وقال إنه فضّل لأعضاء الحركة العمل أربعة عشر يوماً في الشهر الهجري، في فترة ازدياد حجم القمر، فهذه هي الأيام المباركة للعمل، ويفضّل للقرارات المهمة يوماً السابع والثاني عشر من الشهر، أمّا الأيام الأخرى فللتعبّد والقراءة...

كان يبني لنفسه فلسفته الخاصة، طريقته، قال: لقد جرّبت كلّ الطرق التي استطعت الوصول إليها، وتلك التي وجدتّها في الكتب، واستجوبت الناس، وأستطيع أن أقول لك إنّها كلّها تنتمي إلى الماضي، علينا أن نخترع الطرق الجديدة في التعبير، وفي التغيير، علينا أن نأتي برموز الماضي المقدّسة، ونطبّقها على الواقع الحالي، ونكون نحن السبب في سبيل نتيجة نبيلة. وأتى بكتاب العهد القديم، وفتحه على صفحة طوى طرفها، وأخذ يقرأ منها:

"وكان البيت غاصّاً بالرجال والنساء وكان هناك جميع أقطاب الفلسطينيين وفوق السطح نحو ثلاثة آلاف من الرجال

والنساء بتفرجون على شمشون وهو يلعب، فدعا شمشون ربه وقال اللهم يا رب أذكرني وشددني هذه المرة أيضاً يا الهي لانتقم لعيني من الفلسطينيين نقمة واحدة، ثم قبض شمشون على العمودين اللذين في الوسط القائم عليهما البيت واتكأ عليهما أخذاً إحداهما بيمينه والآخر بشماله، وقال شمشون لتمت نفسي مع الفلسطينيين وانحنى بشدة فسقط البيت على الاقطاب وعلى جميع الشعب الذي في البيت فكان الموتى الذين قتلهم في موته أكثر من الذين قتلهم في حياته".

سكت قليلاً، ليرى حجم ردّ فعلي، ثم واصل: كان شمشون أول إستشهادي في التاريخ الإنساني، حين قال: عليّ وعلى أعدائي، وقد كنّا في تلك الحادثة نحن الأعداء الذين قُتلوا. تصوّر أن تقتل أكثر من ثلاثة آلاف شخص في لحظة، وتعيد صياغة التاريخ. لقد مات شمشون، لكنّه جعل لميته معنى، ليس كسليمان الملك، الذي كلّم الطير، وفعل المعجزات، لكنّه مات على مقعده، ولم يعرف الناس أنّ عزرائيل أخذ روحه إلّا عندما أكلت الأرضة عصاه، فوقع على الأرض. كانوا يظنّون أنّه ذاهب في رحلة تفكير، متوكّئاً على عصاه. نعم، أريد ميتة ذات معنى، ولو كان القرار بيدي لجعلت المعبد هو مكتبة الكونغرس.

ولاحظ عامر ذهولي، فغيّر في الموضوع، صار يتحدث عن راهب مسيحي أميركي زار الفحيص مبشراً، في القرن الماضي، فلم تعجبه مسيحيّتنا، ولا مسيحيينا، فكتب لرؤسائه عنهم أنّهم مسلمون يلبسون الصليب. وقال: لم يتغيّر شيء، وحتى

الدين الذي يعتمدونه، والذي جاء من عندنا، يسرقونه، ويعطونه نفسيراتهم الخاصّة. علينا أن نوقظهم، بصفعة على وجوههم...

V

كان كلّ شيء مصوّراً...

ثانية ثنائية...

منذ دخل عامر إلى المكتبة، يحمل ستّة كتب ضخمة، ويتوكّأ على عصا، يتبعه التلحمي، حاملاً ستّة كتب مشابهة، مجتازين الحاجز الأمني بسهولة، فالكتب لا تفتّش. بعد الحاجز وقف وحادث التلحمي مدّة سبعة وعشرين ثانية، إلّ نقط المايكروفون المضحّم جملة واحدة من حديثهما بشكل واضح، والباقي عبارة عن كلام غير مفهوم. كان عامر يقول، بلهجة واثقة: سنلتقي هناك، توكلّ على الله، معنا ساعة ونصف الساعة فقط.

إفترق الإثنين. صعد عامر إلى الطابق السادس، تجوّل في أنحائه، بين طاوولات الكافيتيريا، ثمّ وقف في صفّ طويل أمام حاجز المبيعات، إشتري فنجاناً من القهوة الأميركية، إقترب من

فتاة تجلس وحيدة عند طاولة من أربعة مقاعد. التقط المايكروفون الحوار. سألها بأدب: هل أستطيع الجلوس. أجابت: نعم. المقعد غير محجوز. وضع الكتب والفنجان على الطاولة وجلس بداعب عصاه. إرتشف قليلاً. وقال باسمًا: هذه ليست قهوة. القهوة الأميركية ليست أكثر من ماء محلول بطعم البن. ضحكت الفتاة. تشجّع عامر. وقال: قهوتنا أفضل. بدا وكأنه يدفعها لسؤاله. سألت: من أين أنت؟ ردّ: عربيّ. وأنت؟ قالت: أنا من هنا. من واشنطن. ظننتك من أميركا اللاتينية. تطلّع نحو كتاب تضعه على الطاولة. وقال: هل تدرسين الإخراج السينمائي؟ أجابت: بل أدرسه. سألها: طال ما أردت سؤال معنيّ بالسينما الأميركية عن أزمة الموضوعات. كنتم أفضل في الماضي؟ قالت: في الحقيقة هذا موضوع رسالتي للدكتوراة. وأظنّ أنّ الأزمة تتعلّق بالمجتمع الأميركي كلّهُ. بصراحة. أنا أدرس الآن السينما الصامتة. وصرت أفضلها على غيرها. صمتت لحظة. ثمّ قالت: سيعرضون فيلمًا من السينما الصامتة في الطابق الرابع. بعد نصف الساعة. أنصحك بمشاهدته. تطلّع إلى ساعته. حمل كتبه. وهمّ بالوقوف متوكّئاً على العصا. وقال: أعذريني. عليّ أن أعيد هذه الكتب إلى مواقعها الأصلية. سأحاول أن أشاهد الفيلم. تجوّل قليلاً في الطابق. وفي زاوية من مجموعة رفوف تضمّ كتباً رمزية حول النظام السياسي الأميركي. وضع كتاباً. عاد وجوّل قليلاً. ثمّ نزل إلى الطابق الخامس.

تجوّل. وحادث فتاة سوداء. التقط المايكروفون المضخم الحديث

التالي. عامر: مالكم إكس. هل ما زلتم تذكرونه؟ كانت تحمل كتاباً عن الناصر الأسود. ردّت: وهل يمكننا أن ننساه؟ وقالت: وأنت ما هذه الكتب التي تحملها؟ ردّ: كتب مختلفة. تاريخية. جغرافية. سياسية. مستقبلية. قالت: وهل أستطيع أن أراها؟ ردّ: هي بالعربية. ولن تستطعي قراءتها. ردّت: هذه عصا جميلة. من أين اشتريتها. قال: هي عصا موسى. وجدها في جبل نبوّ. حيّاه. وجوّل قليلاً. وضع كتاباً في رفّ في قسم حقوق الملكية. ونزل إلى الطابق الرابع.

تجوّل قليلاً. وتوجّه نحو رجل هندي أحمر. ذي شعر طويل. يربط رأسه بخيط جلدي رفيع. حيّاه. وحادثه: تي إس إليوت. هذا شاعر عظيم. هل تتضمّن المجموعة "الأرض الخراب"؟ ردّ: نعم بالطبع. سأصوّرها وأعيدها. قال عامر: لدينا مثل عربيّ يقول: إنّ لم تخرب لن تعمر. فكّر به وأنت تقرأ القصيدة. حيّاه متمنياً له يوماً طيباً. وقراءة ممتعة. وذهب إلى رفّ يضمّ كتباً من الأدب الأميركي الحديث. ووضع كتاباً هناك. تطلّع إلى لوحة كتب عليها: مسرح ماري بيكفورد. توجّه إلى جهتها. شاهد طابوراً لأشخاص أمام نافذة لبيع التذاكر. وانتبه إلى وجود الفتاة التي جالسها في الكافيتيريا. ذهب إليها. وتمنّى أن تشتري له تذكرة. وافقت. فأعطاه النقود. دخل معها. بدأ الفيلم فوراً. كان بالأسود والأبيض. قال للفتاة: أنا كاتب. ولديّ رواية تحمل إسم "أسود وأبيض". ردّت: حقاً؟ وعادت لتابعة الفيلم. قال لها وهو يهتمّ بالوقوف: لو ظلّت السينما الأميركية صامتة لكان ذلك أفضل للعالم. وخرج وسط استهجان الحاضرين من عدم

احترامه للأجواء. نزل إلى الطابق الثالث...

جَوَل قليلاً، وشاهد رجلاً يعتمر القبعة اليهودية الصغيرة، فتوجّه نحوه. إلتفت عيناها، فتحسّبت اليهودي. كانت ملامح عامر عربيّة واضحة. قال له: هل تستطيع أن تساعدني. أنا أبحث عن قسم التاريخ القديم؟ لم يردّ. أدار وجهه عنه بما يشبه الإحتقار. قال عامر: على الأقلّ، أجبني. فأنا لن أعصّك! قال اليهودي بسرعة: ليس هذا هو القسم. أنت موجود في قسم القانون. لم يشكره عامر، فأدار جسمه وتوجّه نحو رفّ ووضع فيه كتاباً. ونزل إلى الطابق الثاني.

جَوَل قليلاً، وتوجّه نحو سيّدة عجوز تحدّثت للتوّ إلى موظف الإستعلامات. بدا من لهجتها أنّها أميركية جنوبية، لعلّها من تكساس. حيّاها، وقال لها: أعذريني سيّدي، فأنا محتارّ بين موضوعين. هل تستطيعين مساعدتي؟ ردّت: نعم أيّها الشاب، ماذا تريد؟ قال: لديّ نصف ساعة فقط، وأريد أن أقرأ شيئاً يفيدني، وأفكر في أمرين: دراسة عن الإعلام الأميركي، أو متابعة صور لوحات مختارة من الفن الأميركي الحديث؟ ضحكت، وقالت: كأنّك تختبرني. شاهد اللوحات، ولا تُضع وقتك في الحديث عن الأكاذيب. ولكن قلّ لي من أين أنت؟ قال: من الشرق الأوسط. قالت: آه، لطال ما تمنيت أن أزور بيت لحم. قال: أنا أعيش بالقرب منها، ولديّ صديق هنا، يتجوّل في المبنى، ولّد فيها. سألته: هل أنت يهودي؟ قال: لا، أنا عربيّ. تأمّلت، وقالت: أعذرنني على فظاظتي، ولكن ألا تستطيعون التفاهم في الشرق الأوسط، لماذا تريدون إلقاء إسرائيل في البحر؟ ردّ: لأنّهم

يريدون إلقاءنا في الصحراء، وكلّ الشكر لدعمكم لهم. إستأذن منها، وذهب إلى رفّ يضمّ كتباً عن الإعلام الأميركي، فوضع كتاباً بينها. ونزل إلى الطابق الأوّل، الأرضي، إلى حيث بدأ... عند منتصف الدرج، إلتقطت الكاميرا صورته وهو يغمرز التلحيمي. كان هذا يصعد إلى الطابق الثاني، متأبطاً ثلاثة كتب. إكتفى صديقه بأن ردّ بإيماءة من رأسه، وتربّيته من يده اليمنى على الكتب.

جَوَل عامر قليلاً في الطابق الأرضي، وشاهد لوحة تُعلن عن قسم الرعاية الصحيّة، دخل إلى هناك. إستوقفه شاب يحمل رزمة من مطبوعات ملوّنة، فسألته واحدة. تأمّلها عامر، وأعادها إلى الشاب، قائلاً: لست بحاجة إليها، أنا أت من منطقة لا تعرف مرض الإيدز. ردّ عليه الشاب: هذا جيّد، ولكن قد تعرفونه مع التطوّر الطبيّعي، فنحن لم نكن نعرفه قبل ثلاثين سنة. قال عامر: إذا كان ذلك التطوّر سيوصلنا إلى الإيدز، فنحن لا نريده. شكرأ، دعها معك، فقد يستفيد منها واحد غيري. واحد منكم. أدار جسمه، وعاد إلى باحة المدخل، متوجّهاً نحو الإستعلامات. وقف أمام الحاجز الخشبي، دقائق قليلة، يتأمّل الداخلين والخارجين. سألته موظّفة تقف خلف الحاجز: هل أستطيع خدمتك؟ ردّ بهدوء بالغ: نعم إذا سمحت، فأنا أحمل كتاباً خطيراً، أريد أن أعرف ما إذا كان لديكم نسخ منه؟ إقتربت منه، وضع عصاه على الحاجز، وفتح الكتاب، من منتصفه، ووضعه أمامها. بدت مجموعة من الأسلاك الملوّنة المربوطة ببطارية. جفلت، وابتعدت خطوة إلى الوراء، وصرخت: ما هذا؟

وقالت بصوت قريب من الصراخ: هل هذه مزحة من نوع ما؟
 إننبه موظفو الإستعلامات الآخرون. وبعض المتواجدين
 حولهما رد: لا، هذه ليست مزحة، فهذه متفجرات، والمبنى
 مليء بمثلها. بكبسة زر ستنفجر جميعها. أعطني المايكروفون.
 جاء شرطي مسرعاً، فأوقفه عامر: لا تقترب، سأفجر المكان. لا
 أريد إيذاء أحد. عاد وتوجه بحديثه إلى الموظفة: فقط أعطني
 المايكروفون. تطلعت نحو الشرطي. فأشار بيده لها بالموافقة.
 كان الشرطي تلقى أمراً فوراً من أمره في الخارج. أمسك عامر
 بالمايكروفون بيده اليمنى، والكتاب باليسرى. تنحنح وقال:
 إننبهوا إليّ. أرجوكم، إننبهوا إليّ. المكان ملقّم، أرجو المغادرة.
 وظلّ يعيدها مرّات ومرّات.

في البداية، خرج الناس بنظام، بسير سريع، ثمّ بهرولة. كانوا
 يصلون إلى حيث عامر، يمّرون إلى جانبه فيرمونه بسهام
 عيونهم المتسائلة، مرّة، المتسوّلة، مرّات، المحتفزة في الباقي. ثمّ
 عمّت الفوضى المكان. تدافع الناس بشكل جنونيّ، موجة تلي
 أخرى. تتكسّر واحدة على الثانية، فيبدو الهاربون في الأولى ماء
 يُهاجم الصخر، ويبدون في الثانية ماء ارتدّ من صخرة صلبة.
 صار الصراخ يعمّ المكان. صراخ غاضب مرّة، وخائف، مرّات.
 ركّزت الكاميرا عدستها، في الفيلم الذي عمّم وشاهده العالم
 على التلحمي الذي وقع على الأرض مع مجموعة متدافعة من
 الناس. ثمّ وقف وبدأ بمساعدة الناس على الوقوف، قبل أن يتوجه
 إلى عامر. فيقول له شيئاً لم يلتقطه المايكروفون. ويقف إلى
 جانبه. كان عامر هادئاً. ثمّ قرب المايكروفون إلى فمه، وبدأ يقول

بصوت خافت: أركض فوريسست... أركض. قالها عشرات المرّات
 بشكل خافت، ثمّ علا صوته، وأخذ يكرّرها، ويكرّرها: أركض
 فوريسست غامب. أركض. كان الناس يتطلّعون نحوه وهم
 يركضون كالمجانين. وكان يتطلّع إليهم ببرود. ففز التلحمي إلى
 حاجز الاستعلامات، وجلس على الطريقة البوذية، وبدأ وكأنّه راح
 في رحلة روحانية.

بدأ وكأنّه المسيح مستغرقاً في صلاة...
 مضت ساعة على هذا النحو. عامر يصرخ بلازمة الأغنية
 التي ميّزت الفيلم الذي يتحدّث عن أزمة المجتمع الأميركي.
 والناس يتدافعون بجنون، والتلحمي في عالم آخر. بدأ الزحام
 يخفّ، تدريجياً. وفي لحظة بدت الردهة وكأنّها محيط هائج، وقد
 حوّل إلى بركة راكدة.

قفز عامر إلى الحاجز، واجتلسه، إلى جانب التلحمي. كان ما
 زال يمسك بالمايكروفون بيده. قرأ آية الكرسي بهدوء. توجه
 بوجهه وعينه إلى كاميرا وراه، وبدأ يتحدّث بالعربية:

بسم الله الرحمن الرحيم...
 صباح الخير عليكم، أيّها الأميركيون...

إسمي عامر الذيب. وأتيتكم من جبل نَبُو ذلك الذي
 تسمعون وتقرأون عنه. ولو ميّزتم كلمة نَبُو في لغتي لعرفتكم
 أنّها تأتي من النهي. مثل ذلك الذي جاءكم به جبران قبل منه
 سنة، فأحببتموه في الكلمة، وكرهتموه في الواقع. أنا إنسان
 من لحم ودم، ولست قادماً من المريخ. أحمل حماسة السلام،
 وغراب الحرب. أنظروا إليّ جيّداً، فأنتم بعض متي، وأنا كذلك.

بعض منكم. لست ذلك الذي جاءكم في فيلم من المريح.
فظننتم أن هناك سوء تفاهم ثقافي بينكم وبينه. لكنني أنظر
إليكم فأرى أن كل مصائبي أتت منكم. أقلب كل حجر
لأكتشف أنكم وضعتم قبلة ختة لتنفجر في وجهي. وأنطلع
إلى المرأة لأراكم ورائي تصوبون مسدساً إلى رأسي.

وها نحن في المكتبة، أنا وصديقي النحوي، الآتي من روح المسيح الذي تناسبتم تعاليمه، وما رستم بإسمها عكسها. ها نحن في المكتبة، سندمرها، ونحرق الكتب، وأنفسنا...

لا لسنا مجنونين، كما سيخلص أطبائكم، فنحن أعقل منكم، لكننا نفعّل ما كان ينبغي لكم أن تفعلوه: أن تعيدوا صياغة الآتي من عمر البشر، بطريقة مختلفة. أن تعيدوا كتابة كتبكم، أو تعيدوا فهمها.

وضع المايكروفون على الحاجز، وأمسك بالعصا. قرأ الفاتحة بصوت مسموع، ثم ضغط بطرف العصا على زر في الكتاب المفتوح أمامه. راحت الصورة.

في الخارج، كانت أميركا كلَّها تراقب، بعين واحدة، مبنى
جيمس ماديسون وهو ينهار في البداية هزّ واشنطن صوت
إنفجار الطابق الأرضي، ثمّ طابق التسوية، وتوالت بعدها عشر
إنفجارات سوّت المبنى بالأرض، وغطّت واشنطن سحابة سوداء
مدّة أسبوع، ومكثت رائحة الورق المحروق في أرجائها أكثر من
شهر.

ولم تجد فرق البحث أثراً يدلّ على أنّ عامر كان هناك... ولا على وجود التلحمي أيضاً.

الجزء السادس
أوراق عامر

كُنْتُمْ مَعَهُ...
أَمْ كُنْتُمْ ضِدَّهُ...

فهذا هو عامر. كما عرفته: رجلٌ اعتقد أنه مكرّس لمهمة تاريخية. واعتبر الجميع مكرّسين لخدمته. لخدمة هذه المهمة. بمن فيهم أنا. فحين أستعرض ما مرّ بيني وبينه. بتفصيل التفصيل. أجد أنه أرادني أن أفعل ما أفعله الآن. أن أروي قصّته. بطريقته هو...

غير أن عامر لم يرو لي كلّ شيء. لهذا فستبقى قصّته ناقصة. والشخصيات التي مرّت على حياته كانت غير مكتملة. وفي فناعتي فإنّ ما رواه لي كان لخدمة وجهة نظره. وأظنّ أنه كان في جعبته الكثير بما لم يقله. بل لعلّ ما لم يقله يزيد على ما قاله. بدليل ما تتكشف عنه الأخبار من تفاصيل. قد يكون بعضها متجنيّاً. ولكن بعضها الآخر صحيح بالضرورة. فلا شيء يدفعني إلى الشكّ في أن ما قالته سارة في كتابها: "أزمة هويّة". صحيح. ولم أستغرب تأكيدها على أن عامر طلب منها أن تتحايل على خالها. وتسافر إلى إسرائيل. وتدعي تزويده بمعلومات. في سبيل الحصول على معلومات يستفيد منها عامر. بل قد يكون صحيحاً. أيضاً. ما قالته عن محاولته تجنيدها لتنفيذ عملية فدائية في تل أبيب...

فعامر. وبالتأكيد. لم يقل لي كلّ شيء. وكان رجلاً مليئاً بالغموض. وتشهد عليه هذه الكتب المحترقة في الكونغرس. وما تتكشف عنه التحقيقات التي تجرى مع جماعته. ولكنه فعل ما يريد أن يفعل. ما أريد أن أقوله إنّ عامر لم يقل كثيراً...

غير أنه فعل الكثير.

وبالقدر الذي يعنيني. في ما أكتب. فأنا لم أقصد. في حال من الأحوال. أن أقدم تسجيلاً لحياة عامر الذيب. وإن كان بدا أن هذا ما أفعله. على أنني حاولت أن أقدم إضاءات على محطات من حياته. رأيها مهمة. أمّا الجوانب الأخرى. الخفية. الواقعة ما بين السطور. فهي في ما كتبه عامر نفسه.

وأعترف بأنني فكّرت كثيراً. قبل أن أضع بين أياديكم الفصول المقبلة من الكتاب. فهي عبارة عن نصوص كتبها هو. ولم تُنشر. وكان مرّة تردّي أنّها لا تفسّر حياة عامر بشكل مباشر. بل ينبغي قراءة تفاصيلها بعناية. فهو لا بدّ وأن يكون مرّ في أحداثها. أو سمعها. فاتخذ منها موقفاً. وكذلك من الشخصيات. وقد اعترف لي. كما لاحظتم. وجود شخصيات واقعية من حياته في كتاباته. وقد جاءني يوماً. وقال لي:

لديّ مشكلة يا دكتور.

فأنا لم أخلق للكتابة...

أصدّق أحلامي. تلك التي تأتيني في منتصف الشهر القمري. حلمت بالشيخ عبد الكريم كسنزاني ذاهباً لاصطياد غزال. خارجاً على عادته في التنسّك والتعبّد في مغارته الجبلية. رأى غزالاً. وحرك نحوه بعد أن سحب قوساً من جعبته ووضع على النشّاب. وصوب. لكنّ الغزال لم يهرب. إقترب أكثر فأكثر. بقي الغزال واقفاً. وقال له: ما خلقت للصيد يا صياد. وانصرف الغزال...

لست منذوراً للكتابة...

قالها بما يشبه الزفرة. وأضاف: لم أعد أستطيع الكتابة. لقد فقدت لمساتي السحرية. وأضعت إهتماماتي. وأجد نفسي محتاراً ما بين أن أعيش حياتي. أو أن أعيش كلماتي. وصرت أفضل أيّ شيء على الكتابة. لديّ رواية شبه مكتملة. ولكنني لا أجد الوقت للكتابة. وأعترف لك بأنني لا أستطيع دمج فصولها بطريقة مناسبة...

فتح حقيبته. وناولني مجموعة كبيرة من الأوراق المطبوعة. قرأت

على الصفحة الأولى: "درب الخليب" رواية. عامر الذيب. قال: أريدك أن تقرأها وتعطيني رأيك. وقد تساعدنني كطبيب نفسي في ربط الشخصيات في نهاية واحدة. فستلاحظ أنني كتبت عن شخصيات لا يربطها رابط. لماذا أقول لك هذا الكلام. لا أعرف. فقط إقرأها وأعطيني رأيك...

عليّ أن أقول. الآن. أنني طال ما كنت معجباً بقلم عامر. وفي الحقيقة فقد كان قلمه سبب لقائنا أساساً. حين كتب مقالاً عن "عقدة أوديب" وزاوجها بشخصيات من روايات مختلفة. فاتصلت به مستنكراً. باعتباري كتبت بحثاً عن الأمر. لكنه كان متواضعاً إلى درجة أخرجتني. فردّ الكرة إلى ملعبه حين قال: أنت على حق. لقد اختلطت الأمور في ذهني. غير أنه صار يحلّل كخبير. ويقدم الحجة بعد الأخرى. حتى ظننت أنه هو الطبيب النفسي. لا أنا...

والتقينا بعدها. في ندوة عامة. وعلى المنصة نفسها. هو الكاتب الذي أصدر رواية جديدة. حملت عنوان: "أسود وأبيض". وأنا المحلل النفسي للشخصيات. وما إذا كانت تنطبق على أرض الواقع أم لا؟ اختلفت معه كثيراً. ولكنه لم يستتر أبداً. وظلّ يردّ بأسلوبه الهادئ. فيكسب رضى الجمهور. وفي النهاية قال لي على مسمع الحضور: حسناً. أنت لا تؤيد أن الشخصيات تتصرّف في سياق طبيعى. وهذا صحيح. وإنفق معك تماماً. ولكن دعني أسألك: هل هناك شخصية في الواقع تتصرّف في سياق واحد. في سياق طبيعى؟ قال الجملة بتهكم فأنار ضحك الجمهور. وأضاف: وعلى آية حال. فلنتفق على أن الرواية غير مكتملة. ككلّ شئ في حياتنا. فهذه الحياة تبدو دائماً غير مكتملة. هل اكتمل لك الفرخ؟ هل اكتمل لك الحزن؟ هل عاش أيّ واحد منا حياته مكتملة. بمعنى أنه عرف بدايتها ونهايتها. وتصرّف على ذلك الأساس. إذن. يا دكتور. اعتبر هذه الرواية شيئاً من الحياة. هذه الحياة التي لا يمكن لها أن تكتمل. وتطلّع إلى الجمهور. وقال: ومن كان لديه ردّ آخر فليرمني بحجر!

لم يرم أحد من الناس حجراً على المنصة. بل فوبل كلامه بصمت قصير. ثم صفق واحد ليلحقه الآخرون. ووجدت نفسي في وضع محرج. لكنه أخرجني منه بكلمة أخيرة: لو كنت مكان الدكتور لقلت الشئ نفسه. فأنا أفكر أيضاً باعادة كتابة الرواية. كانت الرواية خرجت من المطبعة للنو. وكان كلامه غير منطقي. ولكنه أخرجني من حرجي. فشكرته أمام الجمهور. ثم زاد في تقديره عندهم. وفي لحظة إقفالي كلمتي النهائية. وجدت أمامي ورقة كتبها عامر: هل تقبل دعوتي إلى العشاء؟ وصرنا أصدقاء...

يسبقني دائماً بخطوة... أفكر بكتابة موضوع. لأفتح الصحيفة في الصباح التالي فاجده يكتب عنه. ليس بالضرورة الأفكار نفسها. ولكنه يبحث في الموضوع نفسه. أجهز نفسي لمناقشة فكرة معه. فأجده يسبقني إليها. وفي يوم. جاءني بمزاج رائع...

قال: لو سمح لي الوقت. لكتبت رواية عن حياة خصي. قلت: لم يعد في الدنيا خصيان يا عامر. ذلك زمن مضى. قال: تلك هي المفارقة. فنحن لا نعيش في العصور التي كان الخصيان يملأون فيها القصور. ولكنني سأكتب عن رجل من عصورنا طلب من سيّده أن يخصيه. سيكون الراوي هو الخصي نفسه. والخصي في اللغة العربية من الخاصة. أي: جعله حين خصاه من جماعته الخاصة. أي أنه يستطيع الدخول إلى أي مكان يريد مثل أي فرد من العائلة. فقد اصطفاه خاصيه. واختاره على غيره. فهي ميزة للشخص. وسوف أزوّج هذا الخصي لفتاة مختونة. وفي اللغة: خاتن فلانة أي تزوجها...

هل تعرف أنه كان للمقتدر أحد عشر ألف خادم خصي. وأن العرب كانت تورث الخصيان إلى أبنائها. وأنه قد كثر الخصاء في عهد الأميين. حتى قالوا إنه بلغ من كلفه بالخصيان أنه "طلبهم وابتاعهم وغالى

بهم. وصيرهم خلوته في ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه.

وهل تعرف أن الجاحظ قد عقد فصلاً ممتعاً في كتابه "الحيوان" للخصاء. وتأثيره في الجسم. والصوت. والشعر. والأعصاب. وفي الذكاء. كما عرض لأصناف الخصيان من السند والحبشة والنوبة والسودان. ويقول إن الروم أول من ابتدع الخساء..

لا يسمح لي وقتي بالكتابة. وأتمنى لو يكتبها أحد آخر. فيتساءل: هل هذه الظاهرة مقتصرة على الثقافة العربية والاسلامية. وما دامت لم تكن كذلك. فلماذا واصلت وجودها لدينا. فقط. هي تدل على عدم الثقة بالنفس وبالأخرين.

كم أتمنى لو أكتب تلك الرواية. حيث يتحدث الخصي عن نفسه. ويشرح معاناته. حين يزداد سمناً يوماً بعد يوم. حتى يصبح بلا رقبة على رأي أحد الشعراء. فالخصي يفرغ قدراته المفقودة في الأكل. وكم أحب أن أحدث عن تفسير الختان. ففلسفته لدى ناسنا تفعيل الذكورة. أما ختان الأنثى فيعني إخماد الأنوثة. لهذا فينبغي أن نرى كيف تكون قصة الحب بين خصي ومختونة...

قلت له: وماذا تريد من كل ذلك؟

قال: أريد أن أقول إننا فاقدو الرجولة والأنوثة. أريد أن أقول إننا ما زلنا نعيش في عصور الخصيان.

٢

قلت: أسألك دائماً: ما قصة العصا معك. ولم تجب... كيف تفسرها؟

قال: أنا من جاء اليوم ليسألك السؤال نفسه: ما قصة العصا معي. أنت من يجيب. وليس أنا. قلت لك مرة. إنني أثق بأحلامي. وقد

تكرر علي حلم. وصار يأتيني بشكل مسلسل. سوف أحدثك بالتفصيل. ولكن ما ستسمعه ليس نتيجة حلم واحد. بل سلسلة منها لا أدري إلى أين ستوصلني. وماذا ستكون نهايتها... إسمع تفاصيلها. فقد كتبتها. أخرج مجموعة أوراق من جيبه. وأخذ يقرأ:

"...ظلام دامس خيم على القبر. وسكون كامل هام في السواد. تكسره أصوات متناثرة على شكل همسات. مرة. ونحيب مكتوم. مرات. يوماً إثر يوم.

كانت الهمسات تتناقل الخبر: يشوع سيقودنا. ويعود الصمت. وكان النحيب المكتوم يتصاعد. أحياناً ليصبح بكاء مراً. وتطورت الهمسات إلى تساؤلات: وكيف سيعبر بنا يشوع. فهناك الجابرة؟ وتطورت أكثر: راحت المعجزة. معجزة الرب التي أنقذتنا أربعين سنة. فكيف سننتصر في بلاد غريبة؟ كيف نعيش دون العصا المباركة؟

وكانت الحية تستمع. وتبتسم!

وجاء مغيب اليوم الثلاثين. لتنفّض الحية نفسها. وتنسلّ من اليد التي أمسكت بها مطوّلاً. وتزحف بهدوء. من المغارة المظلمة. إلى الخارج. وجدت حجرين كبيرين متجاورين. فمرت بينهما ليتلامس جلداهما بسطحين خشنين. ببطء. أخذ الجلد المالس يتزحزح بصعوبة عن جسمها فشعرت بالألم خفيف. لكنه لذيذ. أنهت المرور بين الحجرين. لتعود وتكرر الحركة. مرة ثانية. بروية أكبر. ثم مرة أخرى. فرابعة. شعرت ببرودة منعشة. تطلّعت وراءها لترى جلدتها مرمياً على الأرض. تأملت جسدها. ورسمت علامة رضا واسعة على وجهها. من هذا اللون الأسود المختلط بلمعة برتقالية. إنعكست من الجبال المقابلة. التي ودّعت الشمس خلفها. غرباً. وبدأت بإستقبال القمر من الشرق.

ومضت تزحف ببطء مستهدية بأصوات عالية مبهمه. تشي

بخلافات واضحة بين أصحابها. سارعت زحفها فارتطمت بحجر. وإشتتت خنثه رائحة زكية ذكّرتها بالجوع. حفرت قليلاً. وإنتهمت بتلذذ أغلب النمل الذي بوغت بهجوم غير متوقع. فلم يُقدّر سوى للقليل منه بالهرب. وعادت فواصلت مسيرها نحو الأصوات المختلطة. وبدأ الليل يفرض ظلمته على الجبل والوادي والسهل والبحيرة المقلوبة. ومع كل إقتراب نحو الأصوات كانت تُدرك وهجاً نارياً يضيء الأرجاء. تكوّمت على صخرة. وأخذت تتأمل المشهد الأعرب أمامها.

كانت آلاف مؤلفة من الرجال والنساء والأطفال ختشد. الرجال يحملون المشاعل ويصرخون. والنساء يتحدثن بهمس مع بعضهن بعضاً. والأطفال مشدوهون ترتسم على وجوههم علامات الخوف المختلط بدهشة. والأنظار كلها كانت تتوجّه إلى رجل يلتحف عباءة. ويقتعد حجراً كبيراً على تلة صغيرة. خيط به مجموعة من الرجال يحملون مشاعل تُضيء على الرجل منظر الرهبة. المشهد كان مُرعباً.

صرخ رجل من المحتشدين: يا يشوع! القوم في حيرة. وجوع. ويأس. لم نأت إلى هنا لنتنظر. لقد مات أبائنا في البرية. وضعنا بين جبال ووديان وصحراء أربعين سنة. فهل ننتظر أربعين سنة أخرى؟ منذ ثلاثين يوماً لم نذق طعم النوم. ولا الخبز. مات موسى. وراحت العصا.

إبتسمت الحية. وغيّرت في جلستها. وحركت ذنبها سروراً. وغروراً... أضاف الرجل: الجوع يأكلنا. فلندخل ونقتلهم. ونأكل طعامهم. وصرخ آخر: يا يشوع! نحن في حيرة. وجوع. ويأس فعلاً. ولكن كيف ندخل تلك الأرض وفيها الجبابرة؟ سيقتلوننا ونقتلهم. ولن يبقى منا ومنهم من يحدث. مات موسى وراحت العصا الأفعى التي تأكل أعداءنا..

بسمة أخرى إرتسمت على مُحيا الحية. لكنّها لم تُغيّر في جلستها. فاكتفت بتحريك ذنبها! وأضاف المتحدث: فلنعد إلى مصر. ففيها الخير الكثير. ولعلّ

فرعوناً جديداً صار هناك. لا يحمل لنا كره السابق. قاطعه ثالث: نعود لنضيع في البرية أربعين سنة أخرى؟ فلندخل إلى البلاد بهدوء. نتعرّف إلى أهلها. ونشاركهم عملهم. لقد رضوا بدفن عائلة إبراهيم في أرضهم. وعرضوا عليه الأرض هدية. فلعلهم يرضون بنا بدون قتال؟

وعاد الصراخ الحافل بالإختلاف ليعمّ الموقع. وكادت الأيدي تتشابك في صراع يوصل إلى مذبحه.

رفع الرجل يده. فجأة. لينقلب الوادي والجبل والبحر إلى صمت. وعادت العيون تنصبّ إلى التلة تنتظر الخبر... تنتظر المصير.

قال. بصوت إرغمت له الجبال: سندخل بعد أربعة أيام. صبرتم أربعين سنة. فأصبروا أربعة أيام فقط.

وقف. وأوماً إلى رجلين من مجموعته أن تعالا. وأدار ظهره للجمع. سائراً نحو الشمال الغربي. فلحق به الرجلان.

إنسابت الحية. من صخرتها. مع تفرّق الناس. ودارت بحركات متسارعة حولهم. لتصل إلى حيث يمشي الرجال الثلاثة. فواكبهم. بعد أن أبطأت من حركتها. صارت تزحف بتمهل.

قال يشوع بحزم: سندخلان غداً فجراً متخفيين إلى أريحا. وستعودان بكل المعلومات اللازمة. أريد أن أعرف كل شيء عنها.

صمت قليلاً. ثم أضاف بصوت هامس: جهّزا زوادة الطريق. ونفّرّقا الآن. لتلتقيا في الفجر هنا. في هذا الموقع. لن يعرف أحد عن ذهابكما.

وعاد الثلاثة إلى حيث كانوا. قبل قليل. ولبتفرّقوا كل إلى حيث مغارته. أو ملجأه المّقام على عجل.

وكَمّنت الحية في موقعها. هادئة لا تلوي على شيء. تستمع إلى صوت طائر الليل. الخفاش. الباحث عن صيد صغير. أو بقايا وجبة إصطادها حيوان أكبر. مرّ ضبع صغير. كانت خطواته بطيئة. وكأنّه لاحظ وجود فريسة. تسمّر في موقعه قليلاً. ثم تابع سيره.

عاد طائر الليل في دائرة جديدة. كأنه لاحظ. هو الآخر. وجود فريسة. إستبعدت الحية أن تكون مقصودة منه. فلم تكن مركز دائرة طيرانه. وضعت رأسها على الأرض. حركته يمينا. لا شئ. يساراً. ثمّة إحتكاك ناعم بالأرض. خطوات رشيقة متحسبة. خطوات فأر صغير. سال لعابها. وإنسابت نحوه بغريزة من لا تعرف الشبع. ضيق الخفاش دائرته. فتأكدت من قرب مهاجمته للفأر. تأملت طيرانه فعرفت أنه سيهاجمه من الغرب. إنسابت نحو الجهة المقابلة. وانتظرت متحفزة للحركة. إنقض الطائر بسرعة رهيبة من علو منخفض. إنته الفأر لينتفض متحركاً نحو الشرق. كان فم الحية بانتظاره. فغرزت نابيها بلحمه الطري. وبدأت بإبتلاعه. على مسمع الخفاش. الذي إرتسمت على مكان عينيه. غير الموجودتين. علامة الدهشة. فتناثر تراب قليل من ضربته على الأرض. إختلط بذب الفأر الذي صار كآله. بعد لحظات. في بطن الحية..

عاد الخفاش إلى الطيران. بطيئاً هذه المرة. وأطلق صوتاً مُستنكراً. وابتعد باحثاً عن صيد آخر!

جشأت الحية. بعد أن شعرت بالتخمة. زحفت قليلاً نحو الصخرة التي جمعت الرجال الثلاثة. ونامت بتأثير الشبع اللذيذ.

ومع زقزقة عصفور صغير. قُبيل ظهور الشمس بقليل. إستيقظت على شعور بالجوع. فقد تفتحت شهيتها. وقد راقبته يتنقل من شجرة إلى أخرى. ومن حجر إلى آخر. لكنه كان بعيداً. سيستغرق صيده منها وقتاً وجهداً كبيرين. قالت لنفسها: ليس هذا وقته. وأخذت بالبحث بين الحجارة عن جحرمل. فوجدت واحداً. التهمت منه كيف ما إتفق. وبسرعة. فقد إنتبهت إلى وقع خطوات رجل. إنسابت عائدة إلى صخرة التقاء الرجلين.

وصل الرجل. وضع جراب زوآدته. المصنوع من جلد ماعز. على الصخرة. وابتعد عنها قليلاً بفرك يداً بيد. بحثاً عن دفء من لسعة برد الصباح. إنسابت الحية إلى الجراب. وإرتاحت بين قطعتي لحم

مقدّتين. وصل رفيق رحلته. ودون أن يتبادلا كلمة. حمل الرجل جرابه. وتوجّها صوب الغرب. راحاب! لو كانت جدتي تعرف أن إبنة لحواء ستكون مثلك. لما أغوتها بتفاحة!

راحاب... لعنني الرب. من دون البهائم. وعلى صدري جعلني أسلك. والتراب أكل. طوال أيام حياتي.. وكلّ هذا لأنّ جدتي خابلت على جدك.. وها أنت يا راحاب تثبتين أنك أحبل مني. أحبل من في الأرض!

كان الرجلان يمشيان في شوارع أريحا. المستنفرة. المتوقعة هجوماً من ذلك الحشد المُرابط شرقيّ النهر. في آية لحظة. كانا يمشيان بخوف وخسب الذهاب للموت. عندما أطلت عليهما برأسك. من نافذتك اللعينة. لتدعيهما بالدخول. كُنت يا راحاب لهما نجدة العمر. من رعب موت كان ينتظرهما عند كلّ مفترق في أزقة أريحا الحصينة. يا راحاب القحبة!

يا راحاب البغي. التي لم تكتف ببيع شرفها لبني وطنها. فزادت ببيع وطنها نفسه. رحبت راحاب بالرجلين: أهلاً.. أهلاً. أنتما غريبان عن أريحا. من أين أنتما؟

وَضَعَ صاحب الجراب جرابه. على الأرض. بعد أن إقتعد كرسياً. إلى جانب رفيقه. ورد: نعم نحن غريبان. من عمون. جئنا في تجارة. كنت تعرفين. آيتها القحبة. منذ أول كلمة تفوه بها هذا. أنهما ليسا من عمون. فليست هذه هيئة أهل عمون. لكن عرق الحيانة كان يأخذك إليها.

يا بغي! وحين أخرج الرجل الذهب من جيبه. كُنت تعرفين أنك ذاهبة إلى

بيع بلدك، لكنك تغابيت، وقلت: كل هذا من أجل ليلة؟

إنسابت الحبة، من الجراب، لتستقر في مكنن عند زاوية سرير عمل راحاب، فقد استمعت إلى صوتها، وها هي تلهف لتري هذا الوجه الذي سيحمل شكل أول الخيانة ...

جميلة... كانت جميلة"....

وتوقف عن القراءة، وقال: هذا ما كتبته حول الأحلام المتسلسلة، قلت: ولكن هل توقف الحلم هنا، عند وصف راحاب باعتبارها جميلة؟

قال: لا، ولكنني رأيتها تشبه سارة، كانت في حقيقة الأمر سارة، ورأيت الرجلين يضاجعانها على التوالي، فاستيقظت مذعوراً، ولم يأتني الحلم بعدها، ماذا تقول؟

٣

وقبل أن أضع رواية عامر، غير المكتملة، بين أياديكم، أحب أن أسجل ما ظل يردده أمامي قبل سفره:

"أريد أن أكون وفيّاً لنفسي"، و "لا يعلم ما بي.. غير ربي"، وفي رده على سؤال لي: لو لم تكن كاتباً، ماذا كنت تحب أن تكون؟ قال: خبازاً أو نجاراً، لأنني سأستطيع حينها إعادة تشكيل المواد الخام، بالشكل الذي أريد....

كما أحب أن أوضح أن كل فصل منها ينتهي دون سابق إنذار، بحيث أنه بدا وكأنه يترك فصلاً، يمثل شخصية، لبدأ بفصل آخر، يمثل شخصية أخرى، بل وأحياناً كان يترك جملاً دون أن ينهيها، وأخيراً، فقد تركت ملاحظاته التي كان ينوي كتابتها كما هي، وأعدت نشر مقدمته "الصخر والماء"، التي ثبتها في مقدمة الكتاب لأن "درب الحليب" لا يمكن أن تقرأ بدونها:

درب الحليب

ابسط راحة يدك أمامك... تأملها!

هكذا كان المشهد، بعد أن انتصر الصخر على الماء، في أول صراع يشهده قلب العالم، وقف البحر الكبير منكسراً أمام كتلة ضخمة صماء من الصخر، يحمل خيبته، لكنه ظل يعبر عن مرارته، عبر السنوات اللاحقة، بالبخل المقصود بالماء، مرات، وبالإفراط به، مرة، على شكل غيوم سوداء تتجمع فتترعد وتبرق، وتنهمر على أنحاء الكتلة الصخرية، بعد أن تتحول إلى سائل نقي خالص.

كان ذلك قبل أربعين مليون سنة، إلا قليلاً! مرت عشرة ملايين سنة، تفتت الصخر خلالها، عند حدود الماء، في شريط ضيق، فصار رملاً ناعماً يمتد على طول أرض الصراع، وارتفعت، أثناءها، تلال وجبال، وتشكلت وديان، على مساحة الصخر، جراً إنهمار الماء من الغيوم.

لكن المشهد ظل كراحة يدك الممدودة، مع قليل من البثور والجروح، تطلع الصخر إلى نفسه، في مرآة البحر، فلم تعجبه هيئته، وأخذ يفكر، خرج بفكرة رآها كافية لتجميل وجهه، وإذلال الماء، في آن.

نحن، الآن، إذن، قبل ثلاثين مليون سنة! تلمل الصخر، فشدد عضلاته وأرخاها، وشدها وأرخاها، وضغط على مساحة طولية من جسده، على شكل هزات رهيبه، لتخفض شيئاً فشيئاً إلى ما تحت مستوى البحر...

وتطلع الصخر إلى نفسه، في مرآة السماء، فرأى ما أعجبه، إلا

كان البحر ساكناً. واجماً. عند طرف جسده الرملي. وكانت سلسلة جبال عالية تقف حارسةً للرمال. من أي غدر مائي. يلبها إنخفاض سحيق. ثم سلسلة جبال عالية أخرى. لتبدأ هضاب تنتهي عند رمال ناعمة تمتد إلى ماء آخر. وفكر: كان ينقصه شيء...

كان الماء الآتي من اشتباك الغيوم يمر في بطنه المنخفض. ليعود إلى ماء آخر.

تملأ قليلاً عند بدايات المنخفض. فارتفع جبل. وانخفضت مساحة صغيرة في منتصفه. وأخرى كبيرة قبيل نهاياته. صارت الغيوم فوق الجبل مضطرةً لتحويل نتائجها إلى ثلوج. تستقر على أعلى الجبل. طوال السنة. وصارت المياه الآتية من الغيوم الأخرى. وتلك الآتية من ذوبان ثلوج الجبل. مضطرةً للانسحاب في مسار متعرج. لتتجمع في المنخفض الصغير. وتعود للانسحاب في مسار آخر. متعرج أكثر. ولتتجمع في منخفض المنخفض الكبير. مُشكلة بحيرة كبيرة تمدّ لسانها نحو البحر الآخر.

وفرّج الصخر على شكله الجديد. لكنّه ظلّ. على مدار الملايين الثلاثين من السنوات. يُجرى التغييرات على جسده. واحدة بعد الأخرى. حتى رأى أنّه اقترب من الكمال.

صار يحمل اللون الأخضر على الجبال. والأزرق على البحيرتين. والأصفر على الرمال. والبني المتدرج على التراب. وفي أيام الربيع القليلة كانت كل ألوان الدنيا. بتدرجاتها المختلفة. تثور فجأة فتعطى المشهد شكلاً ساحراً.

وتصالح الصخر مع البحر. على شكل تعايش. لكن الصراع بينهما ظلّ يُعبّر عن نفسه بخجل.

البحر يبخل بالماء. فيردّ الصخر بأن يتململ. فيتزلزل. وجاء الناس. إلى قلب العالم. بعد أن أخذ شكله الجديد. وتعايشوا.

فسمّوا البحر الكبير بالأبيض المتوسط. والأصغر بالأحمر. والجبل الكبير بالشبخ. ومجرى أنسياب مياهه بالأردن. والبحيرة الصغيرة بطبريا. والكبيرة بالبحر الميت...

وجتمع الناس في مدن. على الجبال. والهضاب. وقرب الماء عند الأردن والميت والأبيض والأحمر. فأعطوها أسماء. ثم غيروها. وكان التغيير يحمل. دوماً. قصّة الصراع الذي بدأه الصخر والماء. وورثاه لهؤلاء السكّان الذين سيحملونه معهم. في حيواتهم. ليعيدوه إلى صاحبه يوم الحرب الكبرى. بين الخير والشر. يوم القيامة...

ولو تطلّعت إلى مشهد السماء. في الليل. من تحت. عند أخفض نقطة على الأرض. عند شواطئ البحر الميت. الذي أرادته الصخر رمزاً لانتصاره. وتذكيراً دائماً للبحر الكبير بانكساره. فسترى مجموعة النجوم المسماة درب التبانة. وكأنّها انعكاس ذلك النهر. نهر الأردن. تسير بمساره. لكنّ نهر السماء كان يحمل الحليب. لا الماء. لهذا سمّاه الكثيرون: درب الحليب.

لكنك لو تطلّعت إلى مشهد الأرض. من هناك. من فوق. من السماء. من درب الحليب. فستستطيع. الآن. بعد آلاف السنين من تواجد الناس. أن ترى مُدناً مثل القدس وعمّان وبيروت ويافا والنشام والخليل وبغداد والكرك والقاهرة والسلط ونابلس وحيفا وإربد وجرش وجنين وغزة ومادبا وذيبيان وأريحا وبيت لحم والناصرة...

٤

وعمّان مدينة. من تلك المدن. وسحاب* وجهها الآخر...

عمّان تكبر. وسحاب أيضاً.

يبدأ الناس هنا. وينتهون هناك.

يبدأون هناك. وينتهون هنا. لا فرق.

فما دامت عمان تكبر . فسحاب أيضاً ...

والسيارات الست . التي تنهادر مُنقادة بسيارة إسعاف . تنبعث منها آيات قرآن . كانت تُثير مشهداً حزيناً . لكنه مألوف في هذا المكان . الوجه الآخر لعمان ... وكانوا جميعاً... هناك.

فارس عبد الاله . حمدان المقعود . وناصر المأمون . في مسيرة زيادة عدد سكان سحاب واحداً . لينقص واحد من العمانيين . ولو كان عبد الاله حياً لحضر . وكذلك جورج النجار . لكنهما هناك . سيكونان باستقباله هناك . يحتفون به . ويتذكرون على مدار العمر الآخر المظلم . قصة عمر راح برمشة عين .

سيتعاقبون كثيراً حين يتذكرون خصاماتهم . ويضحكون أكثر عندما يستعيدون نكتة عبد الله عن عبد الاله : نسي أصبعه في جسم يهودية . وسبستحضرون أدق تفاصيل حياتهم . حين كانت لهم أجساد . يتنقلون فيها . ويعيشون . وسينتظرون . وينتظرون . لما تنتهي الحكايات القديمة . قادمًا جديداً من "الجريدة" . ليحدثهم عما جد فيها . ولو كانت دماً رجلاً لحضرت .

ولو لم يكن اليوم . هذا اليوم . جاءت عمان كلها . إلى سحاب . خضر وداع عبد الله . لكن عمان كانت سافرت . صباحاً . باكراً . إلى صحراء أخرى . إلى وداع آخر .

ويبدو أن سحاب فوجئت بعبد الله . لم تتوقع موتاً في ذلك اليوم . شعرت أن الموت مشغول عنها بحدث أكبر . فسيرحل من عمان جنوباً . باكراً . ليشهد حصاداً أعظم مما شهد في حياته . سيشهد في وادي عربية التوقيع على الهزيمة .

وتبخّر حقاو القبور .

أفقرت سحاب . كما لم تفعل من قبل . فبضاعتها كانت . يومها . كاسدة .

وبحثوا طويلاً عن أحد يحفر قبراً لهذا الجسد الضخم . وجدوا قبراً

محفوراً جاهزاً . لكن من سيجمل الجسد فيضعه على فراشه الجديد . ومن سيمدده وينزع عنه كفنه عند الرأس . ومن سيهيل هذا التراب كله عليه . تأملوا بعضهم بعضاً . تحسس فارس بدلته . نباطاً حمدان . افتعل عامر قراءة الفاخة . نزل ناصر إلى القبر . سلموه الجثمان . مدده على طول الحفرة . وأزاح عن وجهه طرف الكفن . رأى وجهه أصفر مزرقاً . فتذكر كيف كان معه قبل ساعات قليلة . بكى صامتاً . رتب الطوب فوق الجثمان . فبدأ القبر أمامه زنزانه في سجن تحت الأرض . أنهى وضع الطوبة الأخيرة . ساعده عامر في الصعود . ثم في إهالة التراب على القبر .

قرأوا الفاخة . وتوجهوا إلى السيارات . تذكر ناصر أمراً فعاد إلى القبر . وضع علامة على التراب . فقد يضع القبر . مع أموات الغد . قد يختلط جسد عبد الله بغيره . إذا حفروه مرة ثانية .

مساء . جلس فارس . على مكتب عبد الله . رئيساً جديداً للتحريات

الباشا الصغير

١

إذا كانت الطباع تورث . فقد أخذ فارس عن والده كثير الكثير . حتى كان . دون شك قليل : سر أبيه المعلن .

ولو تحدثت طريق بغداد عمان القديمة . بالتفافاتها الحادة حيناً . وإستقامتها أحياناً . ومطباتها غالباً . لروت مطولاً عن عبد الإله الذي قضى فيها أغلب أيام شبابه . ورسمت له طريق حياته التي أخذت نفس معالمها . من انحناءات صعبة واستقامة ملة . ومطبات مزعجة . والصدف تلعب . دوماً . أدواراً مهمة في حياة البشر . لكنها لم

تنجلّ في لعبها. كما فعلت معه. فغيّرت إسمه. وبلده. وأحياناً شكله. على نفس هذه الطريق ... طريق بغداد عمان .

هو. أو في الحقيقة كان. يحمل إسم رفيق السويدي. ويعمل صبيّاً في مقهى عند الجبائية. قريباً من الرمادي. يقدم خدمات للمسافرين على الطريق الطويلة. ويستهو به ذلك الهندام المرتب الذي يرتديه الجنود البريطانيون. الذين لم ينقطع وجودهم في المقهى. إمّا باحثين عن بعض راحة من عناء المسافة. أو بائعين للويسكي الاسكتلندي. كانوا يشترون حصصهم بأسعار رمزية من قاعدة الجبائية. ويسوّقونه بأسعار أعلى لصاحب المقهى. لبيعه رفيق لأصحاب الشاحنات. والمّارين العارفين المعروفين. بأسعار أعلى وأعلى...

وكان راضياً مرضياً. فلا تُقارن حياة كهذه بتلك التي عاشها في بيت لا أمّ فيه. ويكاد أبوه فيه ألاّ يميّز أبناءه من كثرتهم. فلا يعرف سوى زوجاته اللواتي يأتين وبذهبن. في حلقة متواصلة من زيجات وطلاقات حضر جزءاً من آخرها. ليلة هروبه.

كان راضياً لأنّه هنا سيّد نفسه. ولأنّه عرف النفود لأوّل مرّة. وكذلك الأكل النظيف. والنوم العميق. والمشروب الذي يدور الرأس معه. وفوق هذا. كلّ. هنا عرف الدنيا أوّل مرّة مع نورية. وعدهته بالعودة. لكنّها لم تفعل. بل تركت في مخيلته ذكرى يستمنبها. في ليالي الصحراء.

وكان مرضياً من صاحب المقهى. فبُغدق هذا عليه نسبته من البيع. وفوقها ثقة تكبر مع الأيام. وكان مرضياً. أكثر. من هؤلاء الجنود الاجليز الذي يغدقون عليه. من المبيعات. ولا يخلون عليه بكلمات من لغتهم. صارت جُملاً. وتطوّرت إلى محادثة بأخطاء قليلة.

ولو واصل حياته على النحو ذاته لما اشتكى. لكنّ خطّ الحياة. المتجعد على يده. كان يحمل تعرجاً آخر. سيأخذه إلى مستقبل مختلف. لا يبيع فيه مشروباً. وإن كان سيتحدّث الاجليزية كثيراً. كانت أخبار عزل عبد الإله. الوصي على عرش العراق. في الجبائية.

تمرّ على مسمعيه فلا يكثرث. فَمَنْ هو عبد الإله هذا؟ وكانت أخبار استقالة رشيد عالي الكيلاني تتردد أمامه. فلا يهتمّ. فمن هو الكيلاني هذا؟ ولولا هذه الطائرات الغربية. التي كانت تخلق فوق قاعدة الجبائية الجوية. ثمّ تضرب وتهرب. لما عرف عن شيء يسمّى الحرب العالمية الثانية. ولولا سماعه باسم هتلر تتناقله الألسن الاجليزية لما كرهه. وكره الالمان ... فالأجواء بدأت تتوتر. وقلّ عدد الجنود الّآتين بالمشروب السحري. فقلّت الأرباح. بل كادت تجارته أن تكسد.

ولم ينم تلك الليلة الربيعية الباردة. بل أخذ السائل العجيب إلى تفكير طويل: هل ينتهي هذا الحلم القصير. هذا الحلم الناقص؟ وجاء آذان الفجر ناعماً. حنوناً. من بعيد. وكأنّه يبشّره. أو ينذره. بالآتي من العمر. ومن بعيد. أيضاً. قريباً من الجبائية. بدت زوبعة كبيرة من الغبار. وصارت تقترب شيئاً فشيئاً منه. مُثيرة في نفسه الكثير من الفلق. وفي لحظة واحدة. ومن قلب الزوبعة. إنبلج سيل عارم من السيارات بدا كأنّه يتوجّه نحوه. صار يسمع صوت دقات قلبه. وبحسّ رجفات رجله. وفي لحظة واحدة. وكما ظهر السيل عارماً. رآه يتوقّف أمامه. توقفت السيارة الأولى فجأة. فأعمل كلّ السائقين بكوابح سياراتهم. لتتوقف كلّها مُصدرة صوتاً مرعباً زاد في ضربات قلبه. ومُثيرة عاصفة أخرى من التراب ضاعفت من رجفات رجله.

واستمع إلى صوت يناديه: رفيق ... رفيق. لم يميّز مصدر الصوت. فتنطّل كالأبله. يستعرض السيارات. فبدت وكأنّها مئات المركبات. ومن كلّ الأنواع. المصفّح يحمل الجنود المسلّحين. والعادي يحمل وفداً رسمياً. واستمع إلى الصوت يناديه مرّة أخرى: رفيق : Here here ..come here

لم يميّز صاحب الصوت. لكنّه توجّه نحو مصدره. من داخل السيارة جاءه الصوت بشكل سؤال: هل لديك ويسكي؟ إرتبك. لم يعرف سبب السؤال. وتساءل. في سرّه: هل هو استجواب؟ ولم يعطه الصوت فرصة التفكير. فجاء هذه المرّة حاسماً:

هات الويسكي الموجود كله. فُتح الباب. ليخرج جندي بريطاني يعرفه. ويقول: ياللا بسرعة !

توجّه رفيق إلى الداخل. يرافقه الجندي وأخراّن وراءه. عدّ أربعة صناديق مغلقة. وواحد تنقصه زجاجتان. حمل الإثنين الصناديق الأربعة. وسلّم الجندي رفيق مبلغاً من الاوراق المائيّة. كيف ما اتفق. وحمل الصندوق الأخير. وتوجّه إلى السيارة.

كانت السيّارات. في مقدّمة الموكب. بدأت حركتها. وتنهياً الأخرى. حين صار رفيق في الخارج. دون أن يشعر. رفع يده في تحية للموكب. وصرخ بأعلى صوته : الله ينصركم..

وأضاف بالإنجليزية : God bless you!

توقفت سيّارة سوداء كبيرة. كانت تهتمّ بالحركة. فجأة. وأطلّ من نافذة مقعدها الخلفي رأس رجل خمسيني وسيم. نحيل. يصقّف شعره إلى الوراء. نظر إليه. ثمّ عاد الرأس إلى الداخل. ليُفتح الباب الأمامي. ويتوجّه ضابط إنجليزي إلى رفيق. ويقول له: إطلع معنا.

لعلّه الخوف. أو الحاسّة السادسة. أو مزيج من مشاعر عدّة. جعلت رفيق ينساق كالنوم مغناطيسياً. مع جندي غادر السيارة التالية. وأدخله إليها. وجلس إلى جانبه.

كان الرجل الوسيم هو صاحب السمو الأمير عبد الإله. الوصي على عرش العراق. الذهاب إلى عمّان. في رحلة قسرية.

٢

وإذا كانت عمّان محطة غير مستحبّة في حياة الأمير عبد الإله. لظروف شخصيّة. ولكونها أشبه ما تكون بالقرية. فإنّها كانت كلمة غير موجودة في قاموس رفيق. وهو على آية حال قاموس محدود..

كان رابع ثلاثة في السيّارة. التي أخذت تسرع وتسرع. على طريق

تأكل جانبها مسافة. ومن نصفها مسافة أخرى. وكان السائق يهرب مبنياً حيناً ليجد رفيق جسده مرمياً على الجندي الإنجليزي. ثم يهرب يساراً ليجد الجندي فوقه. وفي الغالب كان السائق يعجز عن تفادي المطبات. فلا يستطيع منع رأسه من ضرب السقف. في البداية. كانت الطريق مؤنسة. لمن يراقبها على الأقل. لكنّها. وبعد أقل من نصف الساعة. صارت موحشة: الصحراء على مدى النظر. والتغيير الوحيد كان مشهد حيوان برّي يركض بموازة السيّارة. وهكذا ومع الرتابة المتواصلة. لم يدر كيف ذهب في نوم عميق. تعويضاً عن شهر الليلة الماضية. وهروباً داخلياً من أسئلة. لو استغرق فيها لزادته أرقاً على أرق.

إستيقظ بعد دهر من نوم عميق. على يد ترتت على كتفه. وتدعوه للأكل. كانت السيارة متوقّفة. بين طابور السيّارات. ولم ير السيّارة السوداء الكبيرة. أكل مخصّصه بسرعة. وشرب كثيراً. ومع الماء شعر بحرارة الطفقس. كانت الشمس كالعمودية. فلم يغادر مقعده. إنه لا يعرف أحداً. ولم يكلمه أحد. بل يبدو وكأنهم لا يشعرون بوجوده. لكنّه لم يشعر بالخوف. ولا بالأمان أيضاً.

تحركت السيّارات. فعاد إلى النوم العميق...

مع صوت الآذان. المنبعث رفيقاً عذباً من مسجد صغير في معسكر للجيش العربي في الزرقاء. إستيقظ على صوت السائق يقول للجندي الجالس إلى جانبه: عشرون دقيقة. ونكون في عمّان.

وكانت المرّة الأولى. التي يعرف فيها أنّهم ذاهبون إلى عمّان. لقد استمع إلى إسم عمّان. من سائقي الشاحنات كثيراً. لكن كلّ كلامهم لم يترك لديه انطباعاً واحداً عنها. كانت عمّان له كالبصرة والقدس ودمشق. إسماً يأتي ويذهب... لو كان يعرف عن هذا اليوم لسأل. وتذكّر أنّ في داخله سؤالاً : لماذا أنا معكم؟ لكنّه لم يسأل...

* مقبرة تقع بالقرب من عمّان.

دقائق قليلة مرت. التضاريس ترتفع وتهبط. يقابلهم الجبل مرة. وقد اكتسب لوناً ودياً جميلاً. ثم تنحدر السيارة. فيظهر طابور السيارات قطعاً بطيئاً. ويزداد لون الجبل جمالاً. وتسيطر على الأنوف والعقول رائحة الباسمين. وزهر الليمون. وتشتف الأذان أصوات المياه المنسابة بنعومة تحت جسر خشبي قديم. هكذا أعلنت الرصيفة عن وجودها للطابور العسكري. وهكذا استقبلت أطراف عمان رفيق السويدي.

ولم ير من عمان شيئاً...

وصلها ليلاً. وغادرها فجرًا. والليل ليل. يفتح آفاق العقل. ويغلق فعالية البصر.. ولم ينم. استقروا بمطار ماركا العسكري. أخذ نصيبه من الأكل وتعتشى وحيداً. تمدد. واقترب من النوم. لكن طائرة مزعجة هبطت إلى المطار. وأبقت محركاتها دائرة. وبعد فترة. لعلها ساعتان. عادت وأقلعت. وتمدت. واقترب من النوم. لتأتي طائرة أخرى. وتبقى المحركات دائرة. ثم تعود وتقلع. فتتمدت. واقترب من النوم. لتربت يد على كتفه. ويخرج صوت: استيقظ. سنتحرك الآن.

السيارة نفسها. والطابور نفسه. لكنه لمح ثلاث سيارات سوداء كبيرة. تنضم إلى القافلة. فبيل الدخول إلى منطقة الأسواق. وبدأت رحلة ظنها كتجربة الأمس ... طويلة. متعبة. الجالس إلى يساره لم يتركه لتساؤلاته. قال: بعد ساعتين سنصل إلى القدس. ونحوّل الجو الجنائزي. الذي عاشه في السبارة طوال الباحة. إلى جو فرح. فها هم يتكلمون. أخيراً. وها هم يخططون لبرنامج حافل هناك.

وها هم يفصحون: الرجل الوسيم. الذي ضمك للقافلة هو الأمير عبد الإله. الذي ترك العراق ليعود إليه أقوى مما كان.

لكن. القدس؟ هل هي قريبة إلى هذه الدرجة؟ وهل مكة قريبة أيضاً؟ وهل يذهب الأمير إليها ليكون قريباً من الله؟ لماذا إذن أخذوا الويسكي ... ولديهم الكثير منه في القاعدة؟ أسئلة كثيرة ترددت في ذهنه. أبقاها هناك. في حُبث لم يتعلمه. حُبث أعطته إياه الطبيعة.

وها هو يطوّره. ويبرمجها: لن أسأل شيئاً. سأنتظر وأرى. وانحلت عقد ألسنتهم. أو لعلهم لم يعودوا خائفين كالأمس. لم يعد هناك ما يهددهم بعد أن خرجوا من العراق: رشيد عالي الكيلاني ناز على عبد الإله. وصار الشريف شرف وصياً على العرش. الإنجليز مع عبد الإله. الألمان مع الكيلاني. مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني مع الكيلاني... نحن ذاهبون إلى فلسطين.

بدأ عقله الخام يعمل. بدأ يربط. ويحفظ الأسماء. لكن كيف نذهب إلى القدس. والقدس في فلسطين. ومفتي فلسطين مع رشيد عالي الكيلاني؟ هل يسلم الأمير نفسه لأعدائه؟ كاد أن يسألهم السؤال. لكنه عاد إلى رشده. إلى صمته. وظل أمير الأسئلة. في ذهنه: ماذا يريد متى الأمير...

٣

لكن آخر شيء كان يفكر به الأمير. في تلك اللحظة. كان رفيق. نسي وجوده معه في قافلة السيارات. بل لعله لم يشعر بوجوده في الدنيا كلها.

كانت الدنيا. بالنسبة للأمير. تلخص بهذه الإهانة التي عاشها في الأيام القليلة الماضية. كان يسأل نفسه: أنا حفيد ملك. وابن ملك ... وملك غير متوّج. على عرش عظيم. فيأتي هذا النكرة لينافسني على الملك. على العرش. يأتي هذا المسمى الكيلاني فيأخذه متى بهذه البساطة. ماذا أخطأت؟ أحب العراق. فهي لي. أحب ترابه وماءه. أحب خضرته وصحراءه. أحب دجله وفراته. فهما لي. لي فقط. من لا يحب ما هو له؟ لكن.. هؤلاء العراقيون الذين لا أفهمهم. ما بهم؟ ألا يعرفون أنّ مصلحتهم معي؟ ألا يعرفون أنني سأنقلهم إلى عصر جديد. وسأجعل من بلادهم جنة؟ لا ينقص

العراق شيء.. خيرٌ.. خيرٌ كثيرٌ.. ماء وأرض وبتروول.. لا ينقص العراق شيء ليكون كإجلند.. بل ليكون كتلك البلاد البعيدة.. الأرض الموعودة.. أرض الفُرس.. أميركا.. ماذا ينقصه؟ ينقصه العراقيون فقط.. فهم كلهم من أمثال الكيلاني.. حتى السعيد.. نوري السعيد.. فهو مثلهم.. هو منهم.. وإن كان معي فلأنه مع الإنجليز.. وإن كان الكيلاني ضدي فلأنه مع الألمان... لا أحد من العراقيين مع العراق.. لا أحد من العراقيين معي.

كان الأمير يستغرق في تفكيره، وتساؤلاته، حين فاجأه الباشا بقوله:

Every thing will be fine, your highness , leave it to me

I know how to deal with them!

لم يُجب الأمير.. كان يعرف أن وراء كل كلمة مما يقوله هذا الباشا.. غلوب باشا.. ما وراءها.. عليه أن يحسب حساباً لكل شيء.

لم يُجب.. بل أخذ يتأمل الطريق التي كانت غريبة عليه.. فهو يسلكها اليوم أول مرة.. يُحب العراق.. فهي له.. والعراق كراحة اليد منبسطة.. لا علاقة له بهذه التعرجات المزعجة.. والإرتفاعات الصعبة.. والإخفاضات المفاجئة.. التي تقلب المعدة.

العراق له.. لهذا فهو يحبه.. أمّا هذه الأرض المزعجة فليست له.. وإن كانت لابن عمه.. هذا الذي أخذ ينصح.. ليلة أمس.. أخذ بتعالى عليه فبعلّمه كيف يحب الناس.. وكيف يتصرف مع العراقيين حين يعود إلى العراق؟ إنه لا يحب هذه الأرض.. ولا يحب ابن عمه.. لهذا قرر أن يذهب إلى القدس.. لا يريد أن يبقى في عمان.. أن ينتظر فيها.. بل ولم يغمض له جفن فيها.. القدس مختلفة.. القدس إنجليزية.. إنجليزية فقط.. ليست لهذا المفتي اللعين.. هذا الذي جاء إلى العراق ليأخذه مني.. لكنني سأخذ العراق منه.. من بلده من القدس.. بل سأخذ القدس أيضاً.

صرخ في داخله: سأعود بطريقتي.. لا بد أن أعود.. ولا بد أن أعود

من القدس.. لكنني أكره هذا الباشا الإنجليزي الذي يظن نفسه إلهاً.. بين أنبيائه.

عاد غلوب باشا.. ليقول.. بالعربية هذه المرة: ليس لدينا أدنى مشكلة.. فالخطة التي سنعمل من خلالها مضمونة التنفيذ.. لن يمضي أسبوع حتى نعود إلى العراق.. وسترى الذين وقفوا ضدك يقبلون قدميك.

ولأول مرة يتسم الأمير.. لأول مرة منذ ترك العراق بالحسرة الكبيرة.. تتغير سمات وجهه العابسة.. وليتفاعل بكلام هذا الباشا.. الذي وإن كان يكرهه.. إلا أن عليه أن يثق به.. عليه أن يفعل ما يريد.. فالرجل مجرب ويعرف البلاد وناسها كراحة يده.

- لكن الوقت يمضي.

قالها بحثاً عن إجابة معينة.. يريد أن يطمئن أكثر.. يريد أن يعرف أكثر عن هذه الخطة التي ستعمل بها لندن.. لإعادته إلى العراق.

كان غلوب باشا يعرف ماذا يدور برأس الأمير.. لكنه لم يعطه ما يريد.. لم يفصح له بشيء عن تفاصيل الأيام المقبلة.. كان يكتفي بنطمينه.. دون أن يعطيه سبب الإطمئنان.. كان يلعب لعبته الذكية.. يريد أن يشعره.. دوماً.. أنه بحاجة.. أنه دون لندن لا يساوي شيئاً.. كان غلوب باشا متأكداً من عودة الأمير.. فالظروف مهيأة لذلك.. الأموال جاهزة.. الذهب الذي يحبّ شيوخ القبائل أن يحسّوه بأيادهم موجود.. كل الظروف مهيأة.. لكن على الأمير أن يعرف عند عودته أن: لندن أعادته.. ولندن ستكون صاحبة قراره.

عاد الأمير ليركّز على جملته الأخيرة.. وبضيف.. متسائلاً: الوقت معهم.. وحكومة فيشي في سوريا معهم.. والبرلمان معهم.. أعاننا الله على هذه الفترة.

حافظ غلوب باشا على قواعد لعبته: ستعود... ستعود وبسرعة.. كانت القافلة تتهاوى ببطء على الطريق الضيقة التي تنتهي بالقدس.. لكنها حملهم خلالها إلى خوض تجربة المرور بهذه الأرض

المنخفضة، الأخفض على وجه الأرض كلها، لهذا كانت السيارات تمر بمنعطفات غير مألوفة لسائقها. فلا يكادون ينهون واحداً منها، إلا ويبدأون بأخر. كان الوادي يبدو على يمينهم، مرةً، سحيقاً يحمل شكل الهاوية، وعلى يسارهم أخرى، يحمل تضاريس المأساة، لكن الأمير لم ير هذا كله، أو حتى بعضه. كان مُستغرقاً بالتفكير بهذا الذي مر به مؤخراً، وما زال يعيشه. كان الكابوس يستغرقه حتى النهاية، حتى ذلك الطنين الذي أخذ يملأ أذنيه، ظنه عائداً لانعدام النوم، ولو سأل لَعَرَفَ أَنَّ الضغط الجوي هنا، في هذه البُقعة الغربية من العالم، يرتفع إلى أعلى مستوياته، فيقدم تأثيراته على الجسد. أما رفيق، فكان يعيش تجربة مثيرة، كان ينظر يمينا، فيرى وجه الكارثة، ويساراً فيعتقد أنه يعيش نهايته.

لكنه، في حقيقة الأمر، كان يعيش بداية عمر آخر. وفي لحظة، وكما اعربت الجغرافيا عن خطورتها فجأة، فارتفعت وانخفضت، عادت إلى سهولتها كيد مبسوطة، تنفّس الجميع الصعداء، مع هذه الراحة المفاجئة، ورائحة زهور الحمضيات، الآتية من هذا الغور الذي دخلوه للتو، والتي غطّت على رائحة صناعية زكمت الأنوف، وكادت أن تدفع كثيرين للتنقيؤ... رائحة كوابح السيارات التي لم تستعمل، هكذا، من قبل.

مرت دقائق قليلة، في الطريق التي صارت تُعبّر عن جمال، وصمت يدعو للتأمل، ليفترب الوكب من مبنى صغير، يعلوه برج مراقبة، وتحيط به أشجار كثيفة، وليأمر غلوب باشا السائق بالتوقف. توقفت السيارة، فتوقفت القافلة.

هنا، تتوقف السيارات المقبلة من شرق الأردن إلى فلسطين، والأخرى الداهية بالعكس. ليس هناك جوازات سفر لتُختم، فقط يدق الضابط الإنجليزي بالبطاقة، ويسمح بالمرور، ضابط واحد، على الجسر، فوق نهر الأردن، يثبت أن ضفتي النهر له، فيسمح للناس بالمرور، ويمنعهم إذا أراد.

ولم يكن هناك ما يدعو الباشا لإيقاف القافلة، فقد تحسّب الضابط الإنجليزي، فوقف مُستقيماً، ورفع يده اليمنى قرب رأسه، في خبة عسكرية معروفة، لكن الباشا كان يريد شيئاً آخر، كان عصر عقله الإنجليزي، قبل دقائق، ووصل إلى نتيجة أن على الأمير أن يعرف شيئاً مهماً، عليه أن يعرف خلاصة هذا الذي يجري، دون تلميح، بتصريح مبطن.

كانوا ما زالوا في السيارة، التي توقفت عند منتصف الجسر الخشبي القديم المتآكل، حين قال للأمير: سموك... هل تُصدّق أن هذه المياه القليلة، التي تجري تحتنا، هي مياه نهر الأردن؟

فتح باب السيارة، وهمّ بالنزول، مُوجّهاً عينيه للأمير في دعوة غير مباشرة للنزول، وكرّر قوله: تصوّر... هذا هو نهر الأردن!

ولم يكن نهر الأردن من أولويات تفكير الأمير، لكنه كان مغلوباً على أمره، وكان عليه أن ينساق إلى لعبة الباشا، بقواعدها، نزل من السيارة، صامتاً، توجه إلى حافة الجسر، كان غلوب اقترب منه، حين قال: إذن هذا هو نهر الأردن؟

كان سؤاله حيادياً، لم يستنكر صغره، ولم يستنكر معناه، فهذه المياه المضطربة تحت لا تعدو كونها ساقية في العراق، لو ورّعوا دجلة على مدن الدنيا، لقدّم لها أنهاراً أكبر من هذا الذي يراه تحت.

لم يضيّع الباشا وقته، أراد أن يوصل رسالته واضحة سريعة، وكأنه دخل في عقل الأمير، فعرف تساؤلاته، قال: تصوّر لو أن الله اختار بلداً كالعراق مسقطاً لرأس المسيح، ونهراً كدجلة لتعميده... هل ستكون الدنيا كما هي الآن.

واستكمل: لو أن موسى رأى دجلة مكان الأردن، لما عدّ شعبه اليهودي، الضائع أربعين سنة، قريباً من هنا، ولما سلّم يوشع مهمة عبوره إلى أرض الميعاد.

وأكمل، بعد أن نظر إلى الأمير، نظرة تحمل المغزى المقصود: ولو أن الجنرال أليبي كان هنا، عند نهر كدجلة، لما سمّى هذا الجسر باسمه.

ولما انتهت الحرب لصالحنا. ولتستبدّ الألمان الدنيا. وظلّ رجال كالكيلاني والمفتي حاكمين للعراق وفلسطين.

كان غلوب باشا يتعمّد أن يكون لئيمًا. جارحًا. لكنّه كان يتحدث فتاعاته. كانت أفكاره الراسخة بعقله تتوحّد مع دوره. فيمارسها بلذّة سادية. وكان الأمير يفكر في كلّ كلمة. فيتأملها. لتضطرب برأسه كهذه المياه التي تحدث صوتًا كالشلال.

لكنّه كان مغلوبًا على أمره. فعلى لعبة الباشا أن تتواصل. لا لعبته. حتّى يصل إلى ما يريد. وبعدها يخلق الله ما لا تعلمون. عادا إلى السيارة. لتعود القافلة في طريق صعبة أخرى. صعودًا. هذه المرّة. والهاوية كما هي. بين السيارات. ويسارها أيضًا.

والقدس تُعلن عن نفسها. فعرفها رفيق قبل أن يُعلن السائق عن الوصول. كانت قبة الصخرة ترد شعاع شمس ربيعيّة. إلى عينيه. وكأنّها خذّره من مستقبل آت.

٤

وأخذته الدنيا إلى ما لم يكن يتوقع. لكنّه أحب. فمّن المنشورات التي حملها إلى الرمادي. ثم إلى بغداد. إلى الأموال التي أوصلها إلى شيوخ القبائل. إلى الاستقرار مؤقتًا في بغداد. إلى الرحيل إلى عمّان والزواج فيها. إلى العلاقات التي كوّنّها مع الصحافيين في يافا.....

صار يعيش حياة صاخبة. وخطرة أيضًا. لكنّه كان يحبّها. في القدس كانت مهمّته الأولى. أخذه ضابط إنجليزي. من المعسكر الذي أنزلوه فيه. على طريق رام الله. إلى فندق الملك داود. هناك التقى ذلك الرجل الوسيم. الذي أمر باصطحابه من الحبّانية. قال له سمو الأمير: سنعتمد عليك. إفعل ما يطلبونه منك. طلب منه الضابط الإنجليزي أن يرافق سيارة عسكرية حتّى الحدود العراقية.

وينفصل عنهم هناك. مع شخص آخر. فيتوجهان بسيارة مدنيّة إلى الرمادي. ويسلّمان صندوقين لشخص هناك.

وكانت المهمة سهلة. فرفيق ورفيقه لم يثيرا فضول أحد. دخلا الحدود بسهولة. وسلّما الصندوقين وعادا. كان الصندوقان يحملان منشورات موجهة من الأمير عبد الله إلى الشعب العراقي. وتكرّرت المهمة نفسها مرّة أخرى. في الأسبوع ذاته.

قابله الأمير. في الفندق. وهنأه. ثمّ سأله: كيف رأيت الناس هناك. ماذا يقولون؟

ردّ رفيق: إنهم بانتظار سيدي سمو الأمير.

وصار الأمير يتفاعل برفيق. بوجوده معه. كان يحبّ أن يراه ممثلاً للعراقيين العاديين. وصار يثق به. قربه منه أكثر. وأجزل له العطاء أكثر وأكثر. وكان رفيق يتعلّم أوّل درس في الإرتزاق.

واختصّه الأمير. بعدها. بمهمة خاصّة: أن يأخذ ثلاث تنكات. ملأى بالخلي الذهبية. ليوصلها إلى ثلاثة شيوخ قبائل عراقية. قرب الرمادي. كانت المهمة أصعب. لكنّه أجزها بسرعة. وعاد إلى القدس بعد يومين.

كان فتح التنكات الثلاث. في عمّان. وأخذ ست أساور. على شكل أفاع. تركها أمانة عند محلّ لبيع الذهب.

درس ثان في الإرتزاق.

ثمّ رحلّات أربع. في أسبوعين. لنفس السبب. كرّر فيها أخذ ما اعتبره نصيبه. ليعود إلى القدس. فيقابل بثقة أكبر.

وعاد الأمير بالطائرة إلى الحبّانية. ليجد رفيق أمامه. صار واحداً من حاشية الأمير. الذي واصل رحلة العودة إلى بغداد. بعد يومين.

لكنّ بغداد لم تكن عاصمة حياته. كان مجتمعه فيها مقصوراً على الضباط الإنجليز. يتحرّك في دائرتهم. فأثار الفضول. لكنّه صار مكروها حين تعرّف إلى فتاة يهوديّة. ودخل دائرة أهلها. لفت الأنظار إليه. كان اليهود البغداديون احتفلوا بعودة الأمير عبد الله بطريقة

استفرت العراقيين. فرد العراقيون. مهاجمتهم في مذبحه سميت "الفرهود". وصاروا يرصدون أصدقاءهم. وكان رفيق أولهم.

وفي ليلة هاجمه ثلاثة شباب. كان خارجاً من بيت ساره. لحقوا به. وأنهوا ضربهم له بتهديد: سنقتلك لو عدت إليها. لكنه كان يحبها. عاد مُتَنَكِّراً. لتقابلته ضربات أوجع. عصّبوا عينيه. وحملوه في سيارة إلى بيت قديم. حققوا معه حول علاقته بالإجليز. وواجهوه بمنشور من تلك التي حملها من القدس: ألم توزع هذا؟

كانت الورقة المرفوعة أمامه تقول:

أيها الشعب النبيل...

لقد صممت أن أعود إلى العراق لكي أطرد منه المأجورين المغتصبين الذين جرّوا الشعب العراقي الكرم ورموه في ويلات الحرب بأساليب الخيانة والغدر. وقد كان بحمد الله في جوة من هذه الولايات. وسأقيم بدلاً من هذه العصابة الخائنة حكومة دستورية تمثل العراق تمثيلاً صحيحاً كاملاً غير منقوص.

إن العربي المشهور بوفائه لا ينقض العهد. ولا يبيع أصدقاءه مهما كان الثمن. ولكن العصابة المأجورة في بغداد نقضت العهد. وباعت الأصدقاء. فلوئت الاسم العربي وشرف العراق. ولكننا لن نسكت عن هذه العصابة. وسنعيد إلى العراق السلم والطمأنينة والرخاء والإزدهار. ليعيش ملكنا محبوب فيصل الثاني وليعيش العراق.

مطبعة المستقبل - القدس - ٨ مايس ١٩٤١ عبد الله

وواجهوه بورقة أخرى مُشابهة. كانوا يريدون معرفة مَنْ كتبها.

أنكر. وأنكر. وأنكر. ضربوه أكثر. وهددوه: سنقتلك لو كررت المسألة.

و قطعوا أصبعه البنصر. وتركوه.

وصارت بغداد كابوساً لا يُطاق.

٥

تستطيع دهب، لو أرادت، أن تملأ تنكتها من انحدار ماء النبع. في المجرى الذي يمر عبر إنبوب تحت الشارع العام. ويتواصل نازلاً يتهادى مع انخفاض الوادي. فينحرف يمينا مع صخرة كبيرة تسد طريقه. ويساراً

مع صخرة أخرى. في مسار لولبي يُعطي له شكل أفعى طويلة. تلتف حول الجبل. يرتاح ذنبها عند رأس النبع. فوق الشارع. وينغمس رأسها في جدول الماء. في منتصف الوادي.

بين الشارع الضيق. الذي يُشرف على المشهد كلّ. والوادي الذي يلتهم مياه النبع. فيأخذه معه إلى اجتماع جديد مع جدول آخر. ليصباً معاً في جداول أخرى. فتجتمع في نُهير. يختلط في نهاية الأمر. مع مياه نهر الأردن...

بين هذا وذاك. تنتظم خرابيش ثمانية يسكنها النور...

ولو أرادت دهب، أن تملأ التنكة. من منتصف المسافة. بين الشارع والجدول. من القناة الطبيعية. دون أن تضطر للصعود إلى الشارع. لاستطاعت. فهي. تسكن أحد هذه الخرابيش. المبنية من سعف نخيل جبيء به من الغور. وتماسك بفعل طين. أشبه بالفخار. جبيء به من طمي الجدول الناعم.

وهي. لو أرادت. لسارت بضع دقائق. حتى القناة. لكتها تفضل أن تحمل تنكتها. كل صباح. وبعد ظُهر. في طفوس نزقة. فتتسلق المنحدر. سائرة بتمهل مع خطّ النبع المتعرج.

عند حجر كبير. تقف. تضع تنكتها جانباً. ثم تجلس على طرفه. تخلع نعالها الخشبي ذا الجلدة المطلية بأحمر فاقع. وتدلي رجليها في الماء. لتتنسم هواء ربيعياً مُشبعاً بخليط روائح زكية. تمر دقائق قليلة فتتوقف. مع شعورها بلذّة البرودة التي تتصاعد تدريجياً إلى كل جسمها. وتبدأ مشية صبيانية مع مسار الماء. فتتركه بنعومة ليتطاير الرذاذ على الجنبيين. تتوقف عند جمّع نباتات برية. فتلتقط ضمة منها. غالباً من النعنع البري.

تعود. بعد قطع أمتار قليلة. إلى جلستها على الحجر. فتحني رأسها وتمد يديها إلى الماء. تغسلهما بدلع. وهي تهرس بهما النعنع. ثم تفرك وجهها بهدوء بخلاصة هذه النبتة. التي أكدت أمها أنها تحمل أسباب نضارة الوجه. تتطالع حولها. ولما تأكدت من وحدتها. تنزل

يدها اليمنى إلى رقبته. ثم إلى ما وراء ثوبها. فتفرك نهدا الأيسر بهدوء. وتداعب حلمتها. وتنقل إلى إبطها الملقوق. تكرر الحركة بيدها اليسرى على نهدا وحلمتها وإبطها في جهتها اليمنى. وتستغرق في نشوة شفيفة. بعد دقائق. يجف الماء عنها. فتتنسم رائحة جسدها الجديدة. وتسحب رجليها من الماء فتنتعل الخشبطين. وغمل التنكة في رحلة صعود قصيرة إلى الشارع.

على الجانب الآخر. من الشارع. أقيم سبيل ماء. هو عبارة عن تفرع صغير من مسار النبع. يصل إلى ماسورة تنتصف جداراً إسمنتياً. ينفجر منها الماء. ليكون مشاعاً للمسافرين إلى فلسطين. والعائدين منها. لارتواءة من عطش سفر. أو غسيل لقبار خريف. أو إبعاد حر صيف. أو إرضاء محرك سيارة بدأ يلقي ببخار كثيف من طلوع صعب. أو نزول أصعب.

على الجدار كتب مجهول. بخط رفيع: "وجعلنا من الماء كل شيء حي". وبخط عريض جداً: "ماء صالح للشرب".

وإلى جانب السبيل. تتوزع مقاعد خشبية. أشبه بالصناديق الصغيرة. حول طاوولات صغيرة. لتشكل مدخلاً لعرفة صغيرة. أقيمت من صبة إسمنتية. وعلقت على واجهتها لوحة خشبية تحمل كلمتي "إستراحة المسافر". وحتها ينتصب لوح زجاجي مكسور. تقف خلفه بسطة خشبية. تحمل أنواعاً من الخضار والفواكه والسجائر والحلوى. ويتدلى فوقها. من سيخ معقوف. خروف مذبح. أو بعضه. عند جانب اللوحة الخشبية يبدأ سلك نحاسي متين لينتهي مع مسمار دق على جدار السبيل. ويحمل أواني وأباريق بلاستيكية وسلات من البوص. وتنظم تحتها. بخط مستقيم على الأرض جرات وأباريق فخارية. يقف إلى جانبها صبي. أمام نصب معدني. ويحمل دوماً. بيده اليسرى أسياخاً حديدية تخترق قطع لحم صغيرة. وباليمنى قطعة كرتون قوية يهش بها فوق قطع الفحم المتجمّر. ليتساعد دخان مرتو برائحة طيبة. يستفز شهية الجالسين المنتظرين وجبة

سريعة. وراكبي السيارات فيتوقفون. لكنه يثير تأقف ذهب. فتشتم مع كل هبة منه الصبي. ولك يا كلب غبيتنا دخان. كانت تخاف على رائحة لحمها النعناعية. من الاختلاط مع رائحة اللحم المشوي.

تقف ذهب. كل صباح. وكل مغيب. عند السبيل. بعد أن تقطع الشارع بدلال. تلعب خلاله سائفاً. أدت رعوته قيادته لاصابته ببعض من رذاذ الماء المنساب على الشارع. أو تتطلع باستخفاف نحو مسافر تفوهه عبارة جارحة. أو تمسح بعينيها السوداوين الواسعتين الجالسين بانتظار انتهاء الشئ. والواقفين إلى جانب الماء يمسحون وجوههم ويقتلون عطشهم. بحثاً عن صيد الصباح. أو المساء.

كانت الطريق شهدت انتعاشاً لم تعرفه من قبل. وكانت ذهب أصبحت لأهلها اسماً على مسمى. فمع اكتمال تكوّن صدرها. وصعودها إلى خربوش السعادة. حيث اشتعال الأجساد. كانت الدنيا وكأنها فتحت باب رزقها. فربيع ١٩٤٨. الذي وشى بشتاء سابق غزير. اشتعلت معه الأرض بألوان زهر عجيبة. حمل معه أيضاً قوافل لا تنتهي من الناس. في طريق لم تعرف سوى الرتابة.

وكان السبيل والاستراحة محطة التوقف. لإرواء العطش. وقتل الجوع. وكانت ذهب محطة التوقف. لإرواء الظمأ. وقتل الشهوة. صارت ذهب ذهباً. مع هذا الانتعاش المفاجيء. يحمل قراره. فيتأمل في الشاري. يقبله. أو يرفضه. حسب الغريزة. حسب المزاج.

لم تعد تقبل أي زبون كيف ما اتفق. لم تعد تقبل. مثلاً سائقي الشاحنات. والجنود ذوي الرتب المتدنية. وسكان القرى المجاورة. صارت تتأمل الزبون. من رأسه حتى قدميه. فترتاح لنظافته. وتومئ برأسها أن نعم. وتسبقه بقطع الشارع. أو تشمئز من تلوث ثيابه. وهياته الوضيعة. فتدير رأسها عنه. بانتظار صاحب النصيب اللائق بها. الجدير بحصوله على بعض سحرها.

وحين توقفت السيارة العسكرية. فنزل منها ذلك الشاب المدني.

ودخل إلى الاستراحة، واستمعت لصوته يصرخ طالباً ويسكي، فخرج بكيس ورقى، وركب السيّارة، التي انطلقت مسرعة في طريق عمّان، عرفت أن الرجل سيدخل حياتها.

لم ترم ودعاً على الأرض، أو تنطّل في بلّورة مسحورة، لكن غريزتها قالت لها: سيدخل الشاب في حياتك.

كان ذلك في رحلتها الصباحية، وعلى غير عاداتها، رفضت ذهب أن تعود بصيد إلى سفح الجبل، عادت وحيدة، حُمل تنكتها الفارغة، فملأتها من مسار النبع، وصلت إلى الخربوش، لتقابلها تساؤلات أمها، وأبيها، وسكان التجمّع الذي بدأ مؤقّتاً، فوجد في المكان شكل الرحيل الدائم، ومعنى التغيير اليومي، فاتخذة مُستقرّاً.

ولم تُجب ذهب على تساؤل، إكتفت، فقط، بلقمة خبز مغمّسة بعسل، وارتمت في زاوية من الخربوش، في إغفاءة قصيرة، عادت بعدها إلى نشاط معهود، فخرجت إلى حيث موقع حَجَرها، على ضفتها الصغيرة، إقتعدت الحجر، بعد أن عرت قدميها من الخشبين، وأنزلتهما إلى الماء، وأخذت تتأمل المشهد المترامي أمامها ...

مرت ساعات، بدأت بشمس تُلقي أشعة شرسة، وها هي تنتهي بها تقترب من التهالك، فتتصارع مع جبال الغرب، ذهب صارت جزءاً من لون ذهبي يغمر الجبل والوادي، ذهب صارت صوتاً يأتي من منقاري عصفور يتنقل من شجيرة إلى أخرى، ذهب توحدت مع هذه الطبيعة التي لا يكسر جمالها سوى صوت سيّارة تنهب الطريق، ذهب بدأت تشعر أنها منساقفة نحو قدر لم تُقدّر، قبل الآن، أن يكون لها .

دون أن تتكلّف الفعل، ودون أن تنطّل حولها، سارت في الماء، قليلاً، إنحنيت، فالتقطت بضع ضمّات من النعنع البرّي، وضعتها على الحجر، وبدأت بالتعرّي، أنهت، مدت كلّ جسدها على أرض الماء، على مجرى النبع، الذي كان، بالكاد، يتسع لها، إتخذت حجراً متوسطاً، وضعت في المجرى، مخدة لرأسها، أمسكت بضمّة نعنع، ففركتها بيدها،

وبدأت بفرك جسدها، من أخمصي قدميها حتّى رأسها، كانت تفرك كالمجنونة، تُنهي ضمّة لتبدأ بأخرى، وتنهى عضواً من جسدها لتبدأ بأخر، كلّ هذا وهي تتلوّ بأسفلها على أرض المجرى، في الطين، كانت تنطهر .

كانت تتعمّد، بطريقتها.

كانت تطوي صفحة من كتاب العمر، لتفتح أخرى.

عادت، مع انتصاف تهالك كرة الشمس، في تصارعها مع جبال الغرب، لتقتعد الحجر، بعد أن شطّفت جسدها من الطين، وسرّحت شعرها بيديها، فازدادت التواءاته، ليبدو، مع لون المكان المُصفّر، كتجمّع خيوط ذهبية ناعمة ملتوية، إنتظرت أن يجفّ جسدها، فأخذت تتأمل الخرائب التي ينتهي عندها البصر، تلك التي زرع أهلها الخوف في قلبها منها .

٦

ليس سهلاً أن يكسب شخص ثقة الباشا، لكنّ رفيق لم يكسب ثقته فحسب، بل دخل إلى قلبه بسرعة قياسية.

كان غلوب باشا، في حقيقة الأمر، يميل إلى اللهجة العراقية، مع أنّه لم يحب العراق، وكان يُعجب برجولة العراقيين، دون أن يحبّها، فالعراقيّون، له، شعب لا يمكن التنبؤ بتصرفاته، يبدو، أحياناً، هادئاً، فيفاجئك، في لحظة، بثورة دموية، ويبدو نائراً، في لحظة أخرى، فتكتشف أنّه ذاهب لهدوء كالسكون، العراق له دجلة والفرات، إنّهُ تجمّع النهرين معاً، الفرات يأتي من جبال، لكنّه لا يصل العراق إلّا بعد أن يخوض في سهول، وينساب في رمال ناعمة، أمّا دجلة، فيدخل العراق مضطرباً هابطاً من جبال عالية، ليتواصل ماؤه مُحارباً

الصخور القاسية .
وكان رفيق فُرائاً عذباً، بالنسبة للباشا، ولهذا أحبه. وكان دجلة
الناثر في تنفيذ تعليماته. ولهذا أحبه. أيضاً .
ولم يقرأ الباشا تلك الورقة التي يوصيه الأمير عبد الإله بها خيراً
برفيق. وضعها إلى جانب الطاولة. وسأل الشاب الذي يقف أمامه
باحترام: إذن يا رفيق تريد أن تستقر في عمان ؟
رد رفيق: نعم يا سيدي .

قال الباشا: لكنّ بغداد أكبر وأجمل. غريب أن يفكر شاب مثلك
بعمان ؟

أجاب رفيق: بعد أن رفع يده، مبدئياً أصبعه المبتور : نعم يا سيدي.
لكنني كدت أن أقتل هناك. لست من بغداد. أنا من الرمادي ...
وإستغرق في شرح مختصر لطريقة تعرّفه إلى الأمير. ورحلته إلى
القدس. ورحلاته إلى العراق. ومعاناته في بغداد. وووو..

قاطعته الباشا: وماذا ستعمل في عمان ؟

ردّ : أنا بأمرك يا سيدي!

وقرّبه الباشا منه.

كان يحبّ هذه النوعية من الناس. حيث لا أصل ولا فصل. وجرأة
وقحة يشوبها خوف دائم . ولغة إنجليزية تساعده على العمل مع
ضباطه. وإعجاب لا متناه ببريطانيا العظمى. التي كانت تخوض حرباً
عالمية صعبة.

وصارت طريق عمان القدس يافا. وأحياناً تل أبيب. خطّ مساره شبه
اليومي. كان يحمل الأوامر الشفاهية من الباشا. وإليه. للتنسيق في
أمور الحرب. وتحركات العسكر.

وانتهت الحرب الكبرى. لتبدأ مهام أخرى. لكنّ الطريق نفسها
ظلت تشهد. وقد خوّل إلى سيارة مدنيّة. إلى جانب السائق. في
رحلات تباعدت أكثر. صار يسافر صباحاً ليعود بعد يومين. دون
تعليمات. أضاف تل أبيب إلى محطاته في فلسطين. كان ينهي

مهمته. في القدس. أو يافا. لتأخذه الطريق إلى ساره. التي هاجرت
وأهلها إلى أرض الميعاد.

وهناك. حيث البحر. والشوارع النظيفة. والناس من كلّ ملّة
وشكل ولون. كان يعيش دهشته. وفرحته. وحبّه. تل أبيب ليست
بغداد. وساره هنا ليست سارة هناك. ورفيق هنا ليس رفيق هناك.
وهنا. صار يحمل اسماً ثالثاً ...

في عمان ناداه الباشا. مرّة. بعبد الإله. غاب إسمه عنه فصرخ:
عبد الإله أين عبد الإله . وهكذا صار الجميع ينادونه عبد الإله .
إستنكر. فقال للباشا بتزلف : لو كنت سأغيّر اسمي لفضّلت فارس.
كان غلوب باشا أنجب ولداً سمّاه فارس. إرتاح الباشا للردّ العفوي.
فقال: اسمك الجديد هو عبد الإله. لكن عدني بأن تُسمّي ابنك فارس.
ردّ : صار!

وها هو يضيف إلى إسميه واحداً ثالثاً.

كانا متوحدين في جسدين يربطهما مسمار لحمي. وهزّة ارتجّت
لها جبال يهودا والسامرة في سارة. ودجلة والفرات في عبد الإله. حين
قالت بصوت خافت أشبه بالهمس: أبرام .. سأسمّيكَ أبرام.
همس مُستغرباً: أبرام؟

وإبتسم. ثمّ خوّلت إبتسامته إلى ضحكة مكتومة: أبرام. لماذا
أبرام؟

قالت: لأنني سارة. سارة كانت زوجة أبرام أوّل اليهود. الذي خوّل
اسمه إلى إبراهيم بأمر الربّ.

ردّ عبد الإله: إذن سمّيني إبراهيم. فهو إسم عربيّ أيضاً؟

قالت: بشرط أن تقبل أن نسّمّي ابننا إسحق. على إسم إبراهيم
من ساره.

ردّ بثقة: صار ... فإسحق إسم عربيّ أيضاً.

لكنّ إسحق كان ابناً مُستحيلاً. حبّ مُستحيل. في أرض
مستحيلة.

تواصلت لقاءات التوحد. والهزات التي تشي بشقوق تفصل الأرض إلى اثنتين. فتباعد بين ساره وإبراهيم الجديدين. ومع الأيام. صار يبتعد اللقاء يوماً فآخر. صارت سارة عضواً في كيبوتز قريب. تعود إلى تل أبيب مرة في الأسبوع. فتلتقي إبراهيمها. وانغمست في الكيبوتز أكثر. فأصبح اللقاء شهرياً.

وهكذا إلى أن جاء نيسان ١٩٤٨.

إلى أن جاء أول الشهر الذي قطعت فيه سبل الوصول إلى تل أبيب. عبر يافا. فلم تنفعه الكلمات العبرية القليلة. التي التقطها من سارة. ليجتاز حواجز الهاجاناه. إلى أن جاء منتصف الشهر الذي شهد هروب أهل يافا براً وبحراً. راحت سارة. في جانب الشق الآخر من الأرض. بعد هزة أرعبت الكون.

V

كاد يفرك عبد الإله عينيه. غير مُصدق ما يرى: ساره تحمل تنكة ماء. على جانب طريق عمان القدس. وتملأها من السبيل؟ أمر السائق بإيقاف السيارة. نزل. مُفتعلاً برغبته بشرية ماء. تطلعت إليه بتقدم نحوها. ويسألها بأدب: هل أستطيع أن أشرب من هذا الماء؟

حدث إليها وكأَنَّها إلهة الماء.

فهمت من السؤال رغبته بالحديث. فأعجبت بحدس قلبها الذي همس لها. صباحاً. بالمستقبل.

تأملها. وهي تحرك عينيهَا بعلامة الإيجاب. فاستعاد. بداخله. قولاً: يخلق من الشبه أربعين. وتساءل سره. أين هن الثمانية والثلاثون سارة الأخريات؟

شعرها يكاد يصل إلى ركبتهَا. كان مُستقيماً حتى مستوى

الرقبة. لبدأ انحناؤه والتفافاته المثيرة حتى يطاول الركبة. عينها واسعتان. ذاهبتان إلى ميل جميل. في طرفيهما. نحو الأعلى. الأنف متوسط. لكنّه يتوجّه نحو السماء. فمها أقرب إلى الإتساع. دون مبالغة. لعل الخالق أراد منه أن يظهر هذين الصفتين من الأسنان الجميلة.

سارة.. كانت سارة إلا قليلاً.

ولولا هذا الثوب المُركش. الغريب الألوان. والسلاسل والأساور التي تحمل ألوان الذهب والفضة. دون أن تكونهما. والخلخال الذي يسوّر كعبها. ويعتلي نعالاً خشبياً رخيصاً. لناداهَا سارة. وذهب معها في عناق جدير بلقاء حبيبين. بعد فراق أشهر. وزلزال جعل الأرض اثنتين. فأخذها إلى الجانب الآخر.

وتأملته. وهو ينحني. ويرتشف من جمّع راحتي يديه. المملوءتين بالماء. وسيم. طويل برشاقة واضحة. يسرح شعره نحو الوراء. ويعتلي فمه شنب كثيف ميمز. كان جديراً بأن يرتشف من حبها. قليلاً قليلاً. ليظل نصف مرتو ونصف ظمآن. حتى لو أعطته كل مائها. ليرتوي مرة واحدة. فلن تمنع. هذا ما يحدثها به قلبها. وهذا ما توجبه عيناه. التي التفت بعينيهَا في حوار لا يحمل كلمات.

استدار جسمه نحو قطع الشارع. لكن عينيه لم تتحول عنها. التقط أنفه رائحة الشواء الزكية. والتقط قلبه سبباً لمواصلة خُستس الآتي. أعاد جسمه لاستقامته. وتحوّل في مسير خطوتين نحو طاولة صغيرة. عيناه ما زالتا مسمرتين في عينيهَا. أمر الصبي بثمانية أسياخ. وتمنى لو يُيطرء في انضاجها حتى الصباح. أكل حصته بهدوء. بعد أن بعث لسائقه بنصيبه.

ولم تُفارق عيناه عينيهَا. سوى لحظات اضطرت لها. ولحظات اضطرت لها. إفتعلت عدم قدرتها على حمل التنكة المملأ بالماء. نادى على سائقه. وأمره بحملها. وكأن كل شيء كان يسير بخطة مُسبقة. سارت ذهب وإلى جانبها عبد الإله. يتبعهما السائق حاملاً

التنكة. وسط زهول الجالسين. والصبي. وصاحب الإستراحة. والليل الذي بدأ يعمم سواده. والقمر الذي يغالب غيمة ربيعية صغيرة. فقلبها ليرسل ضوءه الهادي. والماء الذي إنسجم صوته الرخيم مع صوت صرصار الليل.

كانت تعرف طريقها جيداً. صارت تنبّهه إلى عثرات المسار. أمسكت بيده. تقتاده نحو الخرابيش. اشتتم منها رائحة النعنع البري النفاذة الشهية. ثم راحت رائحتها تختلط بروائح دخان أتية من نار تنلأ من مسافة لم يميز طولها. وتنضح مع وهجها الخرابيش. ثم تتباعد مع انطفاءاتها القصيرة. ومع اقترابهما. بدأ يستمع إلى صوت عود في نغمات هادئة حنونة. صارت تتصاعد بإيقاعية. مع كل خطوة لهما باتجاه الخربوش الكبير. ليستمع. قبيل دخوله إليه بخطوة. بصوت عميق لامرأة. تغني:

لَهْجَرُ فِصْرِكَ ... وَأَرْجِعْ بَيْتَ النُّورِ ...
وتوقفت المرأة عن تكملة الأغنية. وتوقفت العازف عن مداعبة الأوتار. مع دخولهما الخربوش. فوقفت المرأة ترحب بهما بمبالغة. وأمسك الرجل بسبخ حديدي قلب فيه جمرأ في كانون ينتصف المكان.

حدثت ذهب مع أمها وأبيها بلغتهم. لهذا لم يفهم عبد الإله أنها كانت تقول لهما: اذهبا وأبلغا الجميع. لا أريد أن أرى أحداً منهم هنا الليلة. هذا الرجل ليس كغيره من الزبائن.

فقط. تابع عبد الإله الرجل والمرأة يخرجان من الخربوش. واستمع لسائقه بسألهما عن مكان وضع التنكة. فتذكره. وتذكر أنه انقاد إلى المجهول.

قال لذهب. التي تحولت إلى مزيج من اللونين. الأحمر والأسود. من انعكاس ضوء الفانوس الكازي المختلط بتوهج الجمر وسواد الليل: حرام عليك أن تخلمي التنكة هذه المسافة.

وافعل استدارته للخارج. همأ بالعودة. ثم أضاف: ترى هل سنعرف

الطريق إلى السيارة وحدنا؟

ردت ذهب. ونظرتها تنفذ إلى داخله: من عاداتنا أن لا نسمح للضيف بالخروج في موعد العشاء!

وأشارت إلى صدر المكان. في دعوة للجلوس على الفرشة التي تقابل الكانون. وسبقته إلى الجلوس على فرشة مجاورة.

قال. وقد نسي أنه أنهى لتوه أكلة شهية. ونسي توجهه إلى القدس في مهمة: لكننا لا نستطيع ترك السيارة في مكانها.

ردت بثقة: ولا يهملك هذه سهولة. سنأتي بالسيارة إلى هنا.

ابتسم. وقال متسائلاً: إلى هنا؟

أجابت: نعم إلى هنا. وإلى داخل الخربوش إن أردت!

ونادت على أبيها. حدثته بلغتهم. فتوجه إلى السائق لينطلقا معاً نحو الشارع. عادت وقالت لعبد الإله: خلصنا من مشكلة

السيارة. تفضل.

وأشارت إلى الفرشة بجانبها. فجلس.

سألها: من تلك التي كانت تغني؟

ردت: أمي. والعازف أبي. هل أحببت صوتها؟

أجاب: جداً.

قالت: سنستمع إليها إذا أحببت. ولكن الطرب يحب الخمر. هل

أتي بالنبيذ. ليس لدينا ويسكي هنا!

كانت تتذكر صراخه صباحاً. بصاحب الاستراحة. طالباً الويسكي.

وأضافت: لكن النبيذ لدينا رائع. يأتي به أبي من الفحيص. لديه

صديق هناك يصنعه بنفسه.

واعترت صمته إجابة.

خرجت. لتعود أمها بعد دقائق. تحمل إبريقاً فخارياً. أغلق رأسه

بقطعة خشبية. وسد فمه بلقافة جلدية بإحكام. وضعته على

الأرض. قبالة الفرشة التي تفتعدها ذهب. وخرجت.

كان أنهى إزالة القطعة الخشبية. ويحاول عبثاً سحب اللقافة

الجلدية. حين أعلنت ذهب عن دخولها بصوت الخلخالين النحاسيين الماجن. ثم أطلقت ضحكة مخنوقة بيديها. على جهله طريقة فتحها.

تطلّع نحوها فرأى سارة.

كانت ذهب ترتدي عباءة سوداء حريرية. تلتنع بالوهج الأحمر إياه. وتضع على عينيها المشتعلتين كحلاً أسود. إنحنى لتأخذ منه الإبريق الفخاري. الذي شعر بأنه شربه كله. دون أن يعرف له طعماً. فشاهد بداية تكوّر نهديها. رمت نفسها على الفرشة. وببساطة متناهية فتحت لفافة الجلد عن فوهة الإبريق. بعد أن قربتها من النار. ولأول مرة أخذت عيناه مشاهد قدميها عاريتين من النعال الخشبي. والشريط الجلدي الأحمر الفاقع. الذي كان يلتقيهما. صار اللون الفاقع بلاءً أظافر أصابع قدميها. التي كانت تتناسق بتدرج مدروس.

وكاد أن يصرخ بها: ساره!

وكاد أن يتحسّس رأسه. ليتأكّد من يقظته.

وكاد أن يسرق الإبريق. من ذهب. ليتأكّد من أنّه لم يشرب منه.

بعد. آية قطرة.

أعطته ذهب الإبريق. بعد أن تذوّقت. وبدا عليه استغرابه عدم وجود كؤوس. فقالت: نحن لا نشرب مع أحبائنا بكؤوس. فعادتنا أن نشرب معهم من أنية واحدة. لنثبت أننا وإياهم شيء واحد. فقط نبدأ بالشرب. لنثبت أن مشروبنا خال من السم!

شرب من الإبريق. كفاية كأس كبيرة. وأعادته إلى ذهب. همّت بالشرب. ليستمعاً إلى صوت سيارة تغالب الطريق.

قالت. بعد أن شربت: وصلت سيارتك.

وأعادت له الإبريق.

إرتشف منه. وأعادته. وهو يقول: لم أعرف اسمك؟

ردت. بعد أن شربت كفاية امتلاء فمها: ذهب. إسمي ذهب.

أمسك بالإبريق. أخرج من جيبه علبة سجائر. قدّم لها واحدة.

فاعتذرت بدلال. أشعل نفس اللفافة من جمر الخشب على الكانون. ونفّث شهيقه دُخاناً في سماء الخربوش. شرب كفاية كأس كبيرة. فسأل نبذ أحمر على قميصه. وقال: أنت منذ الليلة سارة.. إسمك سارة. هل فهمت؟

كان يأمرها.

وفهمته ذهب. فصارت سارة.

كانت تطيع.

وشرب. وشرب. وشرب.

وشربت. وشربت. وشربت.

وأحسّ بلحظة مفاجئة بالجوع. جوع ما داخل البطن. لا ما تحتها. أعلمها. بالأمر. وكأنه يعطيها تعليماته: ما رأيك أن يأتيانا السائق بلحم مشوي من الإستراحة؟

كان أكثر من منتش. وأقلّ من سكران. أخرج من جيبه رزمة جنبيات فلسطينية. ومدّها أمام سارة. أخذت منها بعضها. وأعادت يده بالباقي إلى جيبه. وتوجّهت للخارج. لكنه استوقفها أمراً. وقد تنشق بعض دخان من الجمر المتوهج: انتظري. أريد جدياً صغيراً. مذبوخاً. وليعودوا معه بفروته. أنا سأطبخ!

عاد عبد الاله. في لحظة. إلى الرمادي. إلى ليالي الصحراء. تذكر تلك الطريقة لطهي الذبائح. حيث توضع ملفوفة بفروته. في حفرة. وحولها الجمر. فتواري تحت التراب. ويزاد على التراب فوقها جمر آخر. لتترك ساعات أربعاً. فتخرج شهية كما لا يكون لحم آخر.

ذهب الأب والسائق لجلب الذبيحة. وسارة لإحضار إبريق آخر. وجلست الأم عند مدخل الخربوش تغني:

لهجر قصرك ... وأسكن بيت النور ...

وبدأ عبد الاله يحفر أمامها. حفرة تتسع لجدي اكتست عظامه حملاً طرياً من ربيع وافر. جاء به شتاء عظيم. ناسباً أن مهمته في القدس كانت تقتضي منه أن يخبر قيادة الجيش. في الشيخ جراح. أن

هجومهم على هداسا، لتحريرها، يجب أن يبدأ مع الفجر ...

٨

لم يكن عبد الإله يبكي الباشا، كان يبكي نفسه، حين دَخَلَ فارس عليه فجأة، وما كان لهذا الفتى، ذي السنوات الثماني، ليستوعب أن أباه فَقَدَ جداراً يستند إليه في بلد لم تشهد ولادته، وكان فيها غريباً حتى الكره.

حضر وحيد فارس بحنان لم يألفه الإبن، ولا كان يتوقع أن يندقق هكذا، يوماً، من أبيه.

قال له: راح الباشا يا فارس... راح غلوب باشا.

وضمّه إليه أكثر، كان يخشى على ابنه من الآتي في الدنيا، فرحيل غلوب يعني، فوراً، رحيل رجاله، وهو في بلد لن يرحمه، حيث لا أهل، ولا عشيرة، وإذا وقع المحذور فلن يجد من يأسف عليه، وإذا هرب فماذا يفعل بفارس، هذا الذي لا ذنب له سوى أنه ابنه، ضمّه أكثر، فبدا أصبعه المبتور أمامه وكأنه يُذكره بمصيبته أكثر فأكثر، وتابع بكاءه المرّ غير عارف أن هذا المشهد سيُحفر في ذاكرة الصغير طوال عمره، سيكون كهذا الوشم الصغير، البادي على ظاهر يد ابنه، بشكل نقطة، وأمسك بيد ابنه ليرى الوشم، ويتذكّر دهب، تلك التي غيّر إسمها إلى سارة، في لحظة نشوة، فأعطته نفسها، أعطته كلّها، وأخذت منه نطفة فأعادتها فارس، ليسرقه منها، ويتواصل معها في أوقات الرغبة، دون أن يكون لها حق الأمومة.

وعادت إلى ذاكرته تفاصيل تلك الليلة، وما بعدها من سنوات، كان أنهى أكله الوحشي من الجدي الناضج حتى إنسلاخ اللحم عن العظم، وأنهى شرب أباريق ثلاثة من ذلك النبيذ الفحيصي، حين تمّده

على الفرشة في الخربوش الحميم، لم يقترب من سارته، لكنّها نامت إلى جانبه، تنوّسّد بطنه، وتداعب شعره، حين راح في نوم عميق، الإذاعة المتقلّبة عند جبال عراق الأمير ضدّ عبد الناصر مع حلف بغداد ... غرار الصغير ...

جورج النجار

٩

القدس مدينة كئيبة.

فأين الحياة فيها، من تلك التي عاشها جورج في يافا، مدينته، وساحة شبابه، وعطائه.

هناك، كان ملكاً غير متوّج، الكلّ يحسب حسابه، الناس العاديون والسياسيون، أيضاً، كان ثرياً، ثرياً جداً، فالأملاك التي تركها له والده تمتدّ حتى ما لا نهاية، و"الوطن"، الصحيفة التي أسّسها بعد عودته من الدراسة الجامعية، في لندن، كانت حديث الناس، في ثلاث سنوات صارت تنافس صحفاً عمرها ثلاثون عاماً.

كان ملكاً بالحجم الذي يرضيه، على مقاس يافا.

وهو، الآن، في القدس، مواطن عادي، صحيح أن حالته مستورة، فقد خرج من يافا بعشرة آلاف جنيه فلسطيني نقداً، وحصل من البنك العربي على عشرين ألف أخرى، من حسابه في يافا، لكنّ أين حاله، الآن، من حاله في يافا.

وصحيح أنّه يعيش، أحياناً، في المدينة الكئيبة، حياة صاخبة، بعد أن افتتح مكتباً للسياحة والسفر، لكن أين صخب البحر، من صخب

الصخر. أين صخب السياسة. من صخب السياحة. أين صخب يافا.
من صخب القدس؟

هناك كان لحياته معنى. وهنا فقده.

كانت " الوطن " عنوان حياته. فالطابق الثاني. المُطلّ على ميدان الساعة. الذي كانت تشغله. كان ملتقى السياسيين والوجهاء. منه خرجت مظاهرات. وتخرجت قيادات. فأين تلك الجلسات. الحارة. إذن. من هذه التي يقضيها في مكتب يواجه باب العامود. يُراجع الأسماء. ويحلّ مشاكل المسافرين. أو في مقهى صغير. عند أول شارع صلاح الدين. يُراقب الناس. ويموت في همّة.

ولم يكن يحمل للقدس. أصلاً. أي حبّ. فهي للمجلسيين. للحسينيين. جماعة المُفتي. هؤلاء الذين تركوا يافا مكشوفة لليهود. يحتلونّها دون قتال. الذين سحبوا منها قوّاتهم للدفاع عن القدس. هم لم يحبّوا يافا يوماً. وهو لم يحب القدس أيضاً.

حتى وهو في لندن. كان قد حسم أمره. فاقترب من المعارضة. كان يرى أن أساليب المجلسيين لن تُحافظ على فلسطين. فالعالم كلّهُ مع اليهود. وعلى قيادة فلسطين أن تعرف كيف تُحاور العالم. وتُقدّم صورة حضارية عن العرب. وهذه الصورة لن يقدّمها إلاّ الشباب من أمثاله. هؤلاء الذين عاشوا في الغرب. وعرفوا أساليبه. وتحدّثوا لغته.

وفي يافا مارس قناعاته. فلم يجد حرجاً في التحوار مع الانجليز. ومعه الكثير من الشباب المثقّف. كان يُعلن: لو تركنا الانجليز لليهود فستذهب فلسطين بشريعة ماء.. علينا أن نلعب على التناقضات. فنحافظ على الأقل على شعرة معاوية معهم. وهذه الشعرة. أخذته أحياناً إلى اجتماعات. سرّية. مع اليهود في تل أبيب. للتباحث حول مشكلات تنشأ فجأة. مثل تلك التي وقعت في صيف ٤٤.

استفردت مجموعة من الشباب اليهود. بياقي فأشبعوه ضرباً عند مدخل تل أبيب. ردّ الشباب العرب بضرب كلّ يهودي يمرّ بجانب بيّاراتهم. وطرقهم. وكادت الأمور تتطوّر إلى أكثر حين أطلقت

مجموعة يهودية النار على سبّارة عربية. فقتل العرب يهودياً. استنفر الطرفان. وطلب الحاكم الانجليزي. من العرب. قبول المصالحة. وكان جورج من أعضاء وفد صغير. زار تل أبيب وانهاوا سوء التفاهم.

وصارت يافا مركز تجمع للشباب المثقّف. يأتون إليها من كلّ فلسطين. وهم يحملون أفكارهم التي حملوها من جامعات الغرب. وبيروت والقاهرة. وأحبّهم الناس. فالقيادة الفلسطينية كانت في الخارج. تنتقل من بلد لآخر. وهؤلاء الشباب يُنجزون لأهل يافا معاملاتهم اليومية.

واقترح جورج على المجموعة. التي كانت تكبر. أن يضمّهم ناد ثقافي اجتماعي. يجتمعون فيه ويتناقشون. فتأسس النادي الوطني. وصار مؤثراً في فترة قياسية.

وتعمّد جورج أن يرئس اللجنة الثقافية. دعا عباس محمود العقاد. من القاهرة. فجاء ليلقي محاضرة استقطبت الكثيرين. وتكرّرت الدعوات لكبار الكتاب العرب. وخصوصاً المصريين. وصار النجاح نجاحات.

وفاجأ جورج أصدقاؤه: سأصدر جريدة. وستحمل اسم "الوطن". علينا أن نوصل صوتنا للناس جميعاً. فكلّ الصحف منحاز إلى جانب. مع المجلسيين أو مع المعارضة. نريد "الوطن" أن تكون للوطن للجميع. للأغلبية الصامتة.

ولاقى الأمر قبولاً. ونُجحت " الوطن " بسرعة البرق.

وكان الانجليز راضين عن الفكرة.

لم يكونوا وراءها!

لكنّ هذا التجمع المثقّف أرحم لهم من تطرف المجلسيين. الذين لا يعرفون التحوار.

ورشح التجمع أحد شبابه لرئاسة البلدية. فوُفقت جريدة "الوطن" ناطقاً عنهم. ومُدافعاً عن آرائهم الاستقلالية. ونجح مرشّحهم بفارق كبير. على المنافس المجلسي.

وقفت المعارضة معهم!
ولم يعارضهم الإنجليز...
وانتقلت نشاطات النادي إلى " الوطن "، وصارت مكاتبها ملتقى
سياسي يافا.

وبدأ جورج يشعر أنه صانع للقيادات، والسياسات، ومُحافظ على
بلده يافا من الضياع.

أصبح ملك يافا!

وفيهما تعرّف على عبد الإله.

جاءه يحمل تكذيباً من غلوب باشا، خبر نشرته " الوطن ". كان
الخبر يقول: إن الجيش العربي جاهز للتدخل في فلسطين، إذا فاجأت
بريطانيا بانسحاب مفاجيء.

وظنّ جورج عبد الإله سائفاً، فشكره على إيصال الرد.

لكنه ظلّ واقفاً، وقال: متى ستنشرون التكذيب؟

ردّ جورج: عندما ننشره!

قال عبد الإله، بثقة: ولكنّ الباشا ينتظر منّي ردّاً!

تأمل جورج هذا الموقف أمامه. ليس فيه ما يوحي أكثر من كونه
سائفاً، يحمل رسالة، فأجابه باستخفاف: ومتى ستري الباشا؟

ردّ عبد الإله: فور وصولي... أنا المرافق الخاص للباشا؟

أعاد جورج تقدير الموقف، وغيّر لهجته: سننشر الردّ غداً!

وتكرّرت زيارات، من نفس النوع. عبد الإله يحمل ردّاً، أو تكذيباً خبر.

أو حتى مقالاً يحمل اسماً مُستعاراً جاء به، مرة، مُطالباً بالنشر.

رفض جورج النشر، فألح عبد الإله بأنّ الباشا سيدفع لـ " الوطن "

ثمن النشر، وكأنّه اعلان.

اعتذر جورج، ولم يطرده.

فقط اعتذر، فائلاً: المقال سيخلق لنا مشاكل كبيرة... سلّم على

الباشا، وبلغه اعتذاري!

... أين القدس من يافا!

نظر إلى ساعته، وتساءل: هل سيأتي في مواعده؟

كان عبد الإله، اتّصل به من عمّان ليلة أمس، مُتلهفاً للقائه. حدّد

له موعداً في المقهى، الساعة الحادية عشرة ظهراً، وندم... لم يُحدّد

الموعد في المكتب، خشي من أن يعرف له هذا الآتي من الماضي مكاناً.

واستغرقه تساؤل، طوال الليل: ماذا يريد هذا منّي؟ وخرج بإجابة أنّه

يريد مساعدة، فلم يلتق بأحد، منذ خروجه، إلّا وكان باحثاً عن

مساعدة مادية.

قال لنفسه: لو تأخّر خمس دقائق، سأترك!

وصدق حدس جورج، فعبد الإله كان يريد مساعدة، ولكنها من

نوع آخر... من نوع سيعيده إلى الواجهة، قبل الموعد بدقيقتين، كانت

سيارة كبيرة تتوقّف أمام المقهى، فتح السائق الباب الخلفي، لينزل

عبد الإله، أنيقاً كما لم يعهده، ويحمل طلة الوجهاء.

ماذا جرى للعبد يا عبد الإله؟

قال عبد الإله، بصوت عالٍ: ها قد وجدتك، أخيراً، أيّها الصحفي

العبقري!

وكان هذا مدخلاً مثالياً ليُرضي غرور جورج، فقد كاد ينسى أنّه

صحافي، بالغ عبد الإله في القُبل، وخذّنا بأمر عادية، لتأتي المفاجأة

على مسمع جورج كأنّها الصاعقة: لماذا لا تعيد إصدار " الوطن "، من

هنا، من القدس؟

وتابع، مُقدّماً عرضاً سخياً: سأتكفل أنا بكلّ المصروفات،

وسنتشارك بالنصف ما رأيك؟

ولم يُجب جورج، ليس لسبب سوى أنّه فوجيء، فأضاف عبد الإله

ولن أكون في الصورة، سأكون فقط شريكك، وأمام الناس ستكونو

أنت الكل في الكل!

وأُسعفتَه عفوِيته. بسؤال: لكن هل سنحصل على الترخيص...
فالدنيا مقلوبة، والأحزاب حُلّت. والجيش في الشوارع.

وتطلّع إلى مُصفحة للجيش تقف في مكان قريب. بنظرة ذات مغزى!

لكنّ الفكرة دارت في رأسه. فأضاف: وعلى أية حال.. أنت فاجأتني.
ولسنا في المكان المناسب لمثل هذا الموضوع.

وعزمه على الغداء. في مطعم الفندق الوطني. وفي الطريق زادت تساؤلاته صخباً. كان ما زال يعيش أمل الرجوع إلى يافا. لهذا لم يفكر بالأمر من أساسه. طوال هذه السنوات السبع. فـ"الوطن" ليافا. ولن تصدر إلا هناك. ولعلّت في رأسه فكرة: لماذا لا يُصدر مع عبد الاله صحيفة. ولكن ليست "الوطن". صحيفة خمل. أي اسم يتسلّى بها. إلى حين العودة إلى يافا.. إلى "الوطن".

ولم يكن عند عبد الاله مانع.
كان يريد صحيفة. فحسب. فترخيصها في جيبه.

وعوامل جأحها في ذهن جورج.
كانت المعادلة متكاملة. لكنّه اشترط: ما دُمّت تُصرّ على اسم آخر للصحيفة غير "الوطن". وأنا موافق. فعليك أن توافق معي على إصدارها من عمّان!

وافق جورج. واقترح اسم "الجريدة". فوافق عبد الاله!
ولم يكن جورج غريباً عن عمّان.
ولم تكن غريبة عنه أيضاً. فإليها خرج نصف أهل يافا. توزّع نصف على المدن اللبنانية والمصرية والسورية والفلسطينية. والنصف الآخر استقرّ في عمّان.

فعمّان نصف يافا!
ولم يكن جورج بينهم. لا لسبب سوى أنّه أراد أن يكون قريباً من مهنته. من الصحافة. ومهنته كانت في القدس. فاستقرّ فيها. لعلّه

يواصل رحلته. لكنّ لكلّ زمن في الصحافة رجاله. ولم يكن من رجال صحافة القدس.

بدأ بالكتابة في الصحف. فلم يلفت نظر أحد. وتوقّف. مُعتبراً أنّ زمنه سيأتي. وإنّظر. إنّيظر طويلاً طويلاً. وصارت حياته مملّة. يبدأ يومه في مشواره الرتيب. من بيته في وادي الجوز. ثمّ إلى شارع المتحف. بعدها يسير مُحاذياً للصور القديم. يشتري الصحف من بسطة يعرفها. ويبدأ قراءتها في المقهى. يقرأ كلّ حرف فيها. ينتقدها في سرّه... فأين هذه من "الوطن". يعود بنفس المشوار الرتيب إلى البيت. يُغيّر فقط في المسار. فيبدأ من شارع صلاح الدين. ينتظر ابنه قليلاً. عند سينما الحمراء. فيأتي الصبي من الجهة المُقابلة. من مدرسة المطران. ليتوجّها مُنهين الشارع. ثمّ إلى شارع رام الله. ثمّ يميناً إلى شارع جانبي. في مسيرة ربع ساعة ليصلا إلى المنزل. ومساؤه كان يحمل رثابة أكثر. تغييره الوحيد كان يأتي في ليلتي الجمعة والأحد. يمرّ عليه شقيق زوجته بسيارته. ليقتضبا السهرة في رام الله.

كأسا عرق. وحديث ذكريات.
وصبر على القدس. كثيراً. فقط لأجل ابنه. فقد كان سعيداً فيها. ولأجل زوجته التي وجدت نفسها فيها قريبة من أهلها في بيت جالا. حتّى الهاتف. الذي وضعه في بيته. لم يسمع جرسه سوى مرّات قليلة. كان آخرها ذلك الذي حمل بعده صوت عبد الاله. وبينك يا عبقرى!

وصبر. أيضاً. بسبب هذا المكتب الذي إفتنحه مؤخراً. فأضفى على حياته طعم المغامرة. بعد ركود سنوات ما بعد يافا.
وللمكتب قصّة...

كان أنهى قراءة الصحف. كعادته. واقترّب موعد ذهابه لإصطحاب ابنه. حين جلست أجنبيّتان. إلى طاولة مجاورة. وبدأنا حديثاً. وجد نفسه منغمساً في متابعته.

قالت الكبيرة. التي بدت الأم: يا إلهي ما أجمل القدس. لكنّها خسارة في يد هؤلاء الهمجيين!
ردّت الصبيّة. مع إبتسامة: يا ماما... المسألة عادية، ويمكن أن تحصل لك حتى في نيويورك. في بروكلين مثلاً!
وضحكت!
ضحكت الأم. ثمّ قالت: بهذه الطريقة؟ مستحيل. الحيوان مدّ يده فكاد أن يلامس....

وسكنت. بعد أن أشارت إلى أسفل بطنها!
قالت البنت: لا تنسي أن البلاد هنا حارة. ولا تنسي أن هؤلاء يتشابهون مع أجدادنا. المسيح جاء من هنا.
ردّت الأم: هنا نعم. ولكن هؤلاء... مستحيل. لم يدعونا أن نكمل جولتنا. أكاد أحلف أن هذا الشاب هو حفيد الذي صلب المسيح!
عادت البنت. فقالت. بعد ضحكة خافتة: يا ماما. المسألة لا تستأهل. إنهم يقدّسون جسد المرأة. كلّ هذا موجود في الكتاب المقدّس.
ومرّت بعينها على جسد أمّها. من رأسها حتى القدم. وأضافت:
الشباب أعجب بك.

ولم تنه ضحكة بصوت أعلى. بدأتها لكنّها قطعتها حين جاء صبيّ المقهى. يسأل الأجنبيّتين عن طلبهما.
صار الحديث بالإشارة.

إستنجد الصبي به: أستاذ جورج لا أفهم ماذا تريدان؟
كانتا تطلبان مشروباً أصفر. من الأعشاب. وأشرتا إلى كأس على طاولة بعيدة. لم يفهم الصبي. وظلّ يكرّر: تي.. كوفي!
قال له جورج: تريدان بابو؟

وتطلّع نحوهما. وابتسم بإحترام.
قالت الأم: أه... أنت تتحدّث الإنجليزية. أرجو أن لا تكون إستمعت إلى حديثنا من بدايته!

ردّ جورج. بإبتسامة أكثر جرأة: لم أستطع منع نفسي. إستمعت إليه كلّهُ!
وضعت يدها على وجهها. بحياء مُصطنع. وقالت: يا إلهي!
قال: تأكّدي أننا لسنا كلّنا مثل ذلك الشاب.
عادت وكرّرت حركتها. مع ضحكة شهية: وأنت من هنا أيضاً... يا إلهي!
ودعاهما للجلوس معه. فلبّتا.

11

القدس نقيض يافا. لكنّ عمان نصف يافا!
لماذا لم يفكر في عمان قبل الآن؟
سأل نفسه وهو يدخلها ساكناً. لا زائراً. ففيها كلّ أصدقائه من يافا. وفيها رجال الصفّ الثاني الذين كانوا يحسبون له الحسابات.
فأصبحوا في عمان وزراء ومدراء وسفراء وزعماء معارضة.
ولم يجد إجابة.
وقرّر أن يعوّض السنوات الضائعة في القدس. فهنا سيعود مهمّاً.
سيعود صاحب صحيفة. إستقرّ في بيت في جبل عمان. إشتراه لكونه مناسباً لإبنه. فهو قريب من مدرسة المطار. ولزوجته فهو واسع وجديد وتُحيط به حديقة جميلة. وله فهو قريب من موقع "الجريدة".

كان عبد الاله إستأجر طابقاً كاملاً في عمارة الحلبي. عند تقاطع شارعي وادي السير والبريد. في وسط المدينة.
كان جورج يبدأ حياة جديدة. فإنصاع لنصيحة عبد الاله واشترى سيارة كبيرة. ووظّف سائقاً. فسوف تساعد السيارة في رحلات

القدس، التي ستشهد إستعادة الروح، وترويح الجسد.
كان يهيبء نفسه للدخول إلى حياة نصف يافا، فقد بدأت يافا
نفسها بتباعد. قد لا تعود له. ستعود لابنه!
وبدأ في الإتصال بفريق يستطيع تنفيذ أفكاره. لإجاز صحيفة
منافسة. وإلتقى الكثيرين. فإمتحنهم. وغربلهم. ليختار القليلين.
كان يتابع الصحف فيقرأ أسماء من يعجبه أسلوبهم. فيتصل بهم.
منهم من كان يعمل في صحف المعارضة. لم يكن يهتم سوى أنه
يريد إصدار صحيفة كـ "الوطن" تنصّر القائمة في وقت قصير.
وفوجيء بإتصال من عبد الاله: جهّز نفسك لزيارة مهمة... سأمرّ
عليك بعد قليل.

وبعد ساعة وجد نفسه أمام غلوب باشا، في حوار غريب: كيف
ستكون سياسة "الجريدة" ... هل ناقشتهم الموضوع؟
وجه سؤاله لعبد الاله!
أجاب: الأستاذ جورج معلّم قديم. ولديه الإجابة!
وجه الباشا عينيه إلى جورج. منتظراً إجابة.
قال جورج. وقد عرف الغاية: أبداً. لن تكون لنا سياسة مُعَيَّنة.
سنكون للجميع. فقط سنهاجم إسرائيل.
قال الباشا: هذا مفهوم. ولكن هناك تطوّرات سياسية تستدعي
منكم مواقف. وهناك أطراف سياسية مختلفة. وستجدون
أنفسكم مضطّرين لمواقف. حلف بغداد مثلاً؟
ردّ جورج. الخبير في التوازنات: إذا كانت السياسة الرسمية معه.
فسنكون معه؟

إرتاح الباشا للإجابة. وزاد: وهناك مسألة العاملين معكم. أنت لا
تعرف صحافيي عمان. وبعضهم قد لا يناسب سياستكم. أفضل أن
تبعث لي بالأسماء مع عبد الاله.
ولم يعارض جورج. فكانت موافقة ضمنية. وإنتهى اللقاء عند
هذا الحد. لكنه لم يرسل له اسماً واحداً.

وصدرت "الجريدة" بطريقة جورج. لا كما يريد الباشا. وجنّ
جنون عبد الاله. لكن جورج كان يحمل دوماً مبرراته المُقنعة.
قال له: علينا أن نكسب ثقة الناس أولاً. ثم نفعل ما نريد!
وسكت عبد الاله.

وواصل جورج.
نشر يوماً حواراً مع سليمان النابلسي. رئيس الحكومة المُقال. كان
ساخناً لدرجة أن الباشا إستدعاه شخصياً. دون الإستعانة بعبد
الاله.

قال له غاضباً: أنتم صحيفتي. ولو تكرّرت المسألة فسأدمركم!
إستوعب جورج الباشا: لن تتكرّر يا باشا. إذا هاجمنا النابلسي بعد
الآن. فلن يقول أحد أننا نهاجمه لسبب شخصي. وهكذا نكسب
المصداقية!

عاد غلوب لهدوئه. قائلاً: لقد دفعت لكم كلّ قرش في "الجريدة"
وإذا تكرّرت المسألة سترون غضبي الحقيقي!
وكانت تلك أوّل مرّة يعرف فيها جورج سرّ "الجريدة". فقال: لن
تتكرّر يا باشا ... صدّقني!

ولم يصدّقه الباشا. كانت حماية غلوب لـ "الجريدة" إستثنائها
من الرقابة. ومع قانون الطوارئ. فلا بد أن تمرّ المواد على رقيب. بجزءها
لتأخذ طريقها للنشر...

وهكذا كان جورج. في اليوم التالي. وجهاً لوجه. أمام عبد الله
النقيب.

تقدّم منه بأدب التلميذ. وقدم له كتاباً رسمياً. يفيد بأنّه الموظّف
المُكلّف من دائرة المطبوعات بإجازة المواد. لم يبدُ على جورج أيّ إنفعال.
رحّب به. تعرّف عليه أكثر. عامله باحترام مُبالغ به.
أفرد له مكتباً خاصاً.

كان جورج يتعامل بخبرته الطويلة مع الرقابة. يكسب ثقة
الرقيب. أولاً. ثم يحوّل لصديق. وغالباً ما يستثمر هذه الصداقة بعد

عاد حمدان إلى الوقوف. لتركه تلك القدم الفولاذية. بين رجله. وليغيب عن وعيه. فيعود إليه. بعد ساعات. وقد تحول الوعي إلى شكل آخر.

كانت التنظيمات الفلسطينية وُضعت في الزاوية. حُشرت من كل الجهات. والنمر إذا حُشر يُخرمش بدموية. ومن هذه حركة فتح التي وجدت نفسها. ذلك العام. تُغير في تكتيك عملها. فتضع الأردن ضمن أولوياتها.

فأيلول الأسود إسم سرى بوسائل الإعلام الغربية كالنار في الهشيم. وأبو إياد. رجل صار يُرعب أجهزة المخابرات العربية. والأوروبية أيضاً. لأنه بات معروفاً على أساس أنه وراء هذا التنظيم السري. وحمدان المقعود. على هذا الأساس. صار مرصوداً من المخابرات. فعلاقته مع فتح كانت شبه علنية. وساذجة أحياناً. فهو لا يُكرها مع زملائه في الجامعة الأردنية. وإلى ذلك. فقد صارت سفرائه إلى الشام متكررة. بدعوى مرض أخته في مخيم اليرموك. وهكذا فقد أصبح هدفاً مُحتملاً لأن يكون عضواً في هذا التنظيم السري الذي ملأ الدنيا وشغل الناس.

لكن حمدان. في الواقع. كان بعيداً عن أي أيلول. أسود أو أبيض. وكانت سفرائه المتكررة مجرد نقل الرسائل. من التنظيم في الأردن. إلى القادة في بيروت. رسائل تتعلق بشؤون إدارية. ومطالبات مالية بحته تتعلق بمخصصات الأعضاء. ومنهم هو نفسه.

وكان مُنظم كواد.

رجل دعاية!

ففي رام الله انضم إلى فتح. كغيره من طلاب المدرسة الهاشمية. وصار مُتطرفاً بسرعة إنضمامه. كان بارعاً بانتقاء جمل ثورية مُقفاة. في المظاهرات اليومية. فيرددها وراءه زملاؤه. ليلفت أنظار مسؤوليه. لكن أحداً لم يلتفت إليه. كان لهم مجرد ناظم

للسعارات العفوية. وفي يوم غاب حمدان عن المظاهرة. بل عن المدرسة كلها. ليجد من يزوره مطمئناً. في بيته بمخيم الأمعري. فقد كانت المظاهرة. بدونه. بلا طعم. كانت مسيرة هادئة بلا هتافات رنانة. وأحسن بأهميته تكبر يوماً بعد يوم. بات يحضر اجتماعات تنظيمية. من ذلك النوع الذي يتلى حوارات سياسية. وكان السؤال المتكرر في كل الاجتماعات: هل نقبل دولة فلسطينية بعيداً عن الأردن. كحل مرحلي قبل تحرير فلسطين كلها؟

وخطف الأضواء. في الاجتماعات. بسرعة. كان ينبثق الحل المُتطرف: نحن لسنا مُحثلين. الدول العربية هي المُحتلة. على الفلسطينيين تحرير الدول العربية. لنجد أن إسرائيل نفسها ستبغض مثل حبات سبحة إنقطع رابطها.

كان كلامه أسراً لزملائه. صار قائداً لهم. ووصل إسمه إلى بيروت. لم تصل تفصيلات الحوارات التي كانت مجرد تمرينات ذهنية لشباب يطرقون باب السياسة. بل وصل إسمه هو. وفي يوم إصطحبه مسؤوله في جولة في شوارع رام الله. خذنا في كل شبر. وتطرقا إلى مستقبله. كان في منتصف عامه الدراسي الأخير. وقريباً سينتقل إلى الجامعة. إلى بيروت. لم ير بيروت. في حياته. لكنه سيتابع دراسته هناك. إنه يحب بيروت. فمطولاً ما استمتع عنها. كانت بيروت. في ذهنه. مُستقبله الآتي رغماً عن الظروف المالية الصعبة. هناك سيدرس. وهناك سيحب. وإلى هذا كله سيكون قريباً من السياسة التي ستجعله جماً.

لكن مسؤوله فاجأه. توقف فجأة. أمام مدخل الأمعري. وقال مُفتعلاً نبرة خطابية: حمدان ... أنت. الآن. عضو رسمي في فتح. أنت جزء من جماعة. فلا تُفكر بنفسك. سنفكر معاً. ولا بد أنك ستذهب إلى بيروت. لكن عليك أن تفعل الآن ما تريده الحركة منك.

أدخل يده إلى جيبه. فأخرج عشرة دنانير. أعطاها حمدان. وقال: وافقت بيروت على تفرغك للعمل الوطني. وسيكون مُخصصك

الشهري عشرة دنانير ... مبروك. فأنت الآن متا. لم تثره النبرة الخطابية. ولا أثرت به مسألة إنضمامه للحركة. فهذا حقه. بل هو أبسط حقوقه كفلسطيني شاب أثبت مواهب قيادية. وواصل تساؤلاته. في سره: لماذا يتمتن على هذا الرجل. فأنا أهم منه. لكنه قال له: شكراً! وأضاف مُفتعلاً نبرة أكثر خطابية من تلك التي قدمها مسؤوله: وهي ثورة حتى النصر! ودخل الشارع الصغير المؤدي إلى الخيم. مُحتسباً تلك الورقة الزرقاء. التي ضمها في يمينه. كان يكره الخيم. وينتظر ذلك اليوم الذي سيفاديه بلا عودة. هو أصغر ثلاثة إخوة وأخت. لأب غادر الدنيا مُحتسراً على اللد التي كان مطار القدس. القريب منه. يذكره بها ليل نهار. كل طائرة تهبط تعيده إليها. وكل أخرى تُلحق توحده معها. ولم تطل حاله. مات بنقطة في الدماغ. وأم تعمل في مصنع قريب لخلاوة الطحينية. بيومية ثلاثين قرشاً. وأسبوعية علبه من الخلاوة. أخواه غادرا رام الله مبكراً. قبل أن يأتي هذا الاحتلال البغيض. الكبير في السعودية. لم يعد يعرف عنه شيئاً. والمتوسط في عمان. يعمل موظفاً في البنك العربي. وأخت ذهبت للدراسة في دمشق فتزوجت فلسطينياً من مخيم اليرموك.

يكره الخيم. ورام الله. والخلاوة الطحينية. لكنه إشتَم رائحة الخلاص من هذه الورقة التي يضمها بيد محبة. لم يعد مضطراً أن يعمل في يافا. الصيف المقبل. في بيارات البرتقال. يُقلم الشجر. ويُنظف الأرض من حوله. وهذا اليهودي الوقح لا يدعه يستقر في مكان. فمن شجرة إلى أخرى. ومن شتية إلى أكبر. لم يعد مرغماً على الإستيقاظ في الثالثة صباحاً. ليتوجه إلى القدس. ومنها بالباص إلى يافا. في رحلة صيف يومية مُدلة. في سبيل القليل القليل من الليرات.

وعاد ليضغط على يده اليمنى. بحنان من يضغط على عصفورا وزادت ثورته هيجاناً. في الأيام التالية. وتضاعف تطرفه. وصار

يرسم طريق المظاهرة. ويكتب شعاراتها قبل ليلة. صار زعيماً صغيراً يلتفت حوله شباب.

وخرج بالثانوية العامة بعلامات عالية. تؤهله إختيار مكان الدراسة... سيذهب إلى بيروت. لا بد من بيروت.

لكن القرار التنظيمي كان أن يدرس في عمان. بالجامعة الأردنية. فالحركة في عمان بحاجة إليه. كانت الضربة التي تلقتها فتح في أيلول قاسية. فالمقاتلون صاروا في لبنان. وحملات الاعتقالات شملت أكثر الكوادر. وإذا كان العفو الذي صدر هذا الشهر. آيار ١٩٧٣. شمل الأغلبية منهم. فإنه كان عفواً مشروطاً: أن يتعهد الكوادر عن العمل السياسي. أن توقع على تعهد صريح بهذه المسألة. وفوق هذا فمن يضمن هؤلاء الخارجين من الاعتقال؟ من يضمن أن كثيراً منهم تحول إلى تنظيم آخر؟ بل من يضمن أن منهم من سيتعامل مع المخابرات؟!

كانت الحركة بحاجة إلى شباب كحمدان. في الأردن. يُعيدون بناء ما هُدم. ويحافظون على إسم فلسطين. ويعيدون الثقة إلى الناس الخارجين من حرب أهلية.

لا بد أن يذهب إلى عمان ليتابع دراسته هناك. وقبلها لا بد أن يذهب إلى بيروت. كان هذا أمراً تنظيمياً أبلغه إياه مسؤوله. وأضاف: وفي بيروت ستأتيك أوامر جديدة!

أدخل يده إلى جيبه. وأخرج رزمة من الأوراق المالية الزرقاء. سلمها لحمدان. منهياً كلامه: هذه ثلاثمئة دينار. ستكفيك للسفر إلى عمان لإجازة معاملة جواز السفر. وتسجيل إسمك في الجامعة. ومن ثم السفر إلى بيروت.

بيروت؟

كان للكلمة وقع التخفيف من المفاجأة. سيذهب إلى بيروت ولعله يستطيع هناك أن يُغير القرار بالنسبة لعمان. وثلاثمئة دينار ستخفف عنه أكثر. هي أكثر حتى من أن تستغرق مساح

مصرفوفاته المتوقعة. هي أكبر من مساحة حلمه.
وبدأت أعماقه تقبل فكرة عمّان ...

عمّان باب الحظ.
سيدخل إلى عالم الحظ. من باب عمّان!

١٣

لكن عمّان إستقبلته بكأبة واضحة. وصلها قبيل المغرب. أنزلته
السيارة المقبلة من الجسر عند محطة سفريات العبدلي. بصعوبة
وجد سيارة تكسي. أقلّته إلى جبل التاج. مروراً بوسط المدينة. هذا
الذي رآه يليق بمدينة كرام الله. لا بعاصمة كعمّان. أين عمّان من تل
أبيب. بل أين عمّان من القدس الغربية. العواصم تسهر إلى الفجر.
وها هو يشاهد المتاجر تُغلق عند الغروب.

ولم يحبّ عمّان من أول نظرة...

ولم يحبّ سكّانها. أيضاً.

فأثناء بحثهم عن بيت أخيه. أوقفتهم غير دورية شرطة تسأل عن
الهويات. وبالح سائق التاكسي بإحتساب أنعابه. ولما إعترض بالغ في
شتمه. وكان إستقبال أخيه له فاتراً لا يليق بالسنوات الطويلة التي
أبعدتهما عن بعضهما بعضاً.

ولم يطق البقاء فيها أكثر من اليوم التالي. باكراً ذهب لدائرة
الجوازات. أصدر جواز سفره. بعد عناء إنتظار دور طويل طويل. دام حتى
قبيل الواحدة بعد الظهر. وفوراً توجه إلى العبدلي. حيث وزارة
التربية. ليتقدّم بطلب للدراسة في الجامعة الأردنية!

في مطعم القدس. وسط المدينة. تغدّى. وفيه عدّة ما يحمل من
نقود ليجد أنّها مئتان وأربعون ديناراً. سار في الشارعين الرئيسيين
الذين يكوّنان ذروة نشاط عمّان. بدأ بشوارع بسمان. فأنهائه بدقائق

معدودة.. داران للسينما بضعة محلات تباع الأخذية. عند الجامع
الحسيني دار يساراً لبدأ بشوارع السلط. دقائق قليلة مرّت تأمل فيها
واجهات محلات النوفوتيه. ليجد نفسه عند مطعم القدس. الذي
غادره لتوّه. على نفس رصيف المطعم. المُقابل للجهة التي أنهاها من
فوره سار قليلاً. ولتأخذه واجهات محلات بيع الذهب إلى زقاق جانبي.
كان يتأمّل خائماً ذهبياً لامعاً حين أناه صوت من بعيد: بيروت .. راكب
واحد... بيروت !

توجّه إلى مصدر الصوت. عند نهايات شارع الشابسوغ. ليجد
سيارة كُتب على بابها: بيروت دمشق عمّان. كان السائق الواقف إلى
جانب سيارته ينادي: راكب واحد .. بيروت.

لمعت الفكرة في رأسه: لماذا لا يسافر الآن.. لماذا الإنتظار؟ سأل
السائق: أنا مسافر إلى بيروت. هل تنتظرونني ربع ساعة. سأحضر
حاجياتي؟

ردّ السائق: من أين؟ ولما عرف إقترح أن يذهبوا بنفس السيارة.
وهكذا حمل أغراضه مُغادراً إلى بيروت.

وما أبعد اليوم عن البارحة!

وإذا كان وصل إلى عمّان عند الغروب. فكانت المحلات تُغلق أبوابها.
فها هو يصل بيروت. عند العشاء. والمحلات تفتح أبوابها. وهذا ما يليق
بعاصمة. هذا ما يليق ببيروت. نسي تعب اليومين كلّهُ. كلّ مُنغصات
السفر. الجسر الذي يمثّل إهانة شخصية لكلّ من مرّ فوقه. والإنتظار
الذي يُقدّم عنوان المذلة. والحدود الأردنية السورية التي تكرر السؤال
على جانبها الجنوبي: لماذا تُسافر إلى الشام؟ وعند جانبها الشمالي:
ماذا ستفعل في الشام؟ والشبيء نفسه عند الحدود السورية
اللبنانية. نسي هذا كلّهُ فور إلقائه حقيبته الصغيرة. فوق السرير
المرتّب. في هذا الفندق الصغير. في الشارع المنفرّع من شارع الحمراء.
هذا البيت الصغير المُسمّى: "جبروسالم هاوس". لم يأت إلى هنا
صدفة. كان مسؤوله في الحركة أعطاه الإسم. فلم يعان شيئاً في

البحث عنه. عند الإستقبال واجهته السيّدة الأنيقة. الجالسة وراء الحاجر: أسفة ليس لدينا غرف. لكنّه واجهها بإسم مسؤوله. وقال لها: لقد أرسلني إلى هنا. أنا قادم من رام الله. تغبّر وجه السيّدة. وتغيّرت لهجتها: أهلاً .. أهلاً .. يا مرحباً بأهل رام الله. كيف أخبارها. صارت لهجتها فلسطينية شمالية. كأنّها من الناصرة أو من حيفا. ظنّها. في البداية لبنانية. لكنّها هي لهجتها الأصل تفصحها.

أخذت مفتاحاً من لوحة معلّقة بالجدار. وسبقته صاعدة الدرج. توجّهت ميمناً إلى ممر بطول أربع غرف. فتحت آخر غرفة على اليمين. وأعاد ترحيبها الحار: يا مرحب بأهل البلاد. إن شاء الله تعجبك الغرفة؟

كان مشدوهاً بهذه الحفاوة البالغة. دخل الغرفة فإشتتم رائحة النظافة. إشتتم رائحة الراحة التي سيشعر بها في الأيام المقبلة... لينتها تصبح سنوات ...

لينتها تصبح عمراً كاملاً.

شكّر السيدة. واعتذر عن تناول عشاء دعتّه إليه في المطعم. في الدور الأرضي. بدعوى إرتباطه بموعد ...

ولم يكن يكذب. كان على موعد مع بيروت.

ها هو. أخيراً. في بيروت.

في سيّدة مدّن الشرق. في عاصمة الحب. والثورة. والفكر. والجمال. والليل.

وعلى بعد خطوات قليلة. قفزها قفزاً. كان ينتظره شارع الحمرا. خلاصة بيروت. عند الناصية. عند مدخل الشارع. وقف مأخوذاً مشدوهاً. في يوم غير بعيد. كان يقف في شارع يافا. أهم شوارع القدس الغربية. اليهودية. ويتمنّى أن يأتي شارع الحمرا مُشابهاً له. صحيح أن تشابهاً ما موجود بين الإثنين. لكنك هنا تعيش شيئاً آخر هنا. تعيش عالماً عربياً. فهي هي اللوحات تحمل الشكل العربي. وها

هي أصوات الناس. السائرين بإحتفال يومي. تأتي بالعربية. بهذه اللهجة اللبنانية اللذيذة.

كانت تأخذ أصوات السيّارات المختلطة بالأغاني المنبعثة من المقاهي. مرّة. وروائح شتيّ اللحوم المختلطة بتلك الأنثى من مطاعم الهامبرغر. مرّة أخرى. وأضواء لوحات الملاهي البهرة. المختلطة بتلك الهادئة القادمة من واجهات المطاعم الراقية ...

كان ذهنه يختلط في مُعادلة لذيذة صعبة. معادلة شارع الحمرا. إحتسى الكابوتشينو في "الهورس شو" والقهوة في "سنراند". إزدرد ساندويتش شاورما عند زاوية مطعم. والتهمم آخر من النقانق عند زاوية أخرى. تنقل بين كلّ دور السينما. كانت سينما "سارولا" تعرض فيلماً يبدو إباحياً من الصور التي عُرضت في الواجهة. إستعرضها جميعاً وهو يأكل البشار.

أنهى الشارع من جهته الغربية. مرّة ثانية. فإنتقل إلى الجانب الآخر.

مشي قليلاً. على جانبه الأيسر كانت صورة كبيرة لفيروز. في شارع فرعي. توجّه نحوها. مسرح البيكاديللي. كانت فيروز تعرض هناك مسرحية "لولو". يحبّ فيروز كثيراً. فكم إستمتع إليها في بيته بالأمعري. كم غنى ورفاقه لها في رام الله. كم يتمنّى أن يراها. أن يستمتع لها شخصياً وهي تُغني. دخل. اللوحة تحت صورة كبيرة لفيروز تقول: العرض يبدأ في العاشرة. نظر إلى ساعته: العاشرة والثلاث. لوحة أخرى. عند شباك تقول: التذاكر مُباعة. قال لنفسه سأحضرها غداً.

عاد إلى الشارع. إلى الحمرا. واصل مسيرته بنفس الهدوء. يتأمّل كلّ شيء. ويعيش الفارق بين حياة عاشها. وأخرى يتمنّى لو تأتي. عند نهاية الشارع صورة كبيرة لغوّار وحسني البورزان. النجمين السوريين اللذين يمنع أيّ مسلسل لهما التجوّل في رام الله. دون فرار إسرائيلي. "ضيعة تشرين" كانت المسرحية التي يعرضها دريد لحام

ونهاد قلعي.

قال لنفسه: سأحضر هذه أيضاً!

١٤

ولم يكن يحلم حين أيقظه رنين مُتواصل للهاتف. كان يُفكر في شارع الحمراء. جاءه الصوت مُعانباً: ولو يا حمدان. تأتي إلى بيروت ولا تتصل معنا؟

أخذته المفاجأة. فقال بسداجة واضحة: عفواً أنت طالب مين؟ ردّ الصوت ضاحكاً: أنا أبو الغانم. يا حمدان. أنا منتظر كحت في المطعم. سنفطر سوياً.

تمالك حمدان نفسه. وقال: عفواً أخ أبو الغانم. ربع ساعة وأكون معك.

كان مسؤوله حدّته عن أبي الغانم. رئيس لجنة رام الله. وبالغ في إستعراض بطولاته. في معركة الكرامة. وفي أحراش جرش. حتّى أنّه رسم في مخيلته له صورة. تفاجأ بعكسها.

كان أبو الغانم شاباً. في بداية الثلاثينات. نحيلاً إلى درجة مُزعجة. لكنّ صوته لا يُعبّر عن جسده: عميق. وأحياناً أجش.

وأفطرا سوياً. في فندق المطعم. لم يتناول الحديث أكثر من التعارف الشخصي. ثم خرجا ليفاجأ حمدان بأبي الغانم يقول له: إسمك هنا أبو العز. نسبة للقسام.

وليفاجأ أكثر بتوجّههم إلى سيارة وقفت أمام المبنى. سائقها يرتدي الملابس العسكرية المُبرّقة. وإلى جانبه شاب فتّح الباب فور رؤيتهما. وتأنّب ليتفّح الباب الخلفي لأبي الغانم. ثمّ له. فأحسن بارتباك كبير. مختلطاً بفخر أكبر!

زاد فخره. أكثر حين عرّفه أبو الغانم. الأخ أبو العز من أبطالنا في الضفة. وعرف بالشاب الجالس أماماً: الأخ فادي مُرافقك في بيروت! توجّهت السيارة نحو منطقة الجامعة العربيّة. بقي في ذهنه من الطريق. منظر الروشة الجميلة. وتمثال كبير لعبد الناصر. ثم توقفت أمام مبنى من طوابق أربعة.

عدّل أبو العز جسده. وهو يتابع الإهتمامات التي قوبل بها نزوله. وأبو الغانم. من السيّارة. ودخولهما إلى المبنى. فالمصعد. ثم غرفة واسعة. لم يجلس أبو الغانم وراء الطاولة. جلس

في طرف الغرفة. وأصلّ تأهيله بضيفه: أهلاً بالبطل. نفضل هنا. أشار إلى واحد من المقاعد التي تُشكّل نصف دائرة. جلس البطل. فجلس إلى جانبه.

بدأ أبو الغانم حديثاً. أراد أن يبدو تاريخياً في ذهن حمدان. أن يستقرّ في عقله. وكان. أيضاً. يريد أن يخبر هذا الذي أكّدت كلّ التقارير الواردة من رام الله أنّه مناضل صلب. قال: أبو العز. أعرف أنّك ما زلت مُتعباً من رحلتك إلى عمّان. وإلى بيروت. في يومين. لكن علينا أن نبدأ العمل. فالظروف صعبة... أنت تعرف أكثر مني.

كان حمدان. بدوره. يتحسّس الجو. فقد تكون هذه الطقوس أثارت في نفسه حبّ القيادة. فهو لها إن أتت. لكنّها ما زالت بعيدة عنه. فهو يعرف ذلك! وقد إستهواه إسم أبي العز. وتردّد وصف البطل. لكنّه ليس بطلاً. على الأقل ليس إلى هذه الدرجة. لدرجة عز الدين القسام!

ردّ. بعد أن أعمل عقله قليلاً: يا أخ أبا الغانم خجلتني! وأبو الحكم لم يكن في وارد تخجيله. كان بضخم فيه. بنفخه. ليكون رجله في الجامعة الأردنيّة. كان يريده فائداً هناك. يُفرّخ له الكوادر. الكوادر المضمونين. ويبقي على إسم الحركة موجوداً. عاد أبو الغانم للقول: ولو يا أبا العز. أنت من أفضل شباننا. ولا يخفى عنك أنّ وضعنا في رام الله ممتاز. لكننا في عمّان؟

صمت. وألقى بعينه ثقيلتين. على عيني حمدان. وأضاف: وضعنا في الأردن صعب. علينا أن نبدأ من الصفر. وقد اخترنا أن نبدأ هناك في تكوين وجودنا من جديد. مهمتك لن تكون صعبة. فالشباب ما زالوا معنا. لكن التنظيم ينقصهم. وسأكون معك من هنا. من بيروت. وسنلتقي كثيراً... أنا الآن مسؤول تنظيم الجامعة الأردنية. وإنفقاً على رؤوس أقلام أسلوب عمل المستقبل. على أن يناقشها في الأيام التالية. وسلمه ثلاثة آلاف ليرة لبنانية لمصاريفه في بيروت. وإفترقا.

ديما الصليبي

١٥

دخلت ديما إلى "الجريدة" فجأة. فحصلت كل ما غرسه الأخريات. وزرعت في نفوس الجميع حسرات. بقيت معهم حتى تزوجت. حينها صارت الحسرات غصّات.

كانت "الجريدة" تعيش جواً متوتراً. ليس فقط لأن الطائرات الإسرائيلية تواصل. منذ يومين. دك بيروت. ولا لأن دبابات شارون وصلت إلى ضواحيها فحسب. ولكن لأن عبد الله النجيب وجد في الحدث. الذي حرك الناس. فرصة تعيد صحيفته إلى مجدها. صار يتابع محرريه في بيوتهم. عاد إلى أيام شبابه. وما بين كل إجتماعين إجتماع. كان يختار العناوين بنفسه. ويقرأ الافتتاحية أكثر من مرة. وعاد إلى كتابه زاويته. على الصفحة الأخيرة: "بدون مجاملة". صار عبد الله شاباً. مرة أخرى. بقدرة قادر.

كانت "الجريدة" تعاني إنخفاض مبيعات حاداً. فالسنتان الماضيتان كانتا الأسوأ. "لم يعد هناك من يقرأ"... كان يقول دائماً في ستره. وفي

مجالسه أيضاً. فمئذ وقع السادات على المعاهدة. لم يعد هناك من يقرأ. وفي السنتين لم يشهد زخماً حقيقياً. كأيام زمان. سوى ذلك الأسبوع الذي تلا إغتيال السادات. بعد ذلك عادت الرتبة. وكثرت المرحّعات... لم يعد هناك من يقرأ!

ومع أول ضربة جوية لبيروت. أول دبابه دخلت جنوب لبنان. تغيرت الصورة. في ذلك اليوم. وافق عبد الله. على مضمّن. على عنوان كتبه ناصر: "المؤامرة". كان عنواناً غير مألوف. قال لناصر مستغنياً عنوان عريض من كلمة واحدة؟ لكنه غلب على أمره حين لاحظ قبول المحررين. ووافق. وفي السابعة صباحاً. كان الهاتف يوقفه من نوم عميق. جاءه صوت مدير التوزيع: الكمية نفدت... هل نطبع طبعة ثانية؟

ولم يكن يحلم. "طبعة ثانية". إنه لا يذكر آخر مرة إستمع فيها إلى هاتين الكلمتين مجتمعتين. ولعت الفكرة برأسه. لعت الفرصة التي ستعيد "الجريدة" إلى الناس. عاد فجأة. صحافياً. عاد شاباً!

رد بسرعة: إنظروني. أنا قادم حالاً... تذكر. وهو يحلق ذقنه. ناصر. ذهب الى الهاتف والصايون بلا وجهه. طلب رقمه. صرخ: صحّوه. أنا أنتظره في "الجريدة". إرتدى بدلته وهو يفكر. وصل الجريدة يستغرقه التفكير في "الطبعة الثانية".

والصحافيون لا يعترفون بأول اليوم. فهو لبعضهم آخر الليل. ولبعضهم الآخر منتصف النهار. وكان ناصر من البعض الآخر. لهذا فعلى عبد الله أن يتابع وحده. توالى الأخبار... بيروت الهدف النهائي للقوات الإسرائيلية... القيادات الفلسطينية تنسحب إلى العاصمة... دبابات شارون على مشارف بيروت.

كان مدير التوزيع يلحّ على عبد الله بسرعة الطباعة. حين دخل ناصر. يحمل تساؤلات كثيرة. قبل أن يسأل. أفاده عبد الله: سنطبع "طبعة ثانية"... لن نغيّر في المواضيع شيئاً. فقط خبر لبنان. أو حتى ليس كله. أكتب ما إستجدّ منذ الليل.

وناصر صحافي محترف. ولهذا يحبه. كانت رؤوس الأفلام التي خدّت عنها عبد الله كافية له. فقد كتب خبر الليل الماضي. هو يعرف كل التفاصيل. بل كان يتوقع منذ أمس هذا الذي جرى هذا الصباح. أرغمه عبد الله على الجلوس مكانه. على كرسي رئيس التحرير. ووضع أمامه كل أوراق وكالات الأنباء. التي تحمل التطورات. وبدأ ناصر يكتب. وكأنه يواصل ما كان يكتبه قبل ساعات. أثناء الليل. فأنهى الخبر الطويل بسرعة. كتب عنواناً يقول: "لبنان يستغيث". كان عبد الله واقفاً يقرأ كل كلمة. قال: بل "بيروت تستغيث". ولم ينتظر ردّ ناصر. نادى المراسل ليذهب بالأوراق إلى المطبعة.

وكانا على نفس النحو: ناصر يجلس على كرسي عبد الله. رئيس التحرير. وعبد الله واقفاً. يستعرضان "الطبعة الثانية". حين دخلت ديمًا.

الله يا ديمًا!

ما الذي جاء بك الآن. في هذه اللحظة بالذات؟ كان عبد الله عاد شاباً. مع طبعة نفدت. وأخرى ستنفد. كان مع كل عدد بيع. ومع كل عدد سيباع. يرجع إلى الوراء سنة. كان عبد الله بانتظار ديمًا. لتكتمل حلقات مأساته! دقت على الباب. فلم ينتبها. دخلت الغرفة. دخلت ببعض ما تملك من ديمًا: الشعر الأشقر الناعم. الفوام الرشيق. والأناقة البالغة البساطة. البالغة التعقيد. قبل أن تتحدث. أعلنت عن نفسها بعطر لم يقترب من أنفيهما. ولن يقترب. إلا منها. من ديمًا.

قالت. وهي تتطلع إلى ناصر: أستاذ عبد الله؟!

تمنى عبد الله لو أن الأرض لم تشهد ولادة ناصر هذا الذي يجلس مكانه. ولم تبد على ناصر آية إنفعالات. فلم تترك هذه الآتية من المجهول لديه أي إنطباع.

ردّ. مشيراً إلى عبد الله: لا. هذا هو الأستاذ عبد الله!

قالت. وقد حولت نظرها إلى عبد الله: أسفة. لدخولي بدون

موعود. السكرتيرة مش موجودة ... أنا ديمًا الصليبي. حدثك عني معالي أبو سامي.

كان كلامها مبتلىء ثقة. ونعومة!

ردّ عبد الله: أهلاً ديمًا. طبعاً طبعاً. تفضلي!

كانت قد جلست. قبل إكماله كلامه. كانت تعرف أنها تقتحم عالمه. فمن يقاوم طلتها. وعالمها. لم يخلق بعد. قالت: أنا في الحقيقة لا أريد العمل فوراً ... أفضّل أن أمر بفترة تجربة. أنا أجربكم وأنتم تجربوني!

كانت تقتحم. ولم يحاول المقاومة. رفع الرابطة البيضاء منذ أول شقّة عطر. كانت دبابات شارون تقترب من دخول بيروت. ودبابات ديمًا تقتحم عالم عبد الله.

كانت تتصرّف وكأنها صارت جزءاً من "الجريدة". وهذا لم يعجب ناصر. بل وفوجيء بالرد العجيب لعبد الله: أهلاً بك في جريدتك! لم يعجبه استسلامه المفاجيء...

وناصر لا يحب هذا النوع من الصحافيّات. يعتبره منطقيّاً على المهنة. ويفضّل عليه اللواتي لا يستخدمن شكلهن في العمل. يفضّل البساطة في الشكل. والعمق في الموضوع... أمّا هذه المتبرجة. فأبعد ما تكون عن ذوقه.

لكن حكمه كان متسرعاً.

وتذكّر ناصر أنه يجلس على مقعد رئيس التحرير. فاعتذر بلباقة قائلاً: ليعبد لعبد الله إعتباره. ولعله يعبد إليه تماسكه: أسف أستاذ عبد الله. محلك.

وأضاف. بعد أن وقف وحمل "الجريدة": وهذه الطبعة ستنفد أيضاً. كان عبد الله ينتظر حركة ناصر. عاد إلى مقعده. أشعل سيجارة. وقال: نسيت أن أعرفك يا ديمًا على زميلك ناصر... رئيس قسم الأخبار العربية.

كان يتحدث. هذه المرة. وكأنه يعرفها منذ دهر. وهذا ما زاد في

إستياء ناصر.

قالت. دون أن ننظر إلى جهة ناصر: نشرفنا!

كانت تردّ على هذا البرود الذي قابلها به. البرود الذي لم تعرفه من الرجال. كانت تتجاهل وجوده.

أكمل عبد الله حديثه: ما رأيك أن تبدأي العمل معه... ناصر من أحسن صحافيينا؟

قال ناصر. مُتعمداً إغاضتها: يمكن مدام دينا تُفضّل العمل في قسم آخر.. في فترة جربينا!

كان واضحاً أنّها غير متزوجة. لهذا قال لها مدام. وكان يعتبر عن رفضه لغطرستها. وإستبائه من إستسلام عبد الله. حين ألح على الفترة التجريبية.

لكنها واصلت تجاهله.

قالت. وهي تنظر إلى الجريدتين المرميتين على الطاولة. فكرة "الطبعة الثانية" منازة.

إبتسم عبد الله. ركب الغرور. قال: تصوّري.. لو طبعنا مرّة ثالثة. سننفذ الجريدة.. الناس مشغولون على لبنان. يبدو أنّ المؤامرة كبيرة. ردت: بالفعل. لكنّ عنوان الطبعة الأولى أجمل!

كانت تلتقط كلمة المؤامرة من حديثه. ومن العدد الملقى أمامها. وتفترض أنّ ناصر هو الذي وضع عنوان "الطبعة الثانية". وعبد الله وضع كلمة المؤامرة. لهذا أرادت أن تردّ عليه. دون أن تنظر إليه. ولم تعرف أنّها تُجامل. بهذا. ناصر!

إمتنع عبد الله. في سرّه. وقال ناصر مبتسماً: شكراً!

فوجئت بكلمة ناصر. فتطلعت نحوه. كانت العيون الأربعة تلتقي لأول مرّة. وكأنّها في إختبار قوّة.

وأضاف. رداً على إستفسارات عينيها: شكراً.. لأنني أنا من وضع العنوان. وخرج من الغرفة. دون أن يستأذن أحداً. تاركاً وراءه تساؤلات دما. وإرتباكات عبد الله.

لقد بادرت هي بدخول مزعج. وبادر هو بخروج أكثر إزعاجاً!

١٦

لا شيء مميّز في ناصر. حتّى يكون محبوباً من النساء إلى هذه الدرجة. ليس فيه ما يلفت النظر إذا رأيته يغادر سيارته عند مدخل "الجريدة". معتدل الطول. معتدل الوزن. قسماً وجهه عادية. مع أنف طويل دون مبالغة. وأذنين بالغتا في الكبر. يتعمّد إخفاءهما بإطالة شعره قليلاً. أنيق إلى درجة تنذر أصحابه بأنّ ما يصرفه على ثيابه يعيل أسرة كاملة. لكنّه غير متكلف.

لكنّ هذا كلّه ليس مُعرباً لإمرأة. أو حافزاً لها للدخول في مغامرة. بل لعلّه منقّر للكثيرات منهنّ. من اللواتي يبحثن عن العلاقات العابرة. مثلاً. وهو ليس كذلك. إنّهُ يبحث عن الدفء في النساء. والعمق في العلاقات.

وناصر. يطلق أذنيه الكبيرتين لإيماء العلاقة. مع أيّ امرأة جديدة. فيستمع لها. والمرأة. دائماً. تحبّ من يستمع إليها. إلى مشاكلها. وكلّهنّ صاحبات مشاكل. وهذا هو سرّه!

وناصر لا يبادر في تطوير العلاقات. إنّهُ يستمع. ويستمع. ولا يُقاطع بحديث إلّا في وقته. وحينها لا يقول من الكلام سوى أقله. يقول قناعاته دون تزويق. وقناعاته دائماً مع النساء. إنّهنّ مظلومات في مجتمعنا. ويعود للإستماع. مهما تعددت اللقاءات. وتنوّعت الموضوعات. لا يُبادر بإعلان الحبّ. ولا بإعلان الشهوة. وفي كلّ المرّات. كان يراهنّ يبادرن. بالحبّ أو الشهوة. دون أن يتكلف عناء شيء إلّا إرخاء أذنيه. وإطلاق لسانه في الوقت المناسب!

كان في الحادية عشرة من عمره. حين إستمع للمرّة الأولى! مدرسته كانت قريبة من البيت. لهذا كان يعود إليه في فترة

إستراحة الغداء. بتناول لُقماً قليلة سريعاً. ثم يغادر إلى الشارع. فيفضي ما تبقى من وقت مع أصدقائه في لعبة سريعة. ليعود بعدها إلى المدرسة.

في ذلك اليوم. عاد كعادته. إلى البيت. تناول القليل من الأكل. وهم بالخروج حين التقى فاطمة. خادمة المنزل الصبية. ذات التسع عشرة سنة. تبكي عند المدخل. سألتها. فلم تُجب. كان بكاءها مكتوماً. حزن لخالها. إفتعدت الأرض. فقَلَدَها. سألها. ببراءة ولد يقرب من الصبا: ماذا يا فاطمة. قولي لي من زَعَلَك وسأضربه. ضحكت ببراءة صبية. تقرب من الأنوثة. قالت: لا أحد. أعاد السؤال. ردت. وقد أخذت تمسح دموعها: خالتي أم ناصر. هل تستطيع ضربها؟ إبتسمت. مرة ثانية. وأخذت خَدَّه مطوّلاً عن مشكلتها مع أمه. مشكلتها مع نفسها. مشكلتها مع الدنيا. وهو يستمع. ويستمتع. وفاطمة صبية حلوة. تعيش بينهم منذ ما لا يتذكر من السنوات. كان يعرفها واحدة من العائلة. خادمة نعم! لكن تصرفاتهم معها كانت لا تبتعد عن إشعارها بكونها واحدة منهم.

كان قريباً منها بحيث أخذت رائحة جسدها تخترق أنفه. راقته الرائحة. قال لها: ولا بهمك. أمي خبك. كلنا نحبك! ضمته إليها. بحنان حقيقي. حنان لا يعرف الشر. لكن الأجساد حين تقرب. فلا بد من شر. وتَفذت رائحة الجسد أكثر. إحتوته كله. كان رأسه فوق صدرها المكتمل. قربه منها أكثر. توقف حديثهما كلياً. توقفت عن الشكوى. فتوقف عن الإستماع. أمسكت بيده الحامدة. في هذا الذي يجري. فأنزلتها قليلاً. قليلاً. رفعته بها ثوبها. همست بصوت مبجوح. مكتوم. كأنه فحيح: هُنا .. هُنا. وهُناك كان يلبّي أمر فحيحها. دون أن يفهم سوى القليل. دقائق مرّت لتنتهي شكواها. ويبدأ شكواه. وتساؤلاته.

وتكرّر الفحيح. تكرّر رائحة الجسد. عرف الدنيا. عرف أول الدنيا مع فاطمة. لكنه لم يشاهد. بعينه. جسدها. لم يشاهد خلاصة

ومرّت سنتان. إكتمل فيهما صباه. صار جزءاً منه. لتأتي سهى. وتقدّم له درساً آخر من كتاب النساء. كانت سهى من أقارب أمه. تقضي في بيتهم عطلة ذلك الصيف. هي مدرسة في السعودية. يعيش أهلها في المغرب. وأبقوها في عمّان. لغاية البحث عن عريس. كانت عين العائلة وقعت على قريب. لكنه لم يكن طلب يدها بعد. وكانت تنتظر بكل إكتمال أنوثتها. ذلك العريس. كانت تنام في غرفة واحدة مع ناصر. وأخيه الصغير. ولم يلحظ أحد أنّ ناصر صار رجلاً. أو في القليل بعض رجل. كان يفعل النوم. في أول الليل. حتّى تنام سهى. ثم يرفع نفسه. شبيهاً فشياً. ليتأمل هذا الجسد الأبيض الناعم الجميل. على الضوء الباهت الآتي من إضاءة خارجية. كان الصيف حاراً. فينحسر معه هذا الغطاء اللعين. قليلاً قليلاً. ويتبعه إنحسار أخطر لثوب النوم الشفاف. بعد أيام صار يحل مشكلة عقله. وجسده. بنفسه. وينام.

وبدا بالإستماع!

كانت سهى تختصر شخصيات كثيرة في واحدة. فهي إبنة لفلسطيني هاجر للعمل في المغرب مدرّساً. فتزوج من هناك. ولدت في طنجة. المنفتحة. وترتّب فيها. درست في الدار البيضاء. فعاشت وحدها حياة الحريّة. المختلطة بتحفظات أبيها الصارمة. كان يفاجئها بزيارات غير متوقعة. أكملت الجامعة. لتجد نفسها في جدّة. في السعودية. تدرس هناك طالبات في مثل سنّها. وكانت تعيش إصرار أبيها: لن تتزوج سهى إلا فلسطينياً. لا يعيش في المغرب! سهى. إختصار لحريّة العصفور مذابة في رقيق. هذه لا تقبل سجنًا. وذاك لا يقبل سجنًا!

ولم يكن في عمّان من يستمع إلى سهى. سوى ناصر. ولم يحب ناصر أن يستمع إلى أحد أكثر من سهى. حدّته عن قصتها كلّها. صارحته بحب خاضته في المغرب. كان مغريباً. فرفضه أبوها بإصرار.

صارحته. أكثر: قُبِّلني!
وأكثر: قُبِّلته كانت لذيدة!
وأكثر. وأكثر.

لكنها لم تقل له إنها كادت أن تصبح إمراة كاملة. مع ذلك المغربي. لولا عقلها. الذي إستيقظ فجأة!
وصار يتدخل بالكلام. ولكن ماذا تفعلين في السعودية؟ أخذت تُسهب في شرح تفاصيل الملل. الذي شعرت به هناك. حدثته عن المنزل الذي تعيش به مع زميلاتها. كل ثلاث في غرفة... لو تعرف. يا ناصر. ماذا يجري في المنزل بين البنات؟ كانت تُثير. بذلك. خياله الصغير.

صار حديثهما أكثر من جرىء. صار بوحاً. سألتها: وأنت ألا تُحب؟ حدثتها عما كان يجري مع فاطمة بالتفصيل. ضحكت. وهمست له: يا عيبك. تفعل هذا مع خادمة!

ولم يخل صوتها من فحيح!
أضافت. وبعض الضحكة ما زال على مُحبيها: كيف كنت مسكهها؟ وَخَطَفَتْ يده بيدها. ووضعتها تحت بطنها: هنا.. كنت... هنا؟ تركت يده فجأة. وإرتسمت على وجهها ملامح الجدّة. أعادها. فإنتفضت واقفة.

تذكّرت نفسها.

تذكّرت والدها.

وقف مُستغرباً. كان الرجل فيه يكاد يستجدي. والطفل فيه يكاد يهرب. وفضل السكوت. ومالكت نفسها. قالت: هل تشتهيّني؟ فاجأه السؤال. وخرجت الكلمات من فمه وحدها. دون تخطيط: نعم أشتهيك كثيراً!

كان يتمنى أن يذهب باللعبة إلى نهايتها. لكن نهاية اللعبة. مع سُهّي. كانت أمراً غير وارد. فلن ينهي اللعبة إلا صاحبها. لن ينهيها سوى العريس المنتظراً!

وأضاف: أشتهيك. وأريد أن أراك كلّك... أريد أن أرى كلّ جسدك. ولم تسعفه الكلمات أكثر من ذلك. لم يقل لها: أريدك كلّك! لعلّ مداركه لم تكن جاهزة لها. كلّها. أو لعلّ باطنه كان يشعر أنّها لن تكون كلّها إلا لصاحبها.

رَدّت بثقة. جاءها عقل العصفور المغربي. فقالت: بسيطة. ستراني كلّي... هذه سهلة!

نسأل. مُتحقّراً: كيف؟

أجابت: في الحمام.. سأكون في الحمام. لن أغلق الباب. ستفتحه وتراني!

وغرقت في ضحكة ملأى بالفحيح. فغرق في تصوّر شكلها عارية. إلا من ماء قليل ينساب على الجسد الأبيض!

ووقت سُهي بوعدها. فوعد العصفور دين. وتزوّجت. فكانت لصاحبها. وأنجبت فصارت لأولادها. لكنّها تركت. في ذهن ناصر. أول مشهد حقيقي لإمراة عارية. محفوراً. يتكرّر مع كلّ مشهد مماثل. وجاءت نسرين...

على شكل عصفور كامل. لا تشوبه عُقد القفص. ولا توقف طيرانه أوهام. طار معها كنسر يُخلّق أول مرّة. كان نسرّاً يتعلم الطيران من عصفور. من عصفورة.

نظّمت مدرسته. القرير. لفرقة الكشافه رحلة إلى لبنان. كانت الرحلة عبارة عن مُحَيّم لكشافه من عدّة أقطار. يُقام كلّ سنتين في الجبل. قُرب أنطلياس. فيعيش الشباب حياة الإستقلال والأغامرة. والإعتماد على الذات. وكان ناصر واحداً من هؤلاء الذين حملهم الباص. من عمّان ذات صباح من صيف ١٩٦٩. في رحلة طويلة جميلة. لم يعكرها ذلك الوقوف الطويل في درعا والمصنع. إنتظاراً لإنهاء المعاملات الرسميّة. وزادتها جمالاً تلك الإستراحة في شتورة. القرية البقاعية الساحرة. نصبوا خيامهم قُبيل المغرب بقليل. ومع بدء نزول الشمس إلى البحر. كان يعيش لحظات أسرة. تدرّج الأخضر. الذي يبدأ

من موقعه. ويختلط مع البُني الفاخ على الشاطئ. في تناسق أخاذ. ثم الأزرق الفضّي على الماء. فالكرة النارية الصفراء الغامقة. أُنْثِي وهبّت ما حولها هالة من الذهب كانت صورة لا مثيل لها في ذهن لم يعش سوى لون عمّان الواحد.

نام مرتاحاً. تلك الليلة. كما لم يفعل من قبل. كانت ساعات نوم قليلة. لكنّها كانت كافية ليستيقظ. بعدها. على صوت أذان قادم من قرية فخر الدين. المسافة بعيدة. من القرية حتّى الخيم. لكنّ البعد لم يمنع صوتاً رخيماً من أن يخرق أذني ناصر. ليصل إلى قلبه. إسنيقظ. وخرج رامياً بصره إلى الأزرق الصافي البعيد. فكاد أن يرى نهاية العالم. نهاية الأرض.

وجاءت المغامرات الشبابيّة. في اليومين اللاحقين. لتُضفي على الرحلة جوّ الحلم. ثمّ أكملت نسرين أنوثه لبنان. لتُعطي هذا كلّهُ شكل الجنّة.

في اليوم الثالث أنت.

كان البرنامج يتضمّن لقاءً مُختلطاً. مع فتيات أُتين من مدارس عربيّة مُختلفة. يُقمن مُخيماً في مكان قريب. توجّهت الحافلات ظهراً إلى مدرسة المروج. مكان اللقاء. والتقى الشباب والشابات في جمّع قُصد منه أن يكون جامعة عربيّة شابّة. يتناقشون ويتحاورون بصراحة تامّة. وكان اللقاء ملاً. مُمتلئاً بالشعارات. تناولوا الغداء في المدرسة. وتوجّهوا إلى الباصات. ليواصلوا برنامجهم في زيارة إلى بيروت. ثلاث ساعات مفتوحة. يتجولون فيها بحريتهم. للتعرف على المدينة الساحرة. ويتعارفون على بعضهم البعض. كان بهمّ بالركوب في الباص. حين إستمع إلى صوت ناعم: ناصر.. ناصر!

تطلّع. ومعه كل الشباب الأردنيين. إلى مصدر الصوت. فرأوا فتاة تخطف العيون. وهو رأى نسرين. نسرين التي تغيّرت كثيراً. نسرين التي كان مشوارها اليوميّ حول دوار مكسيم. في جبل الحسين. يمنع التجول في جبال عمّان الأخرى!

نسرين.. من أيّ أبواب الجنّة دخلت؟
توجّه نحوها. تريكه أصوات ونكات وتصفيرات رفاقه. سلّم عليها. قالت له: ماذا تفعل هنا يا ناصر؟ وكان أولى به أن يسأل السؤال ذاته. ردّ. وما زال إرتبাকে واضحاً: أنا مع الوفد الأردني. أنت ماذا تفعلين هنا؟

أجابت: وأنا مع الوفد اللبناني؟
ولم تتركه لتساؤلاته. أضافت: أنا الآن طالبة. في القسم الداخلي. في هذه المدرسة.. مدرسة المروج. وأضافت بالإنجليزية: Green fields.

وخرجت الكلمات من لسانه وحدها. قال دون أن يفكر: طبعاً.. على لون عينيك!

لم يكن ضليعاً في الغزل. كان يدق بهذه الكلمات العفوية بابه. قالت نسرين. وهي تعود إلى الوراء: شو.. الأردنيين صاروا يعرفوا يحكوا.. بشوفك في بيروت!

ولم يأبه. في الباص. لكلّ التعليقات الحاسدة التي ملأت الجوّ. كان يسترجع لون عيني نسرين. ويتساءل. نسرين تكبره بسنتين. أو أكثر قليلاً. لهذا كانت موضع حديث زملائه الكبار. ليس هناك من صبيّ. من هؤلاء. من لم يدع حبّ نسرين له. وليس هناك من لم يكن يكذب. لكنّها سافرت. كما أنت فجأة..

على شارع جانبي. يُطلّ على الرملة البيضاء توقفت الباصات الخمس. نزل مئات الطلاب والطالبات. في مسيرة إلى الروشة. أشبه ما تكون بمظاهرة.

رأها بين الطالبات.

تلفت فلم تره.

لم يفرض نفسه عليها. كانت تتحدّث إلى زميلاتّها. وتتلّقت. وتبحث عنه. وكان يخشى لقاءها. ويتلهّف إليه. هي أكبر منه. لهذا لن ينال منها. مع هذا الحشد من الشباب. سوى الأسئلة المتواصلة

حول عمان، وهو لا يريد ذكرى عمان في هذه الجنة، لكن عينيها
الخضراوين كانتا تلحان عليه. كانتا تدعوانه للقائها. تشجع. وسارع
خطاه نحوها: نسرين. ناداه بصوت خفيض. لم تسمع. نادى مرة
أخرى. بصوت أعلى: نسرين. تلقّت بذات الأخضر الذي يستهلك
خلاصة الأرض: ناصر... كنت أبحث عنك!

وبدلت في حديث عمان. إستمع. وصلت إلى حديث لبنان. إستمع.
كانت العصفورة تحلق في سماء بيروت. حين أمسكت بيده. في
حركة تعمّدت أن يراها كل الموجودين. أن تراها المظاهرة الشبابية التي
إجناحت الروشة. المظاهرة الشبابية العربية التي كانت تستعرض
قوتها قريباً. جداً. من صخرة الإنتحار.

كانت يدها اليمنى تمسك بيده اليسرى. في تظاهرة أرادت
نسرين صارخة. أمام هؤلاء اللبنانيين الذين يظنون الأردن نخلة
محاطة بغنم كثير. وخيام بدوية ضاعت بين خيام اللاجئين. وقليل
من الجمال. في داخلها ثورة على تعليقات زميلاتها. عبرت عنها بهذه
الحرية المفعلة. بالتمسك بيد ناصر. وناصر كان سعيداً. لكنه كان
مُحرجاً!

وفادته نسرين إلى شارع جانبي. فإنحرفت المظاهرة الشبابية عن
مسارها. سارت وراءهم. كانت المظاهرة ترى في الإثنين حباً متمرداً.
ونسرين ترى نصراً كبيراً. وناصر ضائع في فكرة أن العينين الخضراوين
اللتين سحرنا جبل الحسين. تعيشان معه. ولو للحظة عابرة!

ومادت نسرين. فنشوة النصر تسحر. مرت من شارع فردان. يده في
يدها. وصلت إلى الحمراء. فتطلّعت إلى ساعتها... ما زال أمامهما
ساعتان. سألته: هل تحبّ السينما؟

لم تنتظر إجابته. كانا يقفان إلى جانب دار سينما. توجهت إلى
شباك التذاكر. فإشتريت تذكرتين. ودخلا. لم تكن تقصد الفيلم. فهي
لا تعرف ما هو. ولم تكن تعرف أيضاً أن الفيلم شارف على نهايته.
لكنها كانت تريد أن تقول لتلك العيون الفضولية: إن الحرية ليست

للبنانيين فحسب.. فنحن هنا!

وكان ناصر مُنفقاً كَمَن تَوَمَّ مغناطيساً. بعينين خضراوين!
ومادت نسرين أكثر...

لم يكن هناك في ظلمة السينما من يلاحقهما. وهي تعرف ذلك.
لكنها عادت وأمسكت بيد ناصر. دقيقة مرت. لتقترب منه. كتفها
صار عند كتفه. رأسها يداعب رأسه. إقترب هو أيضاً. نفّذت إلى قلبه
رائحة العطر. المختلطة برائحة الجسد. أدار رأسه نحو رأسها. فأدارت.
وإقتادته إلى أول القبل. إلى أول ما صار مفتاحاً للشهية. والشهوة!
الله يا نسرين!

وخرجا متعارفين. خرجا وكأنهما صارا واحداً. لم تنمست يدها
بيده. ولم يكن نائما. كان يقظاً ولكنه مسحور. سارا في الحمراء.
متباعدين متقاربين. يجمعهما فيلم لم يشاهدا منه شيئاً. وقبله
عاشاها حتى آخرها.

قالت له: البحر أجمل ما في لبنان. هل ركضت يوماً على شاطئ
لبنان؟

لم يكن. يوماً. ركض على شاطئ. لم يكن يعرف البحر أصلاً.
فأجاب بإيماءة من رأسه أن لا!

أضافت: ما رأيك؟

ولم يجب.

كان مُنفقاً. مسحوراً بالقبلة. وبالعينين الخضراوين. وما زال
يستمع!

قالت. وقد نظرت إلى ساعتها: بعد نصف الساعة ستتحرك
الباصات. أمامك خياران: أن تعود إليها. أو تظلّ معي.. نركض على
الشاطئ؟

العصفورة. التي تمردت على عمان و بيروت. كانت تتمرد على
نفسها. تتمادي في التمرد. وكان ناصر جاهزاً. فنسرين قدّمت عرضاً
من ذلك النوع الذي لا يمكن رفضه.

قبل العرض... وليكن ما يكون!

نزلاً إلى الشاطئ.

فالت له: لا داعي للأخذية.

جلست على الرمل وخلعتهم.

فعل الشبيء نفسه. وفقت وبدأت الركض. لحقها. كأننا يركضان

جنوباً الشمس على م بينهما تغوص في البحر. بيروت على يسارهما

ترتدي لون الذهب.

وعرف ناصر كيف يكون الحب الحرام. في بيروت.

١٧

ولم تُفصح دما. حتى تلك اللحظة. عن شبيء يُحَقِّز فضول ناصر

أن يتحرك. دَخَلَ مرةً إلى مكتب عبد الله. لتزیده دما قناعة

بسطحتها. كان عبد الله يقول لها: دما بالألف أم بالتاء المربوطة؟

ردت: هذا يعتمد عليك... فإذا أردتها بلا معنى فهي دما بالألف. وإذا

أردتها بمعنى فهي السحابة المطيرة. بالتاء!

كان عبد الله يريد هذه النتيجة. فقال: هذا هو الخطأ الشائع.

فالدمة تعني المطر يطول زمانه في سكون. أما دما فلا أظن أن لها

معنى فعلاً!

قام من مقعده. وتوجه نحو رفوف المكتبة. إفتعل البحث عن

كتاب. كان يعرف مكانه. فقد وضعه هناك قبل قليل. ثم تصرف

وكأنه وجد ضالته. "هذا هو المعجم الوسيط". قال وهو يعود بالجد

إلى مقعده. وأصل الإفتعال فقلب بصفحاته. ثم رسم على وجهه

مُفاجأة: قلت لكم! الدمة هي المطر يطول زمانه في سكون!

وواصل البحث بين الكلمات. لبصل إلى قول مصحوب بإبتسامه:

قولي لي مثلاً. ما معنى دومت الخمر شاربها؟... دومت من دمة طبعاً!

لم تجب دما.

استمر: يعني أنها أسكرته فأدارته!

وأنتهى بالقول. وقد صارت إبتسامته ضحكة. ولكل إمريء من

إسمه نصيب!

كان هذا مدخلاً ساذجاً من عبد الله لقلب دما. لكنه رضي برّد

فعلها الصامت. قال لنفسه: وصلت إليها الفكرة... لا بد أنها عرفت

مقصدي... لقد أدارت رأسي!

ولم يترك الأمر في دما أكثر من فكرة عابرة. فأخذت تُفكر في

إسمها لأول مرة. وفضلت أن لا يحمل معنى مُعِيناً. هي ستعطيه

معناه. أما ناصر فتذكّر فيلماً مصرياً قديماً يتودد فيه حسين رياض.

بعد أن صبغ شعره. لفاتن حمامه. كانت هذه مُغرمة بعمر الشريف!

قالت: أستاذ عبد الله. ليس لدى "الجريدة" مندوب في لبنان. أفكر

بالسفر هناك لتغطية الحرب.

لم تكن تسأل. ولا تطلب. كانت تُقرّر حقيقة.

إنفعل عبد الله فجأة: لبنان.. هل تتصورين ماذا يجري في لبنان.

تذهبين إلى الموت برجليك؟

وكان مُحَقِّقاً في تخوّفه. فلبنان كان يأخذ. أيامها. شكل المقبرة.

وصادقاً في إنفعاله. فهل يترك هذه التي طرقت باب القلب. والشباب

الضائع. تذهب إلى القبر. وأعاد إستنكاره. مرةً أخرى. على شكل

كلمة: مُسْتَحِيل!

ثم وجه كلامه لناصر: تصوّر يا ناصر... لبنان؟

كان ناصر ما زال يعيش لحظة من فيلم مصري. لم يقتنع بحرف

بما قيل. كانت إجابته السكوت. فلا هي تريد السفر إلى لبنان. ولم

يُفَنِّعه إنفعال عبد الله.

قالت. بعد أن أثارها كلمة مُسْتَحِيل: أستاذ عبد الله... أنا

صحافية. وإذا لم يذهب الصحافي إلى لبنان. فَمَنْ يذهب؟

ردّ عبد الله: أخبار لبنان مثل الهمّ في القلب. كثيرة. إذهبي إلى
غُرْفَة وكالات الأنباء وإقراي .. هل ستقدّمين أكثر منهم؟
شعرت بتحدٍّ أكبر.

ولم يكن يتحدّاهما. كان يريداهما في عَمّان. إلى جانبه. قصد فقط
أن يُنبئها عن السفر. لكن الأمر كان كَبُرَ في رأسها. وصار لبنان
مسألة شخصية.

قالت: أستاذ عبد الله... أنا ما زلت في مرحلة جريبية. جريبونني
وأجربكم. ومن لبنان سأبعث بالمادة. إذا أعجبتكم أنشروها. وإذا لم
نروها مناسبة. فهناك مليون سلة مُهملات!
وانتفضت واقفة.

ووقف عبد الله. مغلوباً على أمره.

وبقي ناصر جالساً!

تمالك عبد الله نفسه. فقال: يا ديمة. بيروت مُحاصرة. لن
تستطيعي دخولها. وإذا دخلتها فالدنيا حرب. لن تستطيعي مقابلة
أحد. ولو استطعت فلن نرى موادك النور. لأنك لن تستطيعي بعثها
إلينا.

ووجه كلامه إلى ناصر. مُستنجداً. مستجدياً تأييده: هل هذا
معقول يا ناصر. تكلم!

كان ناصر مُراقباً غير مُحايِد. لم يدخل إلى ذهنه سوى ذلك
المشهد من الفيلم المصري: كهل يُقنع فتاة بنفسه. وفتاة تتمتع
مُستخدمة أول ما تملك. خرج برد ظنه بلُخصّ الحل. قال: ما دامت
الآنسة ديمة مُصرّة على الذهاب. فلتذهب. نحن بحاجة إلى أخبار
خاصة. وتقارير. من لبنان. وإذا لم نستطع الدخول إلى بيروت.
سنضطرّ للعودة!

الحلّ الذي خرج به ناصر كان غير مرض لعبد الله. لكنه لا
يستطيع المبالغة في رفضه. ومُرضياً لديها لكنها لا تستطيع قبوله
كما هو...

كان حلاً وسطاً. تتوافق الأطراف عليه مضضاً!
وافق عبد الله باعتبارها ستعود فوراً. وواصلت ديمة مشروعها. مع
خد أكبر. أمّا ناصر فكان يرى أنّه يُنفذ عبد الله من هذه المشكلة.
المُسمّاة ديمة. فقد تنطوّر. وهو يحبّ عبد الله. ويحترمه. ولا يريد له
هذه النهاية.

كان ناصر يسمع تلك التعليقات السمجة التي ملأت أروقة
"الجريدة". فيمتلئ غيظاً. وغضباً. فليس بهذه الطريقة يُقابل رجل
كعبد الله. كان المحرّرون يتناقلون قصصاً سخيفة عن رئيس تحريرهم.
تربطه بأوضاع رخيصة مع ديمة. وكانت تصرفات عبد الله تُساعدهم
على المسألة. أمامها يبدو ضعيفاً. مُتخاذلاً. ولا يقدّر أنّ هيبته أمام
موظفيه تتلاشى يوماً إثر يوم. لقاء بعد لقاء مع ديمة. وكان ناصر
يعرف. أكثر من غيره. هذا الضعف الذي يشعر به عبد الله أمام
النساء. يعرف كيف يتحوّل إلى مُراهق أمامهن. ويعرف أنّه كان يعيش
المراهقة حتّى قبل أن تموت زوجته. لكنّ مُراهقته المتأخرة كانت. في
حياتها. تجد طريقها خارج الأردن.

في عَمّان كان شخصاً مُحترماً. يحافظ على مكانته وهيبته.
وخارجها. يعود أربعين سنة. يعود إلى ليلاليه مع جورج النجار. في
شعفاط. تلك التي كان ينسى فيها نفسه.

ولم يكن ناصر يعترض. الرجل يعيش زواجاً فاشلاً. ومن حقّه أن
يعيش. ولكن خارج الصورة. خارج الأردن. أمّا هذه المُتكلفة. التي جاءت
لعبد الله في وقت ضعفه. بعد وفاة زوجته. فستكون مشروع
تدميره... تخطيط حياته كلّها.

الحلّ. إذن. أن تُسافر ديمة. قد يكون مؤقتاً. لكنه حلّ يترك له فرصة
للتفكير في حلّ نهائي!

وبدأت بالإفصاح عن مشروعها: سنغادر غداً فجرّاً. أربع سيارات.
الدكتور يعقوب السالم وطبيبنا في سيارة. وسأكون معهم. وإثنا
عشر طبيباً آخر سيتوزعون على السيارات الباقية.

ولمع الإسم في ذهن الإثنين "يعقوب السالم". هذا الشبيوعي العريق. ماذا ستفعل واحدة كديما مع هؤلاء. مع وفد من الحزب الشبيوعي؟ قال عبد الله لنفسه: شبيوعية؟ وإستدرك: ليس مَهَمًا. وإستغرب ناصر.

لكنه. ولأول مرة. نعمد أن ينظر إليها.

كانت ديما ترتدي فُستاناً أسود. ضيقاً عند الصدر والخصر. ويتسع تدريجياً من الخصر نزولاً. حذاؤها بسيط. ناعم. بكعب مُتوسّط الطول. عند صدرها. بدت على الفستان تطريزة فلاحية صغيرة لوردة باللونين الأحمر والأخضر. وإلى جانبها بدا صليب ذهبي صغير يتدلى بسلسلة من رقبتها. يحيط بهذا كله شعرها الذهبي الطويل. المنساب حتى خصرها.

كانت جميلة.

قال عبد الله: على كل حال. نستقي مع ناصر. فكل أخبار لبنان تمر عليه.

ولم تنسّق مع ناصر. ولم يطلب تنسيقها.

غابت. في اليوم التالي. فبدا واضحاً أنها سافرت.

يوم آخر مضى أغلبه. ليقول عبد الله لناصر: ستعود اليوم. ستواجه المشاكل وتعود. ولم يكذب ينهي جملته حتى كانت سكرتيرة عبد الله تدخل المكتب. حاملة مُغلّفاً. ولتقول: جاء به شخص من لبنان. يقول إنه من ديما الصليبي.

ففتح عبد الله المُغلّف. مُتأففاً. وبدأ بتقليب الأوراق. قال: تفضل...

الست بعثت رسالة إخبارية!

ولم يقرأ منها شيئاً. أعطاه لناصر.

قرأ ناصر بنملي. خول إلى إهتمام... كانت ديما تشرح مُعانة السفر في اليوم الأول. بلغة شاعرية جميلة. يبدو الصدق فيها بطلاً. الإنتظار في درعا. بسبب طوابير المتطوعين القادمين من الأردن. الإنتظار في المصنع لنفس السبب. تعطل السيارة البيجو الصغيرة.

التي كانت تقلّهم عند بحمدون. وقيام الدكتور زيادين بدور الميكانيكي. ثم عودة زيادين طبيباً بإجرائه عملية. على عجل. في بحمدون. لمقاتل فلسطيني أصيب بشظية من قذيفة طائشة. وأنهت رسالتها: "الجريدة" لم تستطع دخول بيروت. بسبب الحصار. وشارون لم يستطع دخول بيروت أيضاً. بسبب إستبسال المقاومة. فهل ندخل بيروت غداً. فنخترق الحصار. وهل سيظلّ شارون حائراً. غداً. من أي جانب سيُضرب؟

ففر ناصر عن مقعده. وركض إلى مكتبه. هناك عاد فقرأ الرسالة. بترو أكبر. ووضع عنواناً فرعياً يقول: "الجريدة" تحاول إختراق حصار بيروت. ورئيسياً: طبيب أردني يُنقذ مُقاتلاً فلسطينياً.

لكنه قال لنفسه: لا يمكن لديما أن تكون كتبت هذه الرسالة... بل كتبها واحد من الشيوعيين المُرافقين!

نُفدت "الجريدة" من الأسواق في اليوم التالي. وإنشغل يوم عبد الله بالرد على الهاتف. حتى ظن أن الأردن كله يتصل به مهناً. وأحب ديمة أكثر!

فبيل الطبع. في ذلك اليوم. تكرر المشهد. رسالة من بيروت. كانت ديما تشرح محاولات دخولها اليانسة إلى بيروت. وإنفصالها عن الأطباء الأردنيين الذين فضلوا البقاء في بحمدون. لإستقبال الحالات المستعجلة هناك. ثم حوار مع مزارع في البقاع. حيث ذهبت صباحاً. كتبت. بلغة شاعرية تشرح تأملها عمل هذا المزارع بين غارة إسرائيلية وأخرى. وكيف ردّ عليها. حين سألته: ليس لي سوى أرضي. أعمل فيها. وأعيش منها. وقصص الطائرات يساعدن في حرق الأرض!

علقت ديما على المسألة بجملة: وهكذا يسخر اللبنانيون من الطائرات الإسرائيلية. ثم أنهت رسالتها: يوم آخر نقضيه قُرب بيروت. لم نخترق الحصار. ولم يدخل شارون عاصمة الحرة. سندخل قريباً. وسيخفق الإسرائيليون.

وتكررت الرسالة يومين آخرين. تكتب من خارج بيروت. وتشرح

اللعانة المحيطة لكنها لا تستطيع الدخول.

كنت في الرسالة الرابعة: شاهدت اليوم رهناً من نوع عجيب. قد لا يتصوره عقل. كانت أمامي مجموعة من المقاتلين تنفر على مباراة بكرة القدم. فبطولة كأس العالم موجودة هنا أيضاً. كانوا يتفرجون باستخدامهم بطارية سيارة. إنقسم المقاتلون بين الفريقين التنافسين. تراهنوا. على النتيجة. لكنهم لم يعرفوها لأن القصف بدأ قبل نهاية المباراة. إختلفوا على نتيجة مباراة. لكنهم إتفقوا على الوطن. فوقفوا جميعاً برؤى على القصف.

كان ناصر يقرأ. وهو يستمع إلى صوت التليفزيون الناقل مباراة مشابهة. من نفس البطولة. كتب عنواناً يقول: بيروت تراهن على عربيتها. وقف. توجه إلى جهاز التليفزيون. أطفأه. وبعث بالرسالة إلى المطبعة.

أغلق الباب على نفسه. وبكى.

وتوقفت رسائل دوماً.

كانوا يؤخرون الطباعة. كل يوم. عبثاً. ثلاثة أيام. لم تتوقف فيها هواتف "الجريدة" تسأل عن رسالة دوماً الإخبارية.

فجر اليوم الرابع. استيقظ عبد الله على هاتف. كان مسؤول الإستهلاعات على الجانب الآخر: أستاذ. أسف على الإزعاج. فأنا مضطر للمسألة. الأستاذة دوماً تريد التحدث معك؟

كانت دوماً دخلت بيروت. فكّت حصارها. وأجرت لقاء خاصاً مع أبي عمارة. في ساحة المعركة. وحصلت على تصريحات من صائب سلام ووليد جنبلاط. كانت رسالة إخبارية من النوع الذي لا يمكن أن يحلم به عبد الله ...

كانت دوماً أمامه.

الله يا دوماً كم أحبك ... وسأترجك!

وكانت طبعة ثانية. كتب ناصر العنوان: "الجريدة" تفك الحصار وتلتقي عرفات.

الخاتمة...

أثرت حيرتكم؟

أعرف ذلك...

ولكن ينبغي لكم أن تعذروني. فقد أوضحت منذ البداية. منذ بداية البداية. أنه ليس هناك من ناظم بين الفصول السابقة. سوى شئ واحد وحيد. هو أن عامر من كتبها بخط يده. ولا بد أن يكون مرّ بأحداث منها. أو عاش مع شخصيات تشابه تلك التي جاءت فيها. ولم أضمنها كتابي إلا لهذا السبب. على أنني لن أختتم الكتاب بها. بل بما مرّ به عامر نفسه. في يوم بعيد. بعيد. من حياته. أنتم تذكرون تلك الفترة التي فصلت بين تفجير عامر الطائرات. في مطار الثورة. وذهابه إلى معسكر السخنة. لكنكم لا تعرفون تفاصيلها. كان خلالها يحرس في الزرقاء ثلاث رهائن...

وكانت التعليمات واضحة...

لا تختمل الكسر. وعلى شكل وصايا ست:

لا تتحدث مع الرهائن إلا للضرورة القصوى. نفذ طلباتهم الغذائية قدر الإمكان. إظهر بصورة لا ثقة أمامهم. لا تنفعل إذا استفزوك. وحافظ على هدوئك. دعهم دائماً يشعرون بحزرك.

وجديّة موقفك، وحاول منع أي محاولة للهروب، ولكن إذا كنت مضطراً لوقف عملية الهروب باستخدام السلاح فلا تفعل أبداً، إلا إذا شعرت بأنك تدافع عن حياتك. في حالة مرض آية رهينة أسرع بالطبيب والدواء. ضع على عيونهم العصابة وقت التنقل، وانزعها فور الوصول.

وكانت حصته عائلة من ثلاثة إسرائيليين: الأب عاموس، عالم أناري أميركي يهودي إسرائيلي، يقضي أغلب أوقاته في فلسطين المحتلة متنقلاً من موقع إلى موقع، في رحلة بحث عن الماضي السحيق، الأم راشيل دكتورة في اللغويات، تُدرّس في جامعة هداسا، والإبنة تال، أنهت للتو دراستها الجامعية الأولى في جورج تاون، علوم سياسية، وعائدة إلى نيويورك لمواصلة الدراسة، والتخصّص في التاريخ المعاصر.

كان عامر كسر الوصايا الست، من اللحظة الأولى. كان نوى كسرهما حين عرف تخصّص الأب، بعد نزع العصابة عن عينيه، سارع إلى سؤاله: وهل وجدتم شيئاً يدلّ على تاريخكم في بلادنا؟ كان السؤال مفاجئاً، فركّ عاموس عينيه، ليتألّف مع ضوء النهار الغائب عنه منذ ساعات، وتطلّع إلى وجه محدّته، شاب لا يتجاوز العشرين، ملتح، يحمل الكلاشينكوف ومزتر بالطلقات والقنابل. ردّ: ماذا تقصد؟ قال عامر: سؤالني واضح: إنكم تفتشون عن دليل بقنعتكم بالخرافة؟ لم يجب عاموس، عاد وفرك عينيه. قال عامر: إنكم تقلّبون الحجارة، صغيرها وكبيرها، بحثاً حرف أو رمز يكون حجّتكم للاجتلال. لم يردّ، لكنّه تطلّع إلى زوجته وإبنته وقال لهما شيئاً بالعبرية. استفّر عامر.

قال: تحدّث بالإنجليزية. وقد وجّهت لك سؤالاً، فلم ترد. أجاب عاموس: حاولت تهدئتهما، هذا فقط ما فعلته. سكّت قليلاً. ثمّ أضاف: وهل تعتقد أن الوقت مناسب لحوار حول التاريخ؟ قال عامر: ولم لا؟ كان متحمّساً، ولا يدرك أنّه يتصرّف كطفل، فانسحب إلى نفسه، وضع سلاحه وحزام الطلقات والقنابل جانباً، واسترخى على كنبه، بعد دقائق ذهب في نوم عميق، كان يعرف أن الهروب من هنا أشبه بالمستحيل، مع غابة السلاح المستغرقة مساحة الزرقاء كلّها، ومع ثلاثة رفاق يحرسون الشقّة من الخارج. استيقظ على صوت قرقعة في المطبخ، فاستوى قاعداً، مدّت الصبيّة وجهها من الباب، وسألته: تشرب الشاي؟ قال ببرود: نعم، ولم لا. عادت تال تحمل صينية بأربعة فناجين، وضعت واحداً أمام عامر، وتوجّهت إلى الغرفة المجاورة. كان يرتشف من الشاي حين عادت، وجلست على كرسيّ إلى جانبه. قالت: واضح أنك مرهق. كم مضى عليك من الوقت دون نوم؟ أجابها ساخراً: خمس دقائق فقط، لقد استيقظت للتو! ضحكت، وقالت: أعرف، ولكنك تحيرني. كيف تترك سلاحك وتنام، ألا تخشى ممّا؟ نحن رهائن عندك، أجاب بعفوية خالصة: بل نحن الرهائن عندكم. أعجبته الجملة. قالت: كيف؟ قال: أنت تعرفين كيف، نحن عملياً رهائن لديكم. ردّت: هل تعرف أنّه من المفترض أن تبدأ بيننا، الآن، قصّة حبّ. قال وعلى وجهه إبتسامة: كيف؟ قالت: كلّ المخطوفات يبدأن بحبّ خاطفيهم إذا عاملوهم بطريقة مناسبة، وأنت عاملتنا، حتّى الآن، بما لم يخطر لنا على بال، حتّى والدي بيدي إستغرابه. ردّ: قلت لك،

فنحن المخطوفون ولسنا الخاطفين. وعلى آية حال، فهدفنا ليس قتلكم، أو إيذاءكم، بل إيصال رسالتنا إليكم، ومن خلالكم إلى الآخرين. اقتربت منه فطبعت على خده قبله بريئة، فاشتم فيها رائحة جسد تعب، وروح مرهقة، ورأى في وجهها العضا والأفعى السوداء، وماريا.

ومكثوا في البيت ثلاثة أيام، انتقلوا بعدها إلى بيت آخر، حتى جاء يوم تحريرهم. قال عامر: بكت نال دموعاً حقيقبة حين تركتني.

قلت له ساخراً: ليس من عادتك أن تترك النساء دون علاقة، حتى لو كانت عدوة. هذا يجري بدمك!

قال جاداً: ليس هذا هو الموضوع، ولكنني أعتقد أنني زرعت فيها طفلاً...

سكت قليلاً، ثم أضاف: وهذه هي المشكلة...

٥٢٤٢٥٢

